تامر إبراهيم

الطبعة الثانية

الليلة الثالثة والعشرون

ثنائية صانع الظلام

الكتاب الثاني

الليلة الثالثة والعشرون

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٣ عن
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي: 9789992195765

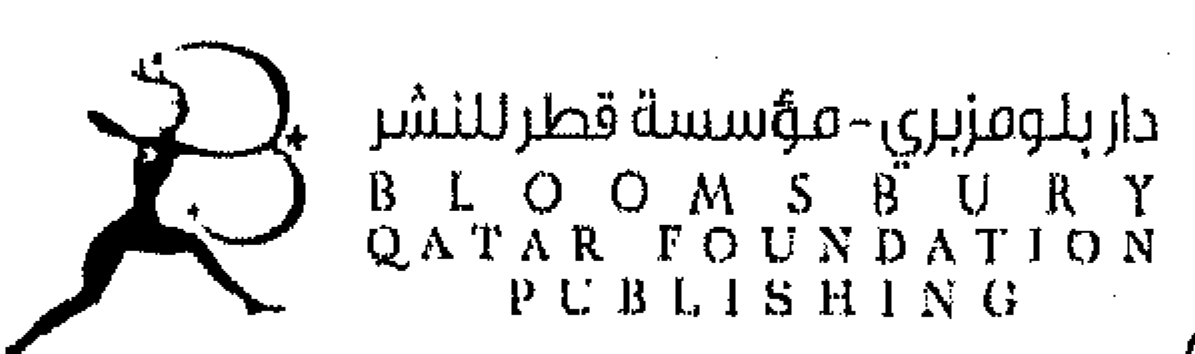
٢٤٦٨١٠١١٩٧٥٣

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

تامر إبراهيم

الليلة الثالثة والعشرون

ثنائية صانع الظلام
الكتاب الثاني





١

أعتقد أنه قد حان الوقت أخيرًا لنعرف ما الذي حدث لسوسن.

تركناها طويلًا وكانت آخر مرَّة رأيناها فيها ـ لو تذكُر ـ حين التقت يوسف في ذلك الكافيه قرب كُلِّيتها، يوم كلَّفته بالبحث في كتب التاريخ عن الشيء، قبل أن تتركه محذرة إياه من أنه سيزوره قريبًا، وأن عليه أن يستعد.. كيف عرفت أنه سيزوره قريبًا؟ لأنه كان قد زارها.. وزيارة الشيء الأولى لسوسن ستكون هي النقطة التي سنبدأ معها قصتها.

سنتركها الآن تجثم على صدر يوسف تهمُّ بغرس ما تبقَّى من سكينها في عنقه ودموعها تسيل على وجهها، وسنترك عصام الذي يسرع الآن هابطًا الدرج يهمُّ بأن يواصل مطاردة يوسف ـ الذي لم تنتهِ ليلته بعد، وسنترك أبواق سيارات الشرطة التي تقترب وبسرعة، وسنعود إلى الماضي، إلى اليوم الذي التقت فيه سوسن الشيء لأول مرَّة لتبدأ لعبتها معه.

لعبتها التي ـ وإن كانت تختلف نوعًا ما عن لعبة يوسف ـ دفعت ثمنها غاليًا كما سترى بنفسك.

* * *

كانت أمها تردد كعادتها في هذا اليوم:

ـ أنت تُخفين عني شيئًا ما.. أعرف أنك تُخفين عني شيئًا وسأنتظر أن تأتي طواعية لتخبريني به.

فكانت سوسن تجيبها بنظرة طويلة صامتة قبل أن تتركها لتعود إلى غرفتها حيث وحدتها الاختيارية، وحيث أطنان كتب التاريخ في انتظارها لتبحث فيها عن الشيء الذي سيزورها اليوم.. إن أمها تستخدم معها الحيلة الشهيرة التي تستخدمها كل الأمهات في كل زمان ومكان.

الذنب.

تريد أن تشعرها بالذنب وكأنها تعرف الحقيقة كاملة وتتحمَّل قسوتها ومرارتها في صبر إلى أن تأتي هي لتعترف لها بكل شيء، وهي حيلة كانت ستجدي معها لو كانت تحبُّ سرًّا ـ كما تظن أمها ـ لكن «الحقيقة» أنها ـ ومهما شعرت بالذنب ـ لن تستطيع أن تخبرها بما دار بينها وبين الدكتور مجدي في لقائها الأخير معه، والذي تغيرت من بعده شخصية سوسن تمامًا إلى الحد الذي دفع أمها إلى أن تشك في أنها تخفي «الحقيقة».

حتى لو فعلتها وأخبرتها بكل شيء، فكيف لأمها التي لم تكمل تعليمها أن تفهم أن هناك «شيئًا» ما موجودًا منذ بداية التاريخ، وكان السبب الرئيسي في كل الفترات المظلمة فيه، وأنه الآن موجود هنا يطارد ابنتها يبغي تدمير حياتها تمامًا كما فعل مع أستاذها مجدي الذي أتى به إلى عالمنا بعد أن كان حبيسًا لسنوات طويلة؟

ضع نفسك مكان سوسن، فستجد أن الصمت هو الخيار الوحيد المتاح، وستجد ـ وإن كانت سوسن مُحقة في صمتها هذا ـ أن أمها كذلك

مُحقة في شكّها، وهي التي ترى ابنتها تنطوي على نفسها أكثر فأكثر كل يوم كالمُدمنين.

هذه الفرضية تحديدًا دفعتها إلى مراقبة ابنتها وتفحُّص جسدها في أثناء نومها بحثًا عن آثار محاقن، ثم تفتيش غرفتها أكثر من مرَّة في غيابها بحثًا عما يثبتها، لكنها لم تكن تجد في كل مرَّة إلا كتب التاريخ وأوراقًا مليئة بتواريخ وملاحظات لم تفهم منها شيئًا.. وفي النهاية أعلن أبوها سخف هذه الفرضية، قائلًا:

ـ إنها الامتحانات.. لقد اقتربت.

وهو تفسير معقول ويتفق مع الساعات الطويلة التي كانت تقضيها سوسن كل يوم تقرأ كتبها ذات العناوين الكئيبة والأغلفة غير الجذابة، لكنه لم يُرضِ أمها قطُّ، ولم يخفف من قلقها ولو ذرة.. سوسن مجدَّة في دراستها منذ طفولتها، فما الذي استجد عليها؟ سوسن تعشق قراءة التاريخ منذ أن تعلمت القراءة، فلماذا تحوَّل هذا العشق إلى هوس حقيقي كأنها تريد حشر التاريخ كله في رأسها الجميل وقبل فوات الأوان؟

لا.. إنها ليست الامتحانات.. وربما ليست المخدرات.

إذن إنه الحب.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهت إليه أمها، وهي تعرف أنه كان هناك «سامح» وأنه رحل تاركًا فجوة في حياة ابنتها، ولا بد أن هناك «آخر» قد جاء ليملأ هذه الفجوة، وهو السر في انشغالها.. هذا يفسر انطواءها وشرودها ونحولها المتزايد، وأما عن نظرة الخوف في عينيها فتفسيرها موجود أيضًا.. إنها تخشى أن تخسر هذا «الآخر» كما خسرت سامح.. لكن..

مَن هو؟

سوسن لم تذكر اسمه قطُّ، وبحثُ أمها الدَّؤوب في غرفتها لم يسفر عن خطابات عاطفية أو رسائل في هاتفها تشي بهويته، وهذا لا يعني إلا أن سوسن تسعى جاهدة لإخفائه عنها.. لماذا؟ لأنه وغد!

الشاب الذي يرتبط بفتاة فيدفعها لإخفاء علاقتها به عن أمها هو وغد حقيقي لن يتزوجها، بل سيحصل على ما يريده منها وسيتركها بعدها فريسة لألسن الناس وأعينهم.. بل ربما هو حصل على ما يريده من ابنتها بالفعل.. نعم.. ربما قطف زهرتها.. وربما الآن ابنتها تجلس في غرفتها تحمل جُرمه في أحشائها تنتظر اليوم الذي سيعلن فيه عن نفسه حاملًا العار لها ولأمها التي لن تتحمَّل الصدمة.. ستأتي إليها سوسن باكية وستروي لها ما حدث، وستصاب هي بأزمة قلبية أو بجلطة ستفقدها القدرة على النطق والحركة.. بعدها سيقتلها أبوها تمامًا كما قتل الدكتور مجدي ابنه - هذا الموضوع بالذات كانت ترفض مناقشته أو مجرد ذكره أمامها - وسينفرط عقد هذه العائلة بلا رجعة، وستموت هي على فراش قذر في أحد المستشفيات الحكومية، التي لا يخرج منها مريض حيًّا.

كل هذا سيحدث لأن سوسن تُخفي عنها سرها!

لكننا.. ولأننا نعرف أكثر.. سنترك أم سوسن وأفكارها السوداء هذه وسننتقل إلى سوسن في غرفتها لنبحث معها عن الشيء في كتب التاريخ، ولنسترجع معها ذكريات لقائها الأخير مع أستاذها مجدي الذي لم تعرف بعد أنه مات في مستشفى السجن، فهي لم تلتقِ يوسف للمرَّة الثانية بعد.

الكتاب الذي كانت تقرأه يومها كان «سنوات الحرب والدم في القرن

العشرين»، وهو كتاب لم يحمل ذرة من جاذبية عنوانه، بل على العكس تمامًا كان كاتبه قد ملأه بأكبر كمٍّ ممكن من المغالطات التاريخية والمقاطع المترجمة بركاكة، وبإحصائيات يستحيل أن تكون دقيقة إلا إذا كان صاحبها يمتلك قدرات إلهية لا حد لها، لكنها لم تكن تقرأ لتستمتع أو لتدرس أو لتبحث عن الشيء حتى هذه المرَّة.

لقد كانت تقرأه ـ فقط ـ لمجرد أنها تحاول طرد صورة الدكتور مجدي من مخيلتها بتلك النظرة الخائفة الحزينة التي حملها وجهه في آخر لقاء لها معه.. إنها لم تلتَقِه ثانية قطُّ، ففي اليوم التالي للقائها الأخير معه عرفت أنهم قبضوا عليه لأنه قتل ابنه، وأن السجن فالإعدام سيكونان في انتظاره.. لكنها كانت تعرف الحقيقة.. تعرفها وتعرف أنها لن تنقذه من مصيره، فاحتفظت بها لنفسها وقررت مواصلة ما بدأه هو مرغمة، محاولة تجاهل كل ما حدث ويحدث لأستاذها الوحيد.

هو مَن طلب منها هذا.. هو أخبرها بأنها ستكون نهايته، وأنه يستحقها، فهو من أعاد الشيء إلى عالمنا.. وهو الذي أخبرها بأن دورها آتٍ، فالشيء لن يتركها، ولن يترك التاريخ كله إلا لو عثرت هي على طقوس القضاء عليه.. وهذه هي مهمتها التي عليها تنفيذها إن بقيت على قيد الحياة.

أن تنسى الدكتور مجدي الذي كان بمنزلة أبٍ لها أكثر من كونه أستاذًا، وأن تركز طاقتها كلها في البحث عن الشيء والقضاء عليه قبل فوات الأوان.. ويا لها من مهمة!

سوسن كانت فتاة طبيعية قبل لقائها الأخير مع الدكتور مجدي كما ذكرنا من قبل.. مجرد فتاة طبيعية تعشق التاريخ بصورة مبالغ فيها نوعًا ما، لكن عشقها هذا لم يحرمها من لقب «طبيعية»، بدليل أنها وجدت وقتًا

لتُحب سامح قبل أن يتركها من أجل فتاة أخرى أقل انشغالًا بالتاريخ - الأمر الذي لم تُخبر به أمها قطُّ - وبدليل أن إحساسها بوجود شيء ما غامض في التاريخ كان يندرج أسفل الشك العلمي كباحثة في التاريخ، إلى أن أتى الدكتور مجدي ليحوِّل لها هذا الشك إلى يقين رهيب.. بعدها..

بعدها تحوَّلت سوسن إلى شبح فتاة تعرف أكثر مما كان ينبغي لها أن تعرف.

فتاة عليها أن تتجاهل تمامًا أخبار أستاذها الذي ألقوا القبض عليه لتملأ صوره الجرائد والمجلات تذيلها صور ابنه - الذي هو ليس ابنه - والذي تحوَّل إلى أسطورة حضارية في كُلِّيتها.. لقد أصبح اسمه يتردد مع كل همسة، وفي كل نظرة مصوبة إليها - فهي كانت تلميذته المفضلة والكل يعرف هذا - ولقد كان ينتظرها بنظرته الخائفة الحزينة في كل مرَّة تفتح فيها كتابًا أو تغلق فيها عينيها محاولة طرده من مخيلتها.

كانت تراه، وكانت تتخيل ما حدث له على يدي الشيء، ثم تتخيل أنه سيحدث لها، فهو أخبرها بأنه سيزورها وأنه سيدمر حياتها كما دمر حياته.. أخبرها بأن الشيء سيقاوم، فهو لن يتركها تعثر على طريقة القضاء عليه بسهولة، وأخبرها بأن عليها انتظاره فهو قادم.

ومن يومها تنتظر سوسن زيارة الشيء، وتترقبها كمريض بالسرطان ينتظر الموت الآتي لا محالة، حتى أكسبها ذلك الانتظار عادة التلفُّت حولها كالمجاذيب طوال الوقت، كأنها تنتظر ظهور شيء ما في أي لحظة.. كأن الشيء سينبت فجأة من العدم وفي اللحظة التي لن تتوقع فيها ظهوره.

صحيح أن الدكتور مجدي ترك لها طقوس استدعائه، لكنها لم تجرؤ

على تجربتها قطُّ.. لقد رأت صورة ابنه الذي احتل الشيء جسده في الصحف، ولم تتحمَّل تلك النظرة المخيفة في عينيه، فما بالك بأن تنفذ طقوسًا لاستحضاره بنفسها؟ ليأتِ هو حين يقرر أن يأتي، وإلى أن يفعلها ستبحث هي عنه في التاريخ علَّها تجد طقوس القضاء عليه.

لكن يوسف أتى أولًا.

حاملًا نحوله ونظراته الحادة وأسئلته عن الدكتور مجدي وابنه ـ الذي هو ليس ابنه ـ أتى إلى كُلِّيتها، وقد بدا عليه أنه أتى ليحصل على الحقيقة، لا تلك الأكاذيب التي ألقاها الكل في وجهه بلا حساب، فلم تشغل بالها به، وتحاشته كما فعل الأستاذ قدري في بداية أمره، إلى أن عرفت أنه التقى أستاذها في السجن، ليكون الوحيد الذي رآه منذ أن أودعوه سجنه.

وعلى الرغم من أن الدكتور مجدي طالبها بنسيانه، فإنها لن تستطع مقاومة رغبتها في معرفة أي شيء جديد عنه، فانتظرت يوسف أمام كُلِّيتها لتجده وقد فقد حماسه للموضوع كله، فشحذته ثانية مخاطرة بقولها:

ـ ابنه على قيد الحياة فعلًا.. ويجب أن نجده قبل فوات الأوان.

كانت مخاطرة بالطبع، فهي لم تكن تعرف ما يعرفه يوسف بعد، لكنها كانت كافية ليتبعها إلى ذلك الكافيه القريب من كُلِّيتها، حيث منحته جزءًا من الحقيقة، ليمنحها هو عدم تصديقه ـ كما توقعت ـ وليتركها ويرحل بعد أن عرفت منه ما يهمُّها معرفته.

الدكتور مجدي لا يزال حيًّا.. الشيء لا يزال موجودًا.. وفيما يبدو سينضم هذا الصحفي سيِّئ الحظ إلى قائمة ضحاياه تقريبًا.. حتى مطلب الدكتور مجدي من يوسف أن يبحث عن ابنه ليقتله بدا لها رسالة موجهة لها

شخصيًّا، فاستقبلتها لتتذكر وعدها إياه، ولتقرر تجاهل يوسف ـ مؤقتًا ـ لتعود إلى كتبها وبحثها الذي طال من دون أن يقودها إلى أي نتائج.. لكن اليوم سيتغير كل شيء.

فاليوم ستلتقي سوسن الشيء لأول مرَّة في حياتها.

وفي المرَّة الثانية ستبدأ لعبتها معه.

* * *

كانت سوسن تجلس على فراشها وسط كتب التاريخ تحاول إنهاء قراءة كتاب «سنوات الحرب والدم في القرن العشرين»، وقد أخذت تسلِّي نفسها بتصحيح الأخطاء بقلم وضعته خلف أذنها.

كان الفصل الذي تقرأه يتحدث عن «معركة السوم»، وكان كاتبه قد صاغه بأسلوبه الركيك على هذا النحو:

> وقعت معركة السوم في فرنسا، على ضفتي النهر من نفس الاسم. وتألفت المعركة من هجوم شنته الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الجيش الألماني، والذي منذ غزو فرنسا في أغسطس ١٩١٤ قد احتل مساحات واسعة من هذا البلد.. وكانت معركة السوم واحدة من أكبر المعارك في الحرب العالمية الأولى وفيها سجلت أكثر من ١,٥ مليون إصابة من قبل القوات المشتركة.. ومن المفهوم أن تكون واحدة من العمليات الأكثر دموية العسكرية التي سجلت على الإطلاق.

ثم تعالى صهيل حصانٍ فجأة خارج غرفتها!

تعالى فانتفضت وسقط الكتاب من يدها على الفراش، ثم تجمَّدت مكانها وقد أعجزتها المفاجأة عن التفكير أو الحركة.

حصان في صالة منزلي؟! لا بد أنني أهذي!

بالطبع هي تهذي، فما الذي سيأتي بحصان في شقتها؟ لا بد أنه التلفزيون.. أمها في الخارج الآن، ولا بد أنها فتحت التلفزيون، ولا بد أنها رفعت من صوته فجأة ليتعالى صهيل الحصان منه، وهذا هو التفسير المنطقي الوحيد، الذي لا يعيبه إلا حقيقة واحدة.. أنها سمعت أمها تغادر المنزل منذ قليل!

إنها الرابعة عصرًا وأمها اعتادت الخروج في هذا الوقت لتقضي بعض الوقت عند جارتها، ولتشكو إليها من قسوة ابنتها التي تُخفي عنها أسرارها، وهي سمعتها وهي تخرج من الشقة منذ قليل وسمعت صوت باب الشقة الثقيل وهو يُغلق وراءها، لكن.. ربما عادت أمها من دون أن تشعر بها.. عادت وفتحت التلفزيون فتصاعد منه صوت صهيل الحصان، والدليل عليه هو أن الصوت تعالى مرَّة واحدة، ثم توقفت الأصوات بعدها تمامًا.

كل الأصوات توقفت ليخيِّم صمت ثقيل على الشقة، ولتستعيد سوسن قدرتها على الحركة والتفكير تدريجيًّا لتقرر تجاهل الأمر كله، ولتمسك بكتابها من جديد وتهم بمواصلة القراءة فيه و.. و..

وتعالى صوت الصهيل ثانية!

وهذه المرَّة انتفضت سوسن وصرخت، فالصوت كان أعلى وأكثر وضوحًا، وكان بالنقاء الكافي ليؤكد لها حقيقة أنه لم يتصاعد من تلفزيونهم العتيق الذي تخرج الأصوات منه مكتومة أقرب إلى الضوضاء.. لا.. هذا

الصوت خرج من حنجرة حصان مباشرة، وهذا الحصان يقف الآن أمام باب غرفتها مباشرة، يضرب الأرض بحوافره كأنه يستعد لاقتحام غرفتها.

لكن.. كيف؟

وهنا استبد بسوسن خوف طفولي زرعته أمها فيها في صغرها، قبل أن تتركها في المنزل بمفردها لأول مرَّة حين كانت طفلة.. يومها أجلستها أمامها وأخذت تلقي عليها بسيل لا ينتهي من الوصايا والتحذيرات وكلها كانت تدور حول نقطة واحدة.. سأتركك بمفردك وستجلسين في غرفتك ولن تخرجي منها حتى أعود.. وإياكِ.. إياكِ أن تفتحي باب الشقة لأي غريب.. ومهما كان السبب.

يومها منحتها سوسن طاعتها بلا جدال أو مناقشة، فتجربة أن تقضي اليوم بمفردها في الشقة بدت لها مثيرة بما يكفي، وهي لم تكن لتخاطر بإضاعة الساعات التي ستقضيها وحيدة مع كتبها، لكن أمها ـ التي لا تحمل في رأسها سوى الأفكار السوداء ـ افترضت أن سوسن ستخالف أوامرها ما إن تخرج، فأخذت تروي لها قصصًا مروعة عن أطفال فتحوا باب الشقة لغرباء، ليعود ذووهم في النهاية ويعثروا عليهم جثثًا ممزقة محترقة، لمجرد أنهم سمحوا لهم بالدخول.

«وهذا هو ما سيحدث لك يا سوسن لو خرجتِ من غرفتك في غيابي.. سأعود وسأجد أن الغرباء قد قتلوكِ ومزقوا جثتك، وسيحرقونها ويحرقون المنزل، وسيعاقبكِ أبوكِ أشد عقاب لو حدث هذا».

كيف سيعاقبها أبوها بعد أن تُقتل وتُحرق جثتها الممزقة؟ لم تعرف سوسن إجابة هذا السؤال قطُّ، لكن طريقة أمها كانت مجدية حقًّا.. ومن

يومها، وفي كل مرَّة كانت أمها تتركها، كانت سوسن تحبس نفسها في غرفتها لتظل فيها مع كتبها تقرأ وتحاول تخيُّل الغرباء الذين يقفون الآن خارج باب الشقة ينتظرون أن تفتح لهم الباب ليمزقوها حية.

وها هي الآن شابة بالغة في السنة النهائية في كلية الآداب قسم تاريخ، تجلس على فراشها ترتجف وقد أخذت مثانتها في التقلص، عاجزة عن مغادرة مكانها لاستكشاف مصدر صوت الصهيل الذي تعالى للمرَّة الثالثة خارج غرفتها مباشرة.

إنهم الغرباء.. لقد دخلوا الشقة بأحصنتهم، وسيمزقونها حية، وسيحرقون ما سيتبقى من جثتها، وحين يعود أبوها ويرى ما أصابها سيعاقبها!

أو إنها تهذي وهو التلفزيون وأمها تجلس أمامه الآن، وهذا هو التفسير المنطقي الذي يصر على فرض نفسه الآن في عقلها.

لا أحصنة.. لا غرباء.. لن يقتلها ولن يحرق جثتها أحد.. وكل ما يحدث الآن هو نتاج طبيعي لإرهاقها وعدم حصولها على ساعات نوم كافية طوال الفترة الماضية.. «المنطق» يصر على رأيه، وكل ما عليها الآن هو أن تقتنع به، وأن تغادر فراشها لتخرج من غرفتها، لتجد أمها تنتظرها بنظرة اللوم في عينيها وبسلاح الذنب في يدها، وهو سلاح ستتلقى سوسن ضرباته راضية مطمئنة بدلًا من الخوف الوحشي الذي يمزق أحشاءها الآن.. ثم إن مثانتها المتقلصة هذه لن تتحمَّل أكثر من هذا وهي لن تبلل فراشها في هذه السن!

خارج غرفتها توقفت الأصوات من جديد لتشجعها على تقبُّل

«المنطق»، فتحركت سوسن في بطء حذر لتغادر فراشها، ولتتجه إلى باب غرفتها على أطراف أصابعها محاولة ألا تصدر أدنى صوت.. لو كان التلفزيون فلا بد أنها ستسمع صوته الآن.. أو على الأقل صوت أمها في المطبخ وقد شرعت في إعداد الغدَاء.. أو على الأقل أيًّا من تلك الأصوات المعتادة التي تصدرها الشقق حين تخلو من سكانها.. أي شيء.. المهم أنها لن تسمع صوت الـ...

وللمرَّة الرابعة تعالى صوت الصهيل خارج غرفتها، فصرخت سوسن وتراجعت قافزة لتسقط على ظهرها في اللحظة التي انفتح فيها باب غرفتها فجأة، لتجد سوسن الذاهلة نفسها تحدق في تلك الصحراء القاحلة خارج غرفتها، والتي وقف فيها جواد ضخم رفع قائمتيه الأماميتين في الهواء للحظة، قبل أن ينقض عليها مباشرة!

صرخت سوسن وأغمضت عينيها غريزيًّا، وقد انتقل تقلص مثانتها إلى قلبها في صدرها، وكانت الفكرة الأخيرة التي ترددت في عقلها هي أن الأحصنة ليست بالجَمال الذي كانت تظنه.. ذلك العشق السرمدي الذي يربط بين الفتيات والأحصنة تبدد في أعماقها، وإلى الأبد، وقد أصبحت على وشك الموت أسفل حوافر حصان وجد طريقه إلى غرفتها بمعجزة ما، لكن وبعد مرور لحظات ليست طويلة تلاشت هذه الفكرة من رأسها، ليحل مكانها اكتشافان يستحقان بعض الاهتمام: أولهما أن الحصان لم يهشم عظامها بحوافره بعدُ كما كانت تتوقع منه. والآخر أن أرض غرفتها تحولت إلى رمال!

الملمس الصلب البارد لأرضية غرفتها اختفى، وحلَّ مكانه دفء الرمال وخشونتها، ومن دون أن تفتح عينيها حركت أصابعها لتجدها في

النهاية تقبض على حفنة من الرمال التي سالت من بين أصابعها مخلفة وراءها الذهول والحيرة.

وببطء فتحت سوسن عينيها فوجدت أن غرفتها لم تعد هناك.. عالمها كله تلاشى من حولها، وبدلًا منه وجدت أنها تجلس على رمال تلك الصحراء القاحلة وقد أخذت الرياح الساخنة تضرب وجهها بلا هوادة.. حتى الحصان الذي كان سينقض عليها اختفى من دون أن تترك حوافره أثرًا على الرمال، فتلفتت سوسن حولها للحظات تبحث عنه بمزيج من الذهول والحيرة، وقد أخذ صوت المنطق يتعالى في رأسها من جديد ليمنحها حقيقة جديدة.

لقد فقدت عقلها!

التفسير الوحيد لما يحدث لها الآن هو أنها فقدت عقلها أخيرًا بعد أشهُر من الضغوط النفسية والجسدية التي قاومتها طويلًا.. وهو حقها بالمناسبة. بعد كل ما عرفته ومرَّت به من حقها أن تفقد عقلها وأن تجد نفسها الآن في تلك الصحراء الممتدة من حولها بلا نهاية، وأن تشعر بالرمال الساخنة تتطاير مع الرياح لتضربها في وجهها كأسهم متناهية الصغر.

أو ربما هو كابوس!

في هذه الحالة عليها أن تخوضه مضطرة حتى نهايته، وستستيقظ في النهاية لتجد نفسها على فراشها في غرفتها ـ كما أمرتها أمها ـ وستنساه على الرغم من دقة تفاصيله الحالية.. وسينتهي الأمر كله عند هذا الحد.. لكنه إن لم يكن كابوسًا، ولو كانت قد فقدت عقلها فعلًا، فلن تستيقظ

منه إلا بعد أشهُر من العلاج بالصدمات الكهربائية، لتجد أنها أصبحت ضيفة شبه دائمة في مستشفى الأمراض العقلية. وفي الحالتين سيكون هذا أفضل بكثير من أن تكون قد انتقلت فجأة ومن دون أي مقدمات إلى صحراء قاحلة لن تحمل لها إلا الموت عطشًا.

هكذا وقفت سوسن في النهاية، فتساقطت الرمال عن ملابسها. وهكذا وجدت نفسها تحاول الإجابة عن السؤال ذاته الذي واجهه يوسف حين وجد نفسه في تلك الغابة في الماضي السحيق: إلى أين؟

الصحراء من أمامها ومن ورائها ومن على كل جانب لا تحمل لها إلا أطنانًا من الرمال والرياح الساخنة، من دون علامة واحدة تدلها على الاتجاه الصحيح، فإلى أين ستتحرك الآن؟

في السماء حدقت فيها الشمس تنتظر قرارها، فترددت هي قبل أن تتخذه ليكون القرار ذاته الذي اتخذه يوسف في فصله الأول من فصول لعبته مع الشيء.. ستتجه إلى الأمام.

إلى أين سيقودها هذا الاتجاه؟ إلى مكان ما، أو إلى نهاية هذا الكابوس، أو ستواصل طريقها إلى أن تستعيد عقلها، أو تهلك عطشًا في هذه الصحراء.. هذه هي كل الاحتمالات المتاحة ولا توجد بدائل أكثر إغراءً تدفعها إلى تغيير هذا الاتجاه.. إذن.

خطت سوسن خطوتها الأولى إلى الأمام فانغرست قدمها الحافية في الرمال الساخنة، لكنها تحمَّلت سخونتها وواصلت طريقها إلى الأمام.. ومن جبينها بدأت قطرات العرق تحتشد لتسقط أنهارًا على جانبي وجهها، فأدركت أن بقاءها في هذه الصحراء لن يطول.. حلقها الذي جفَّ فجأة

يؤكد لها هذه الحقيقة، وهي لن تشغل بالها بنهايتها هنا، فالأهم الآن هو أن تشغل نفسها بـ«لماذا» هي هنا.

إنه الشيء.

بالطبع هو الشيء.. فالدكتور مجدي أخبرها بأنه سيزورها، وهي انتظرت زيارته هذه طويلًا، وتخيلتها بأسوأ الطرق الممكنة.. تخيلته شبحًا ماردًا سيخرج لها من وسط الجدران أو من أسفل الفراش أو من خزانة ملابسها، ليكشف لها عن نفسه وليبدأ تدمير حياتها، لكنه بدلًا من هذا كله اختار هذا الكابوس ليكون مسرحًا للقائهما الأول.. فقط عليها الآن أن تنتظره وأن تتمنى أن يكون هذا كابوسًا حقًّا، وألا يكون الشيء قد نقلها ـ حرفيًّا ـ إلى تلك الصحراء حيث ستهلك مهما طال بها الوقت.

لكن.. أين هو؟

لو كان الشيء هو مَن أحضرها إلى هنا فأين هو؟ ولماذا لم يكشف لها عن نفسه حتى الآن؟

ولماذا الصحراء تحديدًا؟

ليستنفد قواها قبل أن يواجهها؟ أم إنه سيتركها هنا لتهلك من دون أن يلتقيها حتى لينهي دورها في القصة من قبل أن يبدأ؟

أسئلة لن تعثر على إجاباتها في رمال الصحراء، وكل ما عليها الآن فعله هو أن تواصل طريقها.. إلى أين؟ إلى الأمام!

هكذا واصلت طريقها حتى جفَّ العرق على وجهها، وحتى تحوَّل لسانها إلى قطعة من الخشب الخشن في فمها الذي فتحته لتلهث بإنهاك

لم تتوقع سرعته، إلى أن اكتشفت في النهاية سخف ما تحاول فعله، فألقت بجسدها على الرمال وقد قررت التوقف عند هذا الحد.. ما جدوى المواصلة وهي لا تملك هدفًا ولا طريقًا ولا مَخرجًا مما هي فيه؟

لتظل مكانها إلى أن يأتي الشيء أو إلى أن تجف الحياة في جسدها أسفل هذه الشمس الحارة و.. و..

وفجأة تعالى صوت الصهيل مجددًا!

لكنه لم يكن صهيل حصان واحد هذه المرَّة.. لا.. الصوت الذي سمعته سوسن فانتفضت كان صوت أحصنة.

قطيع كامل من الأحصنة يصهل بقوة.. ويقترب.

الرمال أسفلها ترتعش، والأرض ترتج، وصوت عشرات الحوافر تضرب رمال الصحراء وتقترب منها وبسرعة.

هنا فقدت سوسن منطقها تمامًا، وهبَّت واقفة لتتلفت حولها باحثة عن مصدر الصوت الذي أخذ يقترب ويقترب، قبل أن تحدد مصدره لتنطلق تعدو في الاتجاه العكسي بأقصى سرعة وقد شقت صرخاتها حلقها الجاف وبقوة.

ولو كانت سوسن قد احتفظت بذرة من منطقها لما حاولت الهرب، فسرعة عدوها على الرمال لن تكفيها أبدًا للابتعاد عن قطيع من الأحصنة ينطلق في إثرها، لكنها كانت قد فقدته تمامًا ليحل الخوف محله، فاندفعت صارخة وقد أخذ صوت الجياد التي تطاردها يقترب ويقترب، إلى أن تعالى الصهيل من ورائها مباشرة هذه المرَّة، فصرخت وألقت بنفسها على الأرض تحاول دفن جسدها في الرمال وقد أيقنت أنها نهايتها هذه المرَّة.

هذه المرَّة ستدهسها عشرات الحوافر، وستتركها مهشمة العظام تنزف على رمال الصحراء إلى أن تفيض روحها، ولو كانت محظوظة فلن يطول عذابها.

ستهلك ولن تستيقظ في غرفتها على فراشها، ولن تجد نفسها في مصحة للأمراض العقلية، بل ستتحول إلى بقعة دامية ثنائية الأبعاد هنا في هذه الصحراء حيث لن يعثر على جثتها أحد.

هكذا أغمضت عينيها في قوة وانتظرت النهاية، ومن على جانبيها شعرت بعشرات الأحصنة تمر وتقفز من فوقها، فلم تقوَ حتى على الصراخ مجددًا، ولم تكن صرخاتها لتعلو على تلك الضوضاء الهائلة التي أصدرتها الجياد من حولها، وقد امتزج الصهيل بصوت الحوافر وبصوت الرمال التي انتفضت من مكانها لتحلق في الهواء من حولها في عاصفة شعرت بها سوسن وإن لم تجرؤ على فتح عينيها لتراها.

ثم انتهى كل شيء فجأة!

في لحظة واحدة تلاشى الصوت وتلاشت الأحصنة وتلاشت عاصفة الرمال.. حتى الرياح من حولها لاذت بالسكون فجأة، فوجدت سوسن نفسها تفتح عينيها ببطء لتجد أنها وحيدة تمامًا في قلب صحراء امتدت حولها بلا نهاية.. لكن مهلًا.. إنها ليست وحيدة تمامًا.

فهناك ومن وسط الصحراء تحرَّك شيء ما أشبه بالسراب أمامها، قبل أن يقترب إلى الحد الكافي لتميِّز ماهيته ولتشعر بتلك البرودة العجيبة تسري في جسدها على الرغم من حرارة الصحراء.

إنه... لكن... مستحيل!

لكنه كان هو.. ذلك الجسد الضئيل، وذلك الوجه الطفولي ذا النظرات الحادة، وهذه الملابس التي رأتها في الصورة.. إنه.. إنه..

ابن الدكتور مجدي!

بخطوات هادئة وبابتسامة عابثة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها وقد أخذت الرياح تعبث في خصلات شعره الأسود الناعم، إلى أن بلغها ليقف أمامها مباشرة، فحدقت هي فيه بمزيج من الرهبة والذهول والرعب، ليبدأ هو بصوت حمل من العبث ما كاد قلبها يتوقف له هلعًا:

ـ تأخر لقاؤنا كثيرًا.

إنه هو.. إنه هو..

الشيء.

في هيئة ابن أستاذها مجدي، وفي وسط هذه الصحراء، يقف أمامها ويبتسم مواصلًا:

ـ سنبدأ لعبتنا قريبًا.. وستكون ممتعة.. أعدك بهذا.. ولكن قبل أن نبدأ.. يجب أن تذهبي إليه أولا .

قالها وأشار بيده إلى اتجاه ما، فتحرك رأس سوسن لاشعوريًّا لتنظر في الاتجاه الذي أشار إليه، ولتجد نفسها تحدق في تلك البناية حديثة الإنشاء.. والتي ـ وإن بدا وجودها شاذًّا في هذه الصحراء ـ تعرفتها على الفور، فهي كانت قد رأتها سابقًا على أرض الواقع.. إنها البناية التي انتقل إليها سامح، والتي سيتزوج فيها قريبًا كما عرفت من أمها.. لقد مرَّت من أمامها في أحد الأيام وحفظتها لتحافظ على ابتعادها

عنها، حيث قررت ألا تحاول رؤية سامح مجددًا مهما كان السبب، لكن ها هي الآن تحدق فيها وسط الصحراء، وصوت الشيء ينبعث عابثًا من جسد الطفل، يقول:

ـ ستكون بدايتك هناك.. وسأكون في انتظارك.

فواصلت سوسن التحديق في البناية التي أخذت تتلاشى تدريجيًّا كالسراب أمام عينيها، قبل أن تلتفت مجددًا إلى الطفل لتجده قد اختفى هو الآخر.

وفي اللحظة التالية أظلمت الدنيا من حولها فجأة وشعرت بجسدها يَهوِي.

* * *

ثم وجدت نفسها على فراشها في غرفتها.

هكذا ومن دون مقدمات استعادت عالمها كاملًا، لكنها لم تستعد قدرتها على التفكير إلا بعدها بساعات طالت قضتها على الفراش تبكي وترتجف حتى جفت دموعها، لتغادره في النهاية ولتبدأ التفكير في خطوتها التالية.

لقد تلقت زيارتها الأولى من الشيء.. لقد كانت أسوأ من كل تخيلاتها تمامًا كما وعدها الدكتور مجدي.. لقد بدأت نهايتها، وكل ما عليها الآن هو أن تعثر على طقوس القضاء عليه قبل أن يقضي هو عليها. وقبل هذا كله عليها أن تذهب إلى سامح في منزله لتراه بعد سنوات طالت قضتها تحاول نسيانه.

لكنها وفي اليوم التالي التقت يوسف أولًا للمرَّة الثانية.

* * *

وأنت تذكر لقاءها الثاني مع يوسف وتذكر ما حدث فيه.

منه عرفت أن أستاذها مات أخيرًا لينتهي دوره في هذه القصة، ومنه عرفت أن يوسف تورط مثلها فيما يحدث ولم يعد يملك مجالًا للتراجع، فطلبت منه مساعدتها في البحث في كتب التاريخ، وإن شعرت بأن مطلبها هذا لن يجدي شيئًا.. لكنه كان مطلبًا من باب إراحة الضمير لا أكثر.. لو كان سيهلك قريبًا فمن حقه أن يعرف الطريقة الوحيدة للنجاة ممَّا سيحدث له.

لهذا منحته قائمة بالكتب التي لن تجد الوقت الكافي للبحث فيها، وتركته يومها بعد أن حذرته من زيارة الشيء، من دون أن تحكي له عن زيارته لها ـ فهي لن تخاطر بعدم تصديقه أو بإصابته بالمزيد من الهلع ـ ثم أخذت تجوب الشوارع محاولة التغلب على مشاعرها، وقد امتزج حزنها على الدكتور مجدي، بالخوف من زيارة الشيء الأولى لها، بالإشفاق على يوسف الذي يبدو أن سوء حظه سيقوده إلى نهايته، بترددها وعجزها عن اتخاذ قرار نهائي بشأن زيارة منزل سامح، حيث ينتظرها الشيء كما وعد.

وهنا لن نضيِّع وقتنا في محاولة فهم الطريقة التي اتخذت بها سوسن قرارها في النهاية، فمن المستحيل أن تجد طريقة لفهم تفكير الأنثى ـ وهي قاعدة مطلقة لا تقبل نقاشًا أو جدلًا ـ فقط سنصل إلى اللحظة التي حسمت فيها أمرها لتنطلق إلى سامح في شقته في البناية الحديثة التي رأتها

في الصحراء، وسننتقل معها إلى هناك حيث ستنتهي زيارتها بجثة سامح وقد احترقت من الداخل إلى الخارج كما رأيناها آخر مرَّة.

كيف حدث هذا؟

الآن ستعرف.

* * *

يومها استعانت سوسن بخبرات توارثتها الفتيات عبر الأجيال، ويمكن أن نسميها «دليل الفتاة المهذبة لزيارة شاب أعزب في شقته من دون أن تثير الشبهات!».

أولًا: البحث عن اسم فتاة تعيش في البناية ذاتها.

وهي الخطوة الأولى التي ستمكنك من تجاوز أول عقبة.. والمتمثلة في حارس البناية العجوز.

في كل بناية حديثة ستجدين واحدًا يسدد إليك نظرات شكه واتهامه ما إن يراكِ، كأنك فتاة ليلٍ أتت لتعرض بضائعها من دون أن تمنحه نسبته المستحقة، وستجدين فتاة مقاربة لك في العمر ـ بالطبع ستجدين فلا يوجد أكثر من الإناث على هذا الكوكب ـ لو ذكرتِ اسمها فأنت صديقتها وقد جئت لزيارتها لأنها تُحتضر على الأغلب، هذه هي القاعدة في أغلب المجتمعات الشرقية، ولست هنا لأحللها بل لأساعدك للتغلب عليها بخطوات ميسرة وفي متناول الفتاة المهذبة.. ولكن..

كيف ستحصلين على اسم فتاة تعيش في بناية لا تعرفين فيها أحدًا؟ الإجابة: من الحارس ذاته!

إن سوسن فتاة ذكية حقًا، ومنها تعلمي عزيزتي الفتاة المهذبة طريقة الحصول على اسم فتاتك التي ستزعمين زيارتها، فسوسن حين وجدت الحارس العجوز في انتظارها أصابت نفسها بنوبة سعال حادة تمزق نياط القلوب، لتخرج الكلمات منها متقطعة غير مفهومة على النحو التالي:

ـ أنا.. صاعدة.. لزيارة.. منرداليهيام.

فصحح لها الحارس:

ـ تقصدين علياء؟

ـ نعم.. هي..

ـ الطابق الرابع.. شقة رقم ١٤.

فهزت سوسن رأسها شاكرة وسعلت قبل أن تسرع إلى المصعد لتأخذه إلى الطابق الرابع، وتركته هناك لتواصل الصعود على الدرج إلى الطابق السادس حيث يعيش سامح كما عرفت سابقًا.. هكذا تجاوزت الخطوة الأولى بنجاح، وهكذا يأتي دور...

ثانيًا: التظاهر بالحماقة.

وهي موهبة تملكها كل الفتيات بلا استثناء، ولا داعي لنضيِّع وقتنا في الجدال في هذه النقطة.. تذكري عزيزتي الفتاة المهذبة كيف تظاهرتِ بالحماقة حين صارحك ذلك الشاب بحبه.. حين سألتك أمك عن سر تأخرك.. وحين قدتِ سيارتك أول مرَّة لتصطدمي بها بأول سيارة مرت جوارك وبأول شرطي مرور.

الواقع أنه لا توجد فتاة تحترم نفسها لا تجيد التظاهر بالحماقة، وكل

المطلوب منك الآن هو استغلال هذه الموهبة لتطرقي على شقة شاب أعزب، ولتفعلي مثلما فعلت سوسن حين فتح سامح الباب ليفاجأ بها تقف أمامه، تقول:

ـ أليست هذه عيادة الـ.. مَن؟ سامح؟!

ـ سوسن!

وهنا.. وعلى الفور.. تأتي القاعدة التالية وهي:

ثالثًا: إخفاء مشاعرك الحقيقية بأي طريقة.

وهذه الخطوة كانت الأصعب على سوسن فهي ـ على الرغم من كل شيء ـ فتاة.

لقد تخيلت المشهد التالي في رأسها مئات المرَّات، وفي كل مرَّة كانت تتخيل الأسوأ حتى إنها ظنت أنها ورثت موهبة الأفكار السوداء من أمها.. ستطرق الجرس وسيفتح سامح الباب ليجدها تقف أمامه وستتبدى الدهشة على ملامحه الوسيمة، فماذا سيكون أول شيء تقوله هي وأول شيء يقوله هو؟

ماذا لو أغلق بابه في وجهها رافضًا رؤيتها؟

ماذا لو لم يكن بمفرده؟

ماذا لو تبدَّت اللهفة في عينيه؟

وماذا لو لم يتذكرها؟

هذا الاحتمال بالذات استوقفها طويلًا وبدا لها أشد قسوة من أي

احتمال آخر.. لو رآها سامح ولم يتذكرها فسيكون هذا قاسيًا عليها بحق، فما من امرأة تتحمل أن ينساها الرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها.. لو لم يتذكرها أو لو استقبلها ببرود من لا يريد رؤيتها فستقتل نفسها على الفور ومن دون لحظة تردد.

في كل الأحوال سيكون عليها أن تداري مشاعرها، وأن تتماسك إلى أن تنتهي مهمتها هنا، لكن سامح خالف توقعاتها بأن شعَّت البهجة في ملامحه الوسيمة، ليقول:

ـ سوسن.. يا لها من مفاجأة سعيدة!

فحاولت هي الالتزام بقاعدة إخفاء مشاعرها لتجد أنها أشد صعوبة مما تخيلت وقد اكتشف في هذه اللحظة بالذات أنها لا تزال تحبه!

في لحظة واحدة استعادت سوسن كل ذكرياتها معه.. كل نظراتهما.. كل همسهما.. كل كلمة حب تبادلاها.. وكل وعد أخلفه هو حين أخبرها في النهاية بأنه سيرحل وأن «النصيب» لم يكن في صالحهما كما كان يتمنى.. في لحظة واحدة استعادت سوسن كل ما كان وكل ما تخيلت أنه سيكون، فتبدى الحزن في عينيها وارتبكت، ليصيب ارتباكها سامح الذي خرج صوته متخاذلًا هذه المرَّة:

ـ كيف.. كيف حالك؟

فبحثت سوسن عن أفضل رد ممكن، لتكون إجابتها في النهاية هي:

ـ سامح.. أتسمح لي بالدخول؟

وكان هذا عملًا منها بالقاعدة الأخيرة وهي:

رابعًا: احصلي على ما جئتِ من أجله وارحلي بسرعة.

كان يمكنها هنا أن تبحث عن عذر للدخول، أو أن تتظاهر بالدوار لتمنح نفسها مبررًا ـ عملًا بقاعدة التظاهر بالحماقة ـ لكن سوسن كانت تريد الرحيل حقًّا وقد أدركت أنها لم تتمكن من إخفاء حقيقة مشاعرها طويلًا.. لهذا كان هذا ردها، ولهذا أصيب سامح بالدهشة، ليرتسم التردد على ملامحه، فاتجهت هي إليه لتزيحه من طريقها داخلةً شقته، من دون أن تمنحه فرصة للتفكير، فالرفض.

تصرف وقح؟ بالطبع.. لكنها أتت إلى هنا ولن تعود إلا بعد أن تفهم لماذا طلب الشيء منها المجيء.

هكذا فوجئت بنفسها تخطو داخل شقته، وفوجئ بنفسه لا يعترض، بل يتبعها إلى الداخل تاركًا باب شقته مفتوحًا ـ التصرف الوحيد اللائق في موقف كهذا ـ وقد تعاظمت دهشته، وهو يقول:

ـ لكن.. تفضلي بالدخول!

فلم تجبه هي وقد فشلت في العثور على شيء يقال.. فقط اكتفت بالوقوف في صالة شقته ترمق الأثاث الذي حمل لمسة أنثوية واضحة.. لقد تزوج بأخرى إذن، أو هو في طريقه للزواج.. هذا يعني أن تلك الأخرى هنا أو أنها ستجد صورتها على الأقل في.. نعم.. ها هي صورتها مع سامح في إطار أنيق موضوع على إحدى الطاولات.. صورة خطوبة لا زفاف.. إذن هو لم يتزوج بعد.

تبًّا.. لماذا تشعر بالغيرة الآن؟!

ورأى هو نظرتها إلى صورة خطيبته فقال على الفور مشيرًا إليها كأنما يذكر نفسه بوجودها في حياته:

ـ إنها هدى.. خطيبتي.. سنتزوج قريبًا.

قالها ثم فوجئ بنفسه يشعر بالندم وكأنه تسرع في قوله هذا.. أما سوسن فجاهدت لإخفاء غيرتها وأشاحت بوجهها بعيدًا عن صورة من تركها لأجلها، لتقول:

ـ سامح.. أنا لا أعرف لماذا أتيت إلى هنا.

قالتها لأنها الحقيقة، ولأنها كانت أول جملة تكرَّم بها عقلها عليها. فأجابها سامح بالمزيد من الارتباك والحيرة، ومرَّت اللحظات ثقيلة عليهما، قبل أن يقول هو محاولًا السيطرة على نفسه:

ـ سأعد لكِ شيئًا تشربينه.

وأسرع ناجيًا بنفسه إلى المطبخ، فظلت هي مكانها تقاوم رغبة كاسحة اجتاحتها بأن تفر من الشقة.. لقد أطاعت الشيء وأتت إلى هنا ولم تجده.. والآن لم يعد لديها مبرر لتبقى هنا أكثر من هذا، وكل ما عليها فعله الآن هو الرحيل وقبل أن يخرج لها سامح من المطبخ و..

ـ سوسن.. ما الذي حدث؟

قالها سامح الذي خرج فجأة من المطبخ وقد بدا عليه أنه لم يُطق احتمال حيرته أكثر، في اللحظة التي بلغت هي فيها باب شقته تهم بالخروج منها، فتوقفت مكانها واستدارت له ببطء محاولة البحث عن أفضل كذبة ممكنة..

ـ سامح، أنا.. أنا هنا لأنني أريد كتابي.

ـ كتابك؟!

- نعم.. كتابي الذي أخذته مني قبل أن.. قبل أن ترحل.. لقد بحثت عنه طويلًا وتذكرت في النهاية أنني تركته معك وأنا أحتاج إليه الآن وبشدة.

قالتها ثم تمنت في أعماقها لو عادت إلى الصحراء التي أخذها إليها الشيء لتبتلعها رمالها!

كتابها؟

ألم تجد عذرًا أوْهَى وأسخف من هذا؟!

حتى هو شعر بما تشعر به ذاته، وإن تظاهر بالتذكر ليقول:

- نعم.. كتابك.. ربما هو في غرفة المكتب.. لكن.. أيمكنك أن تذكِّريني باسمه؟

- سأبحث أنا عنه.

ومن دون أن تمنحه فرصة للرد اندفعت عبر ممرات الشقة باحثة عن غرفة المكتب لتجدها الوحيدة المضاءة أمامها، فدخلتها ووقفت في داخلها أمام المكتبة التي اكتظت بالكتب والمراجع الهندسية، لتبدأ البحث عن كتابها الذي لا وجود له هنا.. كان تصرفها عجيبًا بحق، لكننا اتفقنا على أننا لن نشغل بالنا بالطريقة التي تفكر بها المرأة.. إنها تريد ابتياع المزيد من الوقت وكفى.

هكذا وقفت أمام المكتبة تتظاهر بالبحث محاولة تجاهل قلبها الذي تسارعت نبضاته، وسامح يدخل عليها وقد بدأت حيرته في التحول إلى الضيق، لكنه وقف قربها من دون أن ينطق بحرف وإن بدا عليه أنه ينتظر اللحظة التي ستخرج فيها سوسن من شقته ومن حياته إلى الأبد.

لا بأس.

إنها تتفهم موقفه.. إنها فتاة في شقة رجل أعزب موشك على الزواج، ولو أتت خطيبته الآن ورأتها هنا فلن تصدق أبدًا أنها تبحث عن كتاب، ولن تمر هذه الليلة بسلام.. إنها تتفهم هذا كله، وهي مثله تنتظر اللحظة التي ستخرج فيها من هنا، لكن عليها أن تعرف أولًا لماذا طلب منها الشيء المجيء إلى الشقة.

«ستكون بدايتك هناك.. وسأكون في انتظارك..».

الشيء أخبرها بهذا، وها هي هنا.. فأين هو؟

ومع تسارع نبضات قلبها تباطأ الزمن من حولها وشعرت بكل لحظة تمر عليها ثقيلة لزجة تكاد تُزهق روحها، وروح سامح الذي حاول التغلب على انفعالاته بأن قال:

ـ لحسن حظك أنك تذكرتِ كتابك هذا قبل أن أسافر.

ـ ستسافر؟

ـ نهاية هذا الأسبوع.. سأتزوج، وبعدها سآخذ هدى وسنرحل إلى الواحات لنتسلم عملنا هناك.

وابتسم قبل أن يردف:

ـ سنقضي شهر العسل وسط الصحراء.

فانتفضت سوسن والتفتت إليه على الفور بسرعة تراجع هو لها مندهشًا، صائحة:

ـ صحراء؟!

ـ نعم.. صحراء.. سنقضي هناك بضعة أشهر في نُزل من الأنزال المعدة خصيصًا لمهندسي الموقع و..

ولكن سوسن لم تُصغ لما قاله بعدها.. أمامها تحركت شفتا سامح تشرحان الموقف، لكن في أذنيها لم تسمع سوى صهيل الأحصنة، وفي وجهها شعرت بالرياح الساخنة المحملة بالأتربة.

الصحراء.

لهذا أخذها الشيء إلى هناك.

لأنه كان يعرف!

الآن اتضحت لها معالم الكابوس الذي ستحياه أكثر، والآن يجد صوت سامح طريقه إلى أذنيها لتسمعه يواصل:

ـ لكننا سنقضي بعض الوقت الممتع هناك على الرغم من كل شيء.. هناك نادي فروسية قريب من الموقع الذي سنعمل فيه، وهدى تعشق ركوب الخيل حقًّا و..

ولكن سوسن فقدت قدرتها على التحمُّل، فترنحت وقد اكتنفها دوار عجيب أفقدها قدرتها على الاتزان وأصاب سامح بالهلع ليسرع لها وليمسك بها، صائحًا:

ـ سوسن.. ما الذي أصابك؟

فلم تجبه وقد فقدت كل الإجابات معناها فجأة.

صحراء؟ هدى تعشق ركوب الخيل؟ لقد فهمت الموقف كاملًا.

إن الشيء يريد إصابتها بالجنون!

يريد إصابتها بالجنون ويريد أن يستعرض لها قدراته، ولقد نجح في هذا نجاحًا كاملًا.. والآن لم يعد لبقائها مبرر، والآن عليها أن تستعيد سابق علاقتها بالجاذبية الأرضية لترحل من هنا.. و.. و..

ولماذا يد سامح ساخنة إلى هذه الدرجة؟!

انتزعها هذا السؤال من دوارها لتجد نفسها تحدق في وجه سامح الذي انهمر العرق على وجهه فجأة لتلمع أمارات الهلع عليه، لكنه لم يتركها فأخذت تحدق هي فيه بخوف.. إن يده ساخنة حقًّا؟ كأنه محموم.. بل أكثر سخونة.

كان قد أمسك بها ليمنعها من السقوط حين أصيبت بالدوار، لكنها الآن تشعر بيده ساخنة تكاد تحرق ذراعها، حتى إنها انتزعتها من بين أصابعه ألمًا فتراجع هو ليحاول أن يعتذر لكن صوته خرج من حنجرته مبحوحًا وقد اختنقت فيه الكلمات لتموت على شفتيه قبل أن تخرج.. ومن وجهه تصبب العرق أنهارًا كأنه يقف في أتون ملتهب.

ما الذي يحدث؟

هنا لم تعد سوسن تشعر بالدوار، لكنها شعرت كأنها تفقد اتصالها بالعالم الخارجي قبل أن تفقد اتصالها بجسدها كله.. كأنها خرجت منه لتحدق فيها إذ وقفت أمام سامح الذي حاول النطق من جديد قبل أن يمسك بمعدته فجأة، لتتلوى ملامحه ألمًا هذه المرَّة، وقد أخذ العرق ينهمر من جسده كله ليغرق ملابسه.

ما الذي يحدث؟

سوسن الآن تشعر كأنها تحلم.. تمامًا كما وجدت نفسها في تلك الصحراء التي نقلها إليها الشيء في زيارته الأولى، لكنَّ سامح هو الذي يحترق أسفل شمسها هذه المرَّة.. اللون الأحمر يجد طريقه إلى جلده الذي أوشك العرق في مسامه على التحول إلى بخار، وها هي عيناه تتسعان بمزيج من الألم والذهول.. أم إنهما تنتفخان؟

ما الذي يحدث؟

لكنه يحاول التحرك.. بخطوات أضعف من خطوات طفل يتعلم المشي، يحاول سامح الاتجاه إلى مكتبه، وسوسن بجسدها تقف أمامه لا تتحرك ولا تنطق بشيء، بينما سوسن الحقيقية تحلق في سماء الغرفة، وأصوات صهيل الجياد ورياح الصحراء تحيط بها كأنشودة ترافق سامح في خطواته الأخيرة.

ربما هو مريض حقًّا.. ربما هو يتجه إلى مكتبه ليخرج دواءه من أحد أدراجه.. ربما لو أخذه سيتحسن وسينجو وستخرج هي من هنا قبل أن يحدث ما تشعر بأنه سيحدث.. لكن.. أي مرض هذا الذي تتصاعد معه الأدخنة من جسدك وكأنك تحترق؟

ما الذي يحدث؟

بلغ سامح مقعده خلف المكتب أخيرًا، فألقى بجسده الذي بدأ يتورم حرفيًّا عليه، وإن ظلت أصابعه متشبثة بمعدته كأنه ابتلع سُمًّا يمزقها تمزيقًا.. «كأنه» لأن السموم تقتل لكنها لا تحرق، والذي تراه سوسن أمامها الآن هو رجل يحترق.. وبسرعة.

يحترق من الداخل إلى الخارج.

وفي وجهه ـ الذي تحول إلى كتلة حمراء يصعب فيها تمييز ملامح آدمية ـ اتسعت عينا سامح أكثر، وازداد حجمهما أكثر فأكثر، وتبدَّى فيهما الألم والخوف والعجز، قبل أن يتبدَّى فيهما فقدان البصر.. عينان بهذا الحجم وبهذا اللون لا تصلحان للرؤية، وها هو الآن يحاول الصراخ هذه المرَّة، لكن أي صرخات تنتظرها من حنجرة نضجت بالمعنى الحرفي للكلمة؟

ما الذي يحدث؟

الأدخنة تتصاعد من جسده حاملة رائحة الشواء، لكن سوسن بجسدها لا تتحرك وبروحها تحاول إقناع نفسها بأنه مجرد كابوس ستستيقظ منه في النهاية.. كابوس سينتهي بها في فراشها في غرفتها كما أمرتها أمها، وبسامح حيًّا في شقته ينتظر أن يتزوج بهدى التي تعشق ركوب الخيل، ليسافر معها إلى صحراء لا وجود للشيء فيها.. رباه.. اجعله كابوسًا!

ثم أخذ جلد سامح في الغليان ومن فمه أخذ لسانه يخرج ببطء وقد تضاعف حجمه، بعدها انثنى جذعه وضغط هو أكثر على معدته كأنه يحاول أن يقيء فخرجت من فمه أصوات لن تنساها سوسن ما تبقى لها من عُمر.. أصوات امتزجت بصوت لحم يشوى، وبصوت شيء يخرج من جسد لم يعد يبدو بشريًّا على الإطلاق.. ثم وببطء رفع يديه إلى وجهه ليتحسسه فالتصقت يداه الذائبتان بوجهه الذي لم يعد وجهًا.. رباه.. اجعله مات فعلًا ولا تطل عذابه!

ما.. الذي.. يحدث؟!

ثم تحققت أمنية سوسن الأخيرة بأن لفظ جسد سامح أمامها ما تبقى من

حياته في شهقة خرجت من فمه أشبه بصفير يعلن اكتمال نضجه، ليتحول الرجل الوحيد الذي أحبته سوسن في حياتها إلى جثة محترقة مال رأسها إلى الأمام ليسقط من فمها شيء ارتطم بسطح المكتب، مصدرًا رنينًا أعاد سوسن إلى جسدها وأعاد لها قدرتها على الصراخ وفقدان الوعي.

لكنها لم تصرخ ولم تهوِ فاقدة الوعي.

بمعجزة ما لم تفعل لتقف وسط الأدخنة التي اختنقت لها جدران الغرفة، ترتجف وتحدق في ما خرج من جسد سامح المحترق واستقر أمامه ينتظر منها أن تأخذه.

الآن تفهم.

الآن تعرف لماذا طلب منها الشيء المجيء إلى هنا.

والآن ها هي تنتزع نفسها من جمودها لتأخذ ذلك المفتاح العتيق ذا النقوش العجيبة الذي خرج من جسد مَن كان سامح.

لقد انتهت مهمتها هنا.

والآن يأتي وقت الهرب.

* * *

ولأن الوقت أضيق من أن نضيِّعه في ذكر كل التفاصيل فسأترك لك مهمة تخيل ما حدث لسوسن يومها.

تخيل ذعرها وحزنها وصدمتها وذهولها وتخيل كيف عادت إلى منزلها لتطلب من والديها الرحيل وبأقصى سرعة.

تخيل ـ إن استطعت ـ رد فعل أمها وحيرة والدها وهو يسألها عما حدث، وتخيل كيف أقنعته سوسن في النهاية بأن يحزم حقائبه وبأن يأخذها هي وأمها إلى منزل جدها الذي لم تطأه قدم منذ وفاته.

ثم.. وفي النهاية.. حاول أن تتخيل صدمة سوسن حين وجدت الشيء ينتظرها هناك ليبدأ معها لعبته.

* * *

في تلك الليلة نامت سوسن أخيرًا.. وبعد أيام طويلة قضتها في البكاء والارتجاف والانتفاض كلما سمعت صوتًا يقترب منها.

إنهم قادمون من أجلها.

الشيء سيأتي ليواصل تدمير حياتها، تمامًا كما فعل مع أستاذها مجدي، والشرطة ستأتي لتلقي القبض عليها بتهمة قتل سامح، فهي كانت آخر من رآه حيًّا قبل أن يحترق من الداخل إلى الخارج، وخطيبته هدى ستأتي إليها على صهوة جواد لتدق عظامها بحوافره انتقامًا منها لمصرع خطيبها، وأمها ستأتي إليها لتواصل استجوابها محاولة أن تعرف منها ما الذي حدث بالضبط.

هكذا يتلخص العالم الخارجي في مطاردين تحتمي سوسن منهم بجدران غرفة جدها، التي قرر أبوها تركها لها مفضلًا النوم في الغرفة المجاورة، وقد وجد أنه لن يطيق النوم على الفراش ذاته الذي مات أبوه عليه، لكنه لم يعلنها صراحة، بل قرر أنه سيترك الغرفة الأكبر لسوسن ليساعدها اتساعها على الاسترخاء، فالتحدث، وسيحاول هو إخراس أمها في الغرفة الضيقة وإلى أطول فترة ممكنة، حتى تقرر سوسن الخروج إليهما لتمنحهما الحقيقة.

لكن.. كيف ستخبرهما بالحقيقة؟ وكيف لهما أن يصدقاها؟

لقد تجاوز الموقف مرحلة الاعترافات فالبكاء فالغفران فالبدء من جديد.. تجاوزه حين هوى رأس سامح المحترق أمامها ليخرج منه مفتاح احتفظت هي به معها في الغرفة ذاتها، وإن عجزت عن إخراجه من حقيبتها، كأنها ترفض الاعتراف بوجوده.. اعترافها بوجوده يعني اعترافها بأنها كانت في منزل سامح، وأنها رأته يحترق أمامها، وأنها هاربة الآن من جريمة قتله، لكنه لو اختفى ـ بمعجزة ما ـ فربما سيعني هذا أن كل ما مرت به حتى الآن هو كابوس لا أكثر.

كابوس سيتحول إلى واقع مرير لو أخرجت المفتاح من حقيبتها، لذا.. لن تخرجه!

تكفيها جدران الغرفة، وتكفيها صورة جدها المعلَّقة أمام فراشه، يطل منها عليها بابتسامته التي افتقدتها طويلًا.. كأنه يخبرها بأنه معها وبأنه لن يترك الشيء يدمر حياتها.

جدها الذي كان لا يناديها إلا بـ«يا سوسة» فكانت تضحك هي وتلقي بنفسها على ساقيه لتدفن وجهها في لحيته البيضاء الطويلة، لتشتم فيها رائحة المسك والأمان وعبق السنوات الطويلة التي عاشها جدها قبل أن يموت وحيدًا في فراشه، حيث تجلس هي الآن تقاوم النوم بآخر ما تبقى لديها من قدرة على التحمل.. لكن ها هو جدها يبتسم لها الآن في صورته يخبرها بأنه لا بأس.. نامي يا صغيرتي وسأظل هنا لأحرسك.. لن يأخذك الشيء ولن يقتحم عزلتك أحد.. نامي يا سوسة واطمئني فأنا هنا من أجلك.

هكذا استسلمت سوسن في النهاية، وهكذا تكورت على فراشه تبحث

عن رائحته فيه، إلى أن غابت عن دنيانا لتمنح عقلها المنهك نومًا استحقه منذ زمن طويل.

وفي أحلامها اختلطت الذكريات بالهلاوس، فوجدت نفسها هناك.. في الصحراء تهيم على الرمال الساخنة وقد ماتت الأصوات من حولها ليعتصرها صمت أطبق عليها من كل الجهات.. وأمامها ووسط الرمال والرياح أخذ جسد بشري يتشكل كالسراب في صورة الدكتور مجدي لتجده أمامها ينظر إليها في إشفاق.. نادت هي عليه لكن صوتها امتزج بالصمت فلم يبلغ أذنيها حتى.. وأمامها ذاب سراب الدكتور مجدي أسفل الشمس قبل أن يعود ليتشكل من جديد في صورة ابنه بوجهه الشاحب ونظراته الحادة التي سددها إليها للحظة انتفضت فيها، قبل أن يتبدد هو الآخر ليتشكل السراب مرَّة أخرى في صورة سامح الذي أحبته فتركها فرأته في النهاية يموت أمامها من دون أن تملك له شيئًا.

رأته فشعرت بقلبها يئن لهفة لكنها حين حاولت الاقتراب منه وجدته يتبدد مع كل خطوة خطتها تجاهه إلى أن اختفى أمام عينيها ليتشكل السراب هذه المرَّة في صورة جدها بابتسامته الحنون ولحيته البيضاء الطويلة.. وهذه المرَّة أسرعت سوسن إليه بلهفة من تخشى أن يتبدد ملاذها الأخير، لكنه ظلَّ هناك ينتظرها مادًّا ذراعيه إليها، حتى بلغته لتلقي بنفسها بينهما تبحث عن أمان لم تجده هناك.

لكن وبين ذراعيه لم تجد سوسن الدفء الذي اعتادته منه، ومن لحيته البيضاء لم تشتم رائحة المسك والذكريات.. وحين انتزعت نفسها منه وجدت أن ابتسامته لا تزال هناك على شفتيه، لكن لم تكن ابتسامته الودود التي أغرتها بالنوم على أرض الواقع.

تلك الابتسامة التي رأتها سوسن على شفتيه كانت تختلف.. كانت مخيفة.

وكانت عيناه تتوهجان بقوة وقد فقدتا أي أثر لجدها فيهما، فانتزعت نفسها من بين ذراعيه وتراجعت ذاهلة ترتجف، لكنه ظل مكانه يبتسم لها، وحين تحدث خرج الصوت العابث البارد من بين شفتيه يقول:

ـ *والآن ستبدأ اللعبة.*

وهنا وحين صرخت سوسن خرج صوتها منها أخيرًا ليمزق أنسجة الصمت من حولها وليوقظها من حلمها الذي هو إلى الكابوس أقرب، لكنها وحين فتحت عينيها وجدت أنها لم تعد في منزل جدها ولم تعد ترقد على فراشه.. بل وجدت نفسها هناك.

في ذلك المنزل.

٢

وما حدث هو أن يوسف وجد نفسه في ذلك المنزل.

* * *

وحين فتحت سوسن عينيها وجدت نفسها في ذلك المنزل وشعرت به من حولها وكأنه كان ينتظرها منذ زمن طويل.

* * *

من حوله تبدل المكان تمامًا ليفتح يوسف عينيه مستيقظًا بغتة، وليجد نفسه في قاعة متسعة يكسوها الظلام والبرودة.

* * *

ينتظرها وها هو يرحب بها الآن بالظلام والبرودة، وها هي تتلفت حولها لتجد أنها تقف في قاعة متسعة لا يوجد فيها معها إلا سؤال وجد طريقه إلى عقلها على الرغم من الظلام..

* * *

لكن.. أين؟

* * *

إنه ليس منزل جدها ولا منزلها ولا حتى الصحراء التي أخذها إليها الشيء أول مرَّة والتي زارتها ثانية في كابوسها.. إذن..

أين هي؟!

* * *

فجالت عينه في القاعة التي تسلل إليها ضوء شاحب عبر نوافذ عالية مغلقة، ليرى تلك اللوحات العجيبة التي غطت جدران القاعة، والتي لم ترسمها يد بشرية، فلا يوجد بشري قادر على رسم لوحات تتحرك!

* * *

وكانت اللوحات في انتظار سوسن على الجدران، وكانت الرسوم فيها تتحرك مكررة مشاهد بعينها كشريط سينمائي يتكرر بلا نهاية.. وفي اللوحات أمامها رأت سوسن نفسها في كل لوحة، لكنها كانت قد تركت قدرتها على الذهول هناك.. في منزل جدها الذي لا تعرف إن كانت ستعود له أبدًا أم لا.

في اللوحة الأولى رأت نفسها حين كانت تجلس مع الدكتور مجدي في ذلك الكافيه القريب من كليتها حين أتى إليها ليعترف لها بالحقيقة قبل أن يحاول قتل ابنه ـ الذي هو ليس ابنه ـ لتبدأ نهايته ونهايتها.. لقد كانت آخر مرَّة رأته فيها، وها هي الآن تراه من جديد في اللوحة أمامها، والسؤال الآن يتكرر..

* * *

أين هو؟

* * *

أين هي؟

في اللوحة الثانية رأت نفسها حين كانت تعدو في الصحراء والجياد تطاردها مثيرة عاصفة من الرمال تراقصت أمامها في اللوحة، معيدة لها كل الذعر الذي شعرت به حينها.. ومع الذعر انزاح سؤال «أين هي؟» من رأسها ليحل محله سؤال..

* * *

من الذي رسم هذه اللوحات؟

* * *

لكنه سؤال كسابقه لم يحظَ بإجابة.

وفي اللوحة الثالثة رأت سوسن نفسها حين كانت تقف في منزل سامح، ورأته يقف أمامها والأبخرة تتصاعد من جسده.. الآن سيحترق سامح أمامها من الداخل إلى الخارج، وها هي الآن تشاهد نهايته للمرَّة الثانية من دون أن تملك له شيئًا، ومن دون أن تملك لنفسها تفسيرًا.. لكن عقلها استوعب تلك الحقيقة التي رفض تصديق منطقها.

إن اللوحات تحكي قصتها!

لكن.. كيف؟

أين هي؟

ما الذي يحدث؟

كلها أسئلة لم تملك لها إجابات، ولم تقوَ على مواجهة إغراء رؤية باقي اللوحات، فاتجهت سوسن كالمأخوذة إلى اللوحة الرابعة، لتجد نفسها فيها تجثم على صدر يوسف تقبض على سكين هائل الحجم تغرسه في عنقه، بينما يرقد هو أسفلها عاجزًا عن المقاومة بلحية استطالت وجسد زاد نحوله.. إن هذا لم يحدث بعد لكنه سيحدث.. لو كانت اللوحات تحكي قصتها حقًّا فهذا يعني أنها ستقتل يوسف قريبًا.. ولكن..

لماذا؟!

_*لأنها قواعد اللعبة..*

قالها الصوت العابث وقد انبعث من كل الاتجاهات، فانتفضت وأخذت تتلفت حولها باحثة عن مصدره فلم تجده، لكنه تصاعد مواصلًا:

_*أتعرفين ما أكبر كذبة في التاريخ؟*

عن ماذا يتحدث؟ وأين هو؟

إن صوته ينبعث حرفيًّا من الاتجاهات الستة، كأنه في كل مكان في اللحظة ذاتها.. وها هو ينبعث من جديد ليجيب عن سؤاله:

_*التاريخ كله.*

وعلى الرغم من غرابة إجابته فإن سوسن فهمتها.. «ماركيز» قالها من قبل.. التاريخ ليس ما حدث فعلًا، بل هو ما نكتبه وكيف نتذكره.. حقيقة لن يفهمها إلا من قضى عمره يقرأ في كتب التاريخ حتى يتبدى له زيفه، لكنه ليس وقت التأملات، فالصوت العابث عاد ليقول:

ـ *سيكون أمامك خيار وحيد.*

خيار وحيد؟

عن ماذا يتحدث؟

ـ *ستستمر اللعبة إلى أن تحصلي على الحقيقة كاملة... وبعدها..*

ثم توهجت عينان أمامها مباشرة فصرخت رغمًا عنها، ليختم الصوت العابث قواعد لعبته، قائلًا:

ـ *ستدفعين ثمنها غاليًا.*

قالها فأخذ الظلام من حولها يتعاظم ويزداد كثافة لتتلاشى العينان المتوهجتان فيه، وفي اللحظة التالية فقدت سوسن شعورها بالأرض من حولها ووجدت أنها تهوي، فصرخت ثانية، أو فلنقل إنها حاولت الصراخ.

وفي اللحظة التالية وجدت نفسها وقد عادت إلى حيث ستبدأ اللعبة.

* * *

وكان أول شيء سمعته حين عادت هو صوت أمها إذ أخذت تردد:

ـ جاء عام ١٧٨٩ بالثورة الفرنسية، كنتيجة حاسمة للصراع الطويل بين طبقة النبلاء وأغنياء رجال الدين، الذين استمدوا ثرواتهم وسلطاتهم من الثروة العقارية الهائلة، وتوارث الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن أسلافهم، من جهة، وبين ما كانت تسمى حينذاك «الطبقة الثالثة»، والتي ضمت البرجوازية والفلاحين وصغار الملاك والحرفيين والأُجراء والأقنان، من جهة أخرى. هذا الوضع

الطبقي الذي ترسخ منذ العصور الوسطى وضع سورًا عاليًا بين الطبقتين.

ثم توقفت ليتعالى صوت تمزق ورقة أعقبه صوت لم تستطع سوسن أن تميِّز كنهه، توقف بعد لحظات ليتعالى صوت أمها من جديد، تقول:

ـ إن مصدر قوة النظام الإقطاعي على المستوى الاقتصادي، بل أيضًا على مستوى السيطرة الاجتماعية، هو ملكية الأرض، حيث كان من يملكونها أسيادًا للذين يعملون فيها. ولكن مع حلول القرن الحادي عشر، وبداية نمو التجارة، والإنتاج القائم على التخصص المهني، ظهر شكلٌ آخر للثروة، هو رؤوس الأموال التجارية الضخمة، التي أصبحت، مع نهايات القرن الثامن عشر، لا غِنى عنها لتسيير قطاعات الدولة المختلفة.

فكانت الحقيقة التي احتاجت سوسن وقتًا لتصديقها هي:

أنا لا أحلم!

لقد عادت بالفعل إلى عالمها وإلى وعيها، وها هي الآن ترقد على فراش جدها في غرفته، وصورته معلَّقة أمامها يطل منها عليها وقد فقدت ابتسامته كل الود الذي كانت سوسن تشعر به فيها.

لقد عادت.. لقد استيقظت.. إنها تسمع الآن صوت أمها التي لم تقرأ كتاب تاريخ في حياتها ـ إن كانت قد قرأت أي كتب أصلًا ـ تواصل:

ـ هذه الثروة خلقت معها طبقة قوية اقتصاديًّا، لكنها لا تملك شيئًا من القرار السياسي، الذي ظلت طبقة النبلاء محتفظة به، كجزء من امتيازاتها، كانت هذه الطبقة الجديدة هي الطبقة البرجوازية، التي

تشكلت من رجال الصناعة والبنوك وكبار التجار، الذين يطمحون إلى تحرير السوق والتجارة من النظام الاقتصادي القديم، الذي عفا عليه الزمن، وإلى إعفائهم من الضرائب الباهظة..

ثم يتوقف صوتها.. ويتعالى صوت تمزيق ورقة.. يعقبه ذلك الصوت العجيب الذي أرسل بقشعريرة غامضة في جسدها، صاحبها سؤال لا مفر منه:

ما الذي يحدث؟

لحظات من الصمت ثم يتعالى صوت أمها يردد بآلية تامة:

ـ والمتنوعة التي يفرضها عليهم النظام الإقطاعي. وقد كان أن حررت الثورة الفرنسية الجماهير من نار الإقطاع، وفي الوقت ذاته، جعلت من البرجوازية سيدة العالم.

وذلك الجمود الرهيب في صوت أمها كان أكثر ما أثار هلعها.. تلك النبرة الآلية الرتيبة التي لا تخرج من فم إنسان طبيعي إلا لو كانت مفتعلة.. من حق أمها أن تعرف كل شيء عن الثورة الفرنسية، لكن لا يحق لها ـ مهما كانت الأسباب ـ أن تردد بهذا الصوت الذي تعالى مكملًا:

ـ شكلت طبقة النبلاء حوالي ٥ , ١٪ من سكان فرنسا، عام ١٧٨٩، وكانت هي الطبقة المسيطرة اجتماعيًّا في ذلك الوقت. فجميع النبلاء كانوا يتمتعون بامتيازات، شرفية واقتصادية وضرائبية، مثل حمل السيف، مقعد خاص في الكنيسة، قطع الرأس في حالة الإعدام بدل الشنق، حق استخدام سخرة الطرق، حق الصيد، احتكار الحصول على الرتب العالية في الجيش، وعلى المناصب الرفيعة في الكنيسة.

ثم صوت تمزيق ورقة ـ وهو صوت مؤلم لأي شخص يعشق الكتب ـ

يعقبه الصوت العجيب الذي يستحيل تمييز مصدره ما لم تره بعينيك.. ثم لحظات من الصمت استغلتها سوسن لتغادر فراشها وتتجه بحذر إلى باب غرفتها، وقد اكتنفها الذعر ذاته الذي شعرت به حين سمعت صوت صهيل الحصان خارج باب غرفتها في منزلها.

لكن لا أحصنة هذه المرَّة.. فقط صوت أمها يتعالى من جديد بالنبرة ذاتها الرهيبة ليردد:

- على الرغم من تلك الامتيازات المشتركة بين كل النبلاء، فإنه كان هناك تفاوت بين الشرائح المختلفة لهذه الطبقة، جعلت مصالحها متناقضة في أغلب الأحيان، بل زاد ذلك من ضعفها وعدم تماسكها، في مواجهة البرجوازية التي نجحت في استقطاب جزء منها، لصالح مشروعها الثوري، وقد انقسمت هذه الطبقة إلى شرائح متعددة فكان هناك..

لتفقد سوسن قدرتها على التحمُّل أخيرًا ولتندفع خارجة من غرفتها.

ولتجد مفاجأة قاسية في انتظارها.

* * *

على الأريكة كانت أمها ممددة بعينين شاخصتين تحدقان بثبات في سقف المنزل وتعبير جامد على وجهها.

جسدها كله كان جامدًا متصلبًا كأن تيارًا كهربائيًّا يسري فيه، والشيء الوحيد الذي كان يتحرك فيها هو فمها، إذ خرج منه صوتها الرتيب يردد:

- نبلاء البلاط: وهم النبلاء الذين يعيشون داخل البلاط الملكي على

الهبات التي يقدمها لهم الملك بسخاء، وعلى الأجور العسكرية، والأموال التي يجنونها من وراء ممتلكاتهم الضخمة.

وعلى مقربة من أمها كان أبوها يجلس والتعبير الجامد ذاته على وجهه وجسده.. فقط تحركت يداه بعد أن توقفت أمها، لتمزق صفحة من كتاب يمسك به، ليكور الورقة الممزقة من دون أن ينظر إليها، وليدسها في فمه ليبدأ مضغها مصدرًا ذلك الصوت الذي تمنت سوسن الآن لو أنها لم تعرف مصدره!

لحظات ثم ابتلع أبوها الورقة ليسود الصمت مؤقتًا قبل أن يضع يده على الورقة التالية في الكتاب، ليتعالى صوت أمها:

- نبلاء السيف: وهؤلاء هم كبار رجال الجيش، الذين أصدر الملك قرارًا في عام ١٧٨١ بعدم حمل هذا اللقب إلا لمن ثبت أنه حمل أربع درجات من النبل بشكل متتالٍ.

وكان الكتاب الذي يمسك به أبوها يحمل اسم «فلسفة الثورة الفرنسية» على غلافه.. وكانت الحقيقة الآن أمام سوسن تتشكل في بطء كسكين ينغرس في رأسها رويدًا رويدًا.. ثم مزَّق أبوها الورقة التالية وكوَّرها ليدسها في فمه لتبدأ أمها في قراءة ما في الورقة بذات الصوت الذي لم يعد قابلًا للتحمُّل:

- نبلاء الرداء: وهؤلاء كانوا يتمتعون بالوظائف الإدارية العليا في الدولة، وعلى الأخص الوظائف القضائية التي كانوا يتوارثونها أبًا عن جد.

وخذ وقتك في استيعاب الحقيقة، فسوسن أخذت وقتها يومها.

وبعد أن استوعبتها انهارت على ركبتيها ووضعت يديها على أذنيها كأنها تحاول منع صوت أمها من بلوغهما.. ثم صرخت..

صرخت.. وصرخت.. وصرخت.. وصرخت.. وصرخت.

وفي النهاية انغرس سكين الحقيقة في رأسها حتى مقبضه، فأدركتها كاملة وتوقفت عن الصراخ.

لقد بدأت اللعبة!

٣

وفي الأيام التالية كرهت سوسن التاريخ حتى لم تعد تطيق أن تقرأ فيه أو تسمع عنه حرفًا واحدًا.

أمها لم تتوقف عن سرد حقائقه لحظة، وأبوها لم يتوقف عن التهام صفحاته، مع أنها حاولت منعهما بكل الطرق المتاحة، وفي كل مرَّة كانت تنتابهما نوبة من الهياج والصراخ، تنتهي بأن تتركهما ليواصلا تعذيبها بأكثر شيء أحبته في حياتها.

لقد أجاد الشيء لعبته حقًّا، وما عليها الآن هو أن تتحمَّل، وألا تفقد عقلها، وأن تنتظر الاختيار الوحيد الذي ستواجهه، وأن تواصل اللعبة مرغمة حتى نهايتها لتدفع ثمنها غاليًا في النهاية كما أخبرها الشيء.

كانت قد توقفت عن البحث عن طقوس القضاء على الشيء ـ ولن نستطيع لومها على هذا ـ وعادت لتحبس نفسها في غرفة جدها، لتقضي أيامها فيها تبكي وتحاول استيعاب ما هي فيه، وفي بعض الأحيان كانت تجلس هناك على فراش جدها ـ الذي أخرجت صورته من الغرفة ـ تمسك بالمفتاح الذي حصلت عليه من جسد سامح، تتأمله وتتساءل: ما الذي سيفتحه؟

هكذا كانت تقضي نهارها، وفي الليالي كانت الكوابيس تنتظرها، وكانت تجد نفسها فيها في الصحراء يطاردها فيها سامح، وقد أخذ يحترق محاولًا الإمساك بها ليحرقها معه، وفي كل مرَّة كان يمسك بها لتصرخ مستيقظة ولتجد آثار أصابعه على جسدها لتنفجر في بكاء مرير يخالطه صوت أمها إذ تواصل سرد التاريخ على مسامعها بصوتها الرتيب.. ثم صوت تمزيق ورقة.. ثم الصوت الذي أصبحت تعرف الآن ماهيته.

الواقع أن سوسن احتفظت بعقلها في هذه الأيام بمعجزة حقيقية، والشيء الوحيد الذي كسر هذا الروتين الرهيب الذي عاشت فيه طويلًا كان زيارة عصام لمنزل جدها، إذ أتى يبحث عنها.

* * *

يومها كانت سوسن تجلس في غرفة جدها تحاول سد أذنيها، وتقاوم تلك الفكرة التي سيطرت عليها مؤخرًا، والتي كانت تدفعها للخروج من الغرفة لتهشم رأس أمها بمِطرقة لتخرسها.

تلك الفكرة تشكلت في رأسها حين تذكرت أستاذها مجدي وما فعله في ابنه ـ الذي هو ليس ابنه ـ وبدت لها الآن مغرية إلى الحد الكافي، لكنها ـ وبالطبع ـ لم تستسلم لها، وإن أخذت تتقافز في رأسها أكثر من اللازم، حتى إنها بدأت تخشى اللحظة التي ستفقد فيها قدرتها على التحمل لتحولها إلى تجربة عملية ذات نتائج مأسوية.

ستخرج من غرفتها.. ستبحث عن مِطرقة.. ستهوِي بها على رأس أمها ثم رأس أبيها، ثم ستنفجر في ضحك هستيري سيجذب العالم كله إليها!

بعدها سيقبضون عليها وسيأخذونها إلى السجن حيث ستقضي فيه

ما تبقى لها من أيام، كأستاذها مجدي، ترفض التحدث مع أي مخلوق إلى أن ينفذوا فيها حكم الإعدام أو إلى أن يقضي عليها الشيء، أيهما أقرب.. هكذا كانت نهاية أستاذها، وهكذا ستكون نهاية أمها لو لم تتوقف أخيرًا و..

وفجأة تعالى صوت طرق على باب الشقة!

سمعته سوسن مع أنها كانت تدفن رأسها أسفل وسادتها فتوقف قلبها عن النبض وتقلصت أمعاؤها واكتسبت حاسة السمع في أذنيها حدة مضاعفة.. ثم تساءلت: أسمعته حقًّا أم إنها تهذي؟

في الخارج يتعالى صوت أمها يروي التاريخ ثم يتوقف لتتمزق ورقة ثم...

تعالى الطرق على باب الشقة ثانية فأدركت سوسن أنها لا تهذي!

أحدهم يطرق الباب حقًّا.

أحدهم جاء.

جاء من أجلها.

أحدهم يقف الآن أمام باب الشقة وسيتعالى صوت أمها الآن وسيسمعه ليعرف أنهم في الداخل، إلا لو تحركت هي.. وقبل أن يفوت الأوان.. هنا عاد قلبها لينبض بأضعاف سرعته المعتادة، وهنا قفزت مغادرة الفراش، فالغرفة، لتنقض على أمها ولتضع يدها على فمها قبل أن تبدأ من جديد، فلم تقاومها أمها أو تعترض.. فقط تعالى صوتها مكتومًا من أسفل أصابع سوسن التي تصلبت هي الأخرى محدقة في باب الشقة الذي تصاعد الطرق للمرَّة الثالثة عليه، أعقبه صوت يقول:

ـ يبدو أنه لا يوجد أحد في الداخل.

فتعالى بعده صوت عصام ليجيب:

ـ لكني سمعت صوتًا.

فلم تجرؤ سوسن على تكذيبه.. لقد سمع صوت أمها بالتأكيد.. صوت أمها الذي يحاول التسلل من بين أصابعها الآن ليؤكد له شكه، فزادت سوسن من ضغطها على فم أمها.. وفي صدرها تسارعت نبضات قلبها بصورة أخذت تلهث معها محاذرة أن يخرج منها أدنى صوت.

إنهما رجلان.. أحدهما سمع صوتًا هنا.. وأحدهما يتحدث بلهجة آمرة متغطرسة لا تليق إلا برجل شرطة.. رجل شرطة أتى ليقبض عليها.. لقد عثروا على جثة سامح إذن!

تعالى الطرق للمرَّة الرابعة عنيفًا فكادت سوسن أن تصرخ معه، لكنها عضت شفتها بقوة وزادت من ضغطها على فم أمها أكثر حتى توقفت ليمزق أبوها ورقة جديدة بصوت عالٍ وكأن الكتاب الذي يمزقه يصرخ ألمًا.. الكتاب! يجب أن تأخذه منه.. لكنها لو تركت أمها فسيتعالى صوتها من جديد.. ولو أخذت الكتاب من أبيها فستنتابه نوبة هياج وسيصرخ، وحينها سيسمعه عصام الذي تعالى صوته في الخارج يقول:

ـ أسمعت هذا الصوت؟

ـ أي صوت؟

ـ أأصبت بالصمم؟ هناك صوت داخل الشقة.

ـ لكني لم أسمع شيئًا!

لكن سوسن كانت تسمع.. وما كانت تسمعه هو الصوت المقزز لأبيها إذ أخذ يمضغ الورقة التي مزقها، لكنه كان أضعف من أن يبلغ مسامع عصام الذي يقف خارج الشقة.. لن يسمعه إذن.. لن يسمعه وقد يصيبه الملل فيرحل لتنجو هي و...

لكن.. وحين تعالى صوت أمها المكتوم من أسفل أصابعها مجددًا.. تعالى معه صوت عصام وقد بدا أن صبره قد نفد، ليصيح آمرًا هذه المرَّة:

ـ اكسر الباب.

قالها فأغمضت سوسن عينيها في قوة.. وسمعت صوت باب شقة يفتح.

* * *

لكنه لم يكن باب شقة جدها الذي فتح.

سمعت سوسن صوت باب يفتح لكنه أتى من خارج الشقة، وأتى من بعده صوت جارة جدها تقول:

ـ ما الذي يحدث هنا؟

وهنا رأت سوسن بعين الخيال ما يحدث خارج شقتها، وشعرت بنوع من اللهفة والأمل.. إنها تعرف هذه الجارة ورأتها أكثر من مرَّة حين كانت تأتي لتزور جدها، وفي كل مرَّة كانت تراها فيها كانت تشعر بالخوف.. لماذا كانت تشعر بالخوف؟ لأن جارة جدها مخيفة حقًّا ويجب أن تراها بنفسك لتفهم ما أعنيه.

يجب أن ترى جسدها البدين الضخم ووجهها الذي تتزاحم فيه التجاعيد

والشعيرات البيضاء، ويجب أن ترى تلك الندبة في جانب فمها ـ التي أهداها إياها زوجها في محاولة هادفة لتبادل وجهات النظر والتي تجعلها تبدو كمن يبتسم بسخرية قاسية طيلة الوقت ـ ثم عليك أن تسمع صوتها الغليظ ـ الذي يليق برجل ـ يقول:

ـ ما الذي تريدانه؟

وهنا رأت سوسن بعين خيالها عصام وقد أخذته المفاجأة قبل أن يتبدَّى الامتعاض على وجهه مما رآه، ليحاول أن يداريه معلنًا:

ـ أنا المقدم عصام من مباحث الـ...

ـ لم أسالك عن رتبتك.. ما الذي تريده؟

تقولها جارة جدها بصوتها الغليظ فتتخيل سوسن ردة فعل عصام ومن معه، لتفاجأ بنفسها تبتسم، ولتسمعه يجيب:

ـ أريد من في الشقة؟

ـ لا يوجد أحد هنا.. الشقة خاوية منذ سنوات.

ـ لكني سمعت صوتًا و...

ـ الشقة خاوية منذ سنوات.. والآن توقف عن إزعاجي.

فبهت عصام الذي لم يتخيل أن يأتي اليوم الذي يخاطبه فيه أحدهم بهذه الطريقة، وهو الذي اعتاد أن تُنفذ أوامره بلا نقاش، لكنه ـ وحفاظًا على ماء وجهه لا أكثر ـ جاهد ليسيطر على نفسه، وليسأل للمرَّة الأخيرة:

ـ أتعرفين فتاة تُدعى سوسن؟

ـ أعرفها.. وهي ليست هنا.. والآن.. ارحل!

هكذا أغلقت جارة جدها باب المناقشة، فباب شقتها، فلم تميِّز سوسن ما قاله عصام بعدها، لكنها تبيَّنت نبرة الذهول في صوته، والاستمتاع في صوت من معه قبل أن يتعالى صوت أقدامهما تهبط الدرج.

لقد نجت!

الآن تستعيد قدرتها على التنفس، والآن تترك جسدها يَهوِي على الأرض بجوار أمها، التي عادت لتردد ما إن انزاحت أصابع سوسن عن فمها:

ـ عاشت قبائل المايا فى أحضان غابات المكسيك، وصنعت حضارة من أقوى وأعجب حضارات العالم.. وصلت إلى ذروتها سنة ٢٥٠ ميلادية، حتى سنة ٩٠٠ ميلادية.. ولقد تميَّزت حضارة المايا ببناء المدن والمعابد من الأحجار الضخمة، وكانت كل مدينة من مدن المايا تعتبر مملكة فى حد ذاتها، وكان ملكها يُعامَل كإله.

لكن سوسن لم تعترض وتركتها تواصل ترديد ما التهمه والدها الذي بدأ تمزيق ورقة جديدة من الكتاب أمامه.

لقد نجت!

نبضات قلبها تتباطأ إلى الحد المسموح به، ومعه ينتظم تنفسها ويسري خدر عجيب في جسدها، لكنها استسلمت له وقد قررت أنها ستنام هنا في مكانها على الأرض، وبعد أن تستيقظ ستبدأ التفكير في مصيرها وفي مطاردة الشرطة لها، وفي خطوتها التالية، وفي اللعبة التي ستواصلها حتى النهاية لتدفع ثمنها غاليًا.

كل هذا من الممكن أن ينتظر إلى أن تستيقظ، فهي في حاجة إلى النوم حقًّا.

لهذا نامت.

وكان الدكتور مجدي ينتظرها في حلمها.

* * *

كان يجلس في ذلك الكافيه القريب من كلِّيتها حيث التقاها آخر مرَّة وكان يبتسم.

كان المكان خاويًا إلا منه، وقد ارتسمت على وجهه أجمل ابتسامة رأتها سوسن، فلم تستغرق وقتًا طويلًا لتدرك أنها ابتسامة رجل مات وانتهى دوره في قصة الشيء، وأنها تحلم بأنها تراه، فقد غادر عالمها الحقيقي، وبلا رجعة.. لكنها.. وعلى الرغم من هذا.. وجدت نفسها تتجه إليه بلهفة واشتياق محاولة نطق اسمه، لكنها فوجئت بنفسها عاجزة تمامًا عن تحريك لسانها في فمها.

تبدت الحيرة على وجهها، وفتحت فمها محاولة التحدث، لكنها لم تستطع، وكأنما فقدت صوتها.. لسانها رقد في فمها رافضًا التحرك، وأحبالها الصوتية رفضت الاستجابة لمحاولتها، فاتسعت ابتسامته هو وأشار إليها:

ـ اجلسي.

فأطاعته حائرة، وإن أشارت إلى عنقها بما معناه أنها عاجزة عن الكلام، فهزَّ مجدي رأسه متفهمًا، وقال:

ـ لا بأس.. لن تحتاجي إلى قول شيء هذه المرَّة.

فلم يخفف قوله من حيرتها، لكنها استسلمت لصمتها الإجباري، ليبدأ هو بنبرة عتاب وجدت طريقها إلى صوته:

ـ كان ينبغي عليك أن تواصلي البحث عن الطقوس.. كان ينبغي عليك أن تجديها على الرغم من كل ما حدث.

فتصاعد إحساس مقيت بالذنب في أعماق سوسن، وحاولت الدفاع عن نفسها لتفتح فمها محاولة التحدث من جديد من دون جدوى.. أما أستاذها فواصل بالنبرة المعاتبة ذاتها:

ـ لقد بدأ دورك في اللعبة.. وسيكون أمامك الخيار كما أخبرك.. لكن.. هل ستقتلينه؟

فأدركت سوسن على الفور أنه يتحدث عنه.. عن يوسف!

لقد هربت من هذا السؤال طويلًا في يقظتها، وها هو أستاذها يواجهها به في حلمها، لكنها هذه المرَّة لم تحاول الرد، فهي عاجزة عن الإجابة حقًّا.. بماذا ستجيبه؟ لقد رأت نفسها تقتل يوسف في اللوحة ـ أو على الأدق تهمُّ بقتله ـ لكنها لم تفعلها بعد، ولا تعرف إن كانت ستفعلها في النهاية أم لا.

لو كان هذا هو الاختيار الذي ستواجهه، فاللوحة حسمت لها اختيارها قبل أن تأخذه.. اللوحة تقول إنها ستقتله.. إن هذا ما سيحدث.. لماذا؟ لأنها قواعد اللعبة كما أخبرها الشيء!

ـ وإن قتلتِهِ.. فما الذي سيحدث بعدها؟

سؤال آخر هربت سوسن من إجابته، وها هي ستحصل على إجابته التي تخشاها.

- لن يتركك الشيء بعدها.. أنت تعرفين هذا.. لن يسمح لكِ بالبقاء حية.. لعبته لن تتوقف عند هذا الحد وأنت تعرفين هذا جيدًا.

نعم.. هي تعرف.. لكن.. ما الذي عليها فعله؟

لقد كانت تطارد الشيء لكنها الآن تتمنى الهرب منه.

تتمنى النجاة، وتتمنى أن تعيد لوالديها عقليهما، وتتمنى أن ينتهي هذا كله وبأي طريقة ممكنة.

كل هذا تبدَّى في عينيها وقرأه أستاذها فيهما، ليقول:

- يجب أن تجدي الطقوس يا سوسن.. يجب أن تقضي عليه قبل أن يقضي هو على التاريخ كله.. يجب أن تضعي نهاية له مهما كلفك الأمر.

ففتحت سوسن فمها من جديد محاولة النطق بألف سؤال، واعتصرت عنقها محاولة إرغام حنجرتها على الاستجابة لها، لكن أبت أن تُخرج سؤالًا واحدًا منها.. ومن حولها أخذت الموجودات في التلاشي ببطء.. فقط ظل الدكتور مجدي أمامها وقد أخذت ابتسامته في التلاشي من وجهه، يقول:

- يجب أن تنقذيه يا سوسن.. من دونه لن تنتصري على الشيء أبدًا.. وخذي هذا معك.

ثم دس يده في جيبه وأخرجها حاملًا المفتاح العتيق ذا النقوش العجيبة، ليضعه أمامها، مردفًا:

ـ ستحتاجينه في النهاية.. لا تتركيه أبدًا.

قالها ثم بدأ التلاشي من أمامها ببطء مع باقي الموجودات، وإن تعالى صوته للمرَّة الأخيرة قائلًا:

ـ أنقذيه يا سوسن.. وقبل أن يفوت الأوان.

ثم تحوَّل أستاذها أمام عينيها إلى شبح أقرب إلى ظل تراقص في طريقه للاختفاء مع كل شيء يحيط بها، لتحاول سوسن المناداة عليه بلا صوت وبلا أمل.

لكنه في النهاية اختفى، لتجد سوسن نفسها وحيدة في الكافيه الذي أخذت جدرانه في التلاشي ببطء.

هنا أدركت أنها ستستيقظ، وإن تمنت لو بقيت هنا وبقي أستاذها معها.

ستستيقظ وستعود إلى عالمها وإلى الأسئلة المريرة التي لم يعد من المسموح لها الهرب منها أكثر من ذلك.

أغلقت عينيها باستسلام حزين وتركت عالم الحلم يتبدد من حولها لتبدأ رحلتها إلى أرض الواقع.

لكنها لم تكن تعرف ما كان ينتظرها هناك.

* * *

حين عادت، وجدت أنها لا تزال ترقد على الأرض بجوار الأريكة التي كانت أمها تتمدد عليها، لكنها لم تكن هناك.

رفعت رأسها عن الأرض وشعرت به ثقيلًا بكل ما يحويه من أسئلة

وذكريات، وتلفتت حولها بحثًا عن أمها لكنها لم تجدها.. لا هي ولا أباها.. وقفت بجسد أنهكته الأحلام، وجالت في الشقة تبحث عنهما فوجدتهما في غرفة جدها يجلسان على فراشه رافعين رأسيهما إلى الأعلى يحدقان في سقف الغرفة بثبات عجيب، وقد فغر كل واحد منهما فمه على اتساعه.

ما الذي سيفعلانه هذه المرَّة؟

هنا تصاعد صوت ـ لم تعرف سوسن صاحبه ـ من فم أبيها المفتوح، يقول:

ـ سيادة المقدم.. نحن مستعدون للتحرك.

وهو صوت أصاب سوسن بالدهشة.. إنه ليس صوت أبيها! لكن ما أصابها بالذهول حقًّا كان صوت عصام الذي تصاعد من فم أمها يقول:

ـ وما الذي تنتظرونه؟ إنني في طريقي إلى هناك بالفعل.

سمعته واضحًا وعرفت أنه هو.. إنه ذلك المقدم الذي كان حاول اقتحام شقة جدها.. صوته يتصاعد الآن من فم أمها المفتوح من دون أن يتحرك، ويواصل:

ـ تحركوا وبسرعة.. يجب أن نقبض عليه قبل أن يحاول الهرب.

فأدركت سوسن ـ على الرغم من ذهولها ـ أنها تستمع إلى مكالمة هاتفية.. مكالمة هاتفية تنبعث من والديها كأنهما تحولا إلى مكبرَي صوت بشريين! ومن فم أبيها عاد الصوت الغريب يتصاعد قائلًا:

ـ لكنك لم تمنحنا العنوان.. نحن نعرف أننا في طريقنا للقبض على يوسف، لكننا لا نعرف أين هو.

يوسف!

إنهم في طريقهم للقبض على يوسف!

لا وقت للذهول هنا أو الاستيعاب، فعصام في طريقه إليه الآن، وها هو صوته يتصاعد من فم أمها، يقول:

ـ إنه في فندق «...». العنوان هو «....». أسرعوا.

ثم توقفت الأصوات عن التصاعد من فم أبيها وأمها، فأدركت سوسن أن المكالمة انتهت وأن دورها قد بدأ.

كيف سمعت مكالمة تدور بين ضابط وزميله تتصاعد من جسدي والديها؟ لا يهم! المهم الآن أن تتحرك وبسرعة وقبل أن يفوت الأوان.. أن تسرع إلى يوسف لتنقذه و..

ولكنَّ أباها حنى رأسه فجأة ليحدق فيها مباشرة، وليقول ـ مستعيدًا صوته الذي افتقدته سوسن طويلًا:

ـ إما نحن وإما هو.

فتجمدت سوسن مكانها وقد هوى قول أبيها عليها كضربة سوط.

«سيكون أمامكِ خيار وحيد..».

كان هذا ما أخبرها به الشيء، وها هو أبوها يمنحها الآن هذا الاختيار برسالة واضحة شديدة الاختصار:

إما نحن.. وإما هو.

إما أن تنقذ يوسف وتفقدهما.. وإما أن تقتله كما رأت نفسها تفعل في اللوحة.. وحينها ستخسر كل شيء.

والآن.. عليها أن تختار!

ضع نفسك مكانها وحاول أن تحسم قرارك وبسرعة، فلا وقت أمامك للتفكير، ولا رجعة عمَّا ستقرره.

إما نحن.. وإما هو.

إما أن تطيع الدكتور مجدي لتنقذ يوسف الذي لن تستطيع من دونه القضاء على الشيء كما أخبرها.. وإما أن تقتله.

نحن نعرف ما الذي اختارته سوسن في النهاية، لكن ما لم نكن نعرفه هو الشيء الذي حدث، والذي حسم لها اختيارها في هذه الليلة. ففي اللحظة التي كانت سوسن تقف فيها أمام والديها ترتجف عاجزة عن اتخاذ قرارها، سقطت دمعة واحدة من عين أبيها، وسالت على جانب وجهه ببطء.. دمعة حملت كل عذابه وألمه وكل ما يشعر به الآن هو وأمها تحت سيطرة الشيء.

دمعة رأتها سوسن فانتزعت نفسها من جمودها وذهولها، وتحركت بسرعة وقد فهمت أخيرًا أن اللوحة الرابعة كانت مُحقة.

إما نحن.. وإما هو.

وهي اختارت أن تقتل يوسف.

* * *

وأنت تعرف ما الذي حدث بعدها.

لقد وصلنا إلى لحظة الحقيقة كما يقولون، وما حدث قبلها يسهل المرور عليه بسرعة لنعود إلى الحاضر، وإلى سوسن التي تهم بغرس

سكينها في عنق يوسف.. كل ما سنفعله الآن هو أننا سنملأ بعض التجاويف في الأحداث التي مرَّت على يوسف في الليلة التي هرب فيها من غرفته في الفندق ليجد نفسه في زمن «إليزابث» ويواجه الموت بعدها في سيارته.

ليلتها وصلت سوسن إلى الفندق أولًا ـ إذ كانت شقة جدها أقرب إليه ممَّا تخيلت لحُسن حظها، أو لسوئه ـ وقد أخذت قسوة عجيبة تجد طريقها إلى قلبها لتساعدها على تنفيذ ما هي مُقدمة عليه.. القسوة ذاتها التي شعر بها يوسف حين خرج من منزل الدكتورة ليلى بعد أن قتلها ـ لو كنت تذكر ـ هناك وجدت أن عصام لم يصل بعد، لكنها كانت تعرف أنها مسألة وقت لا أكثر، لهذا لم تتوقف ولو للحظة واحدة.. من أحد العاملين في الفندق عرفت رقم غرفة يوسف، فأسرعت صاعدة إليها، وقد أخذت القرارات تتوالد في رأسها بسرعة.

لن تقتله هنا بالطبع إلا لو أرادت أن يصل عصام ليقبض عليها الليلة.. ولن تترك يوسف هنا وإلا فستفقد فرصة قتله وإنقاذ والديها.. إذن يجب أن تُخرجه من هنا.

يمكنها أن تقتحم عليه غرفته وأن تخرجه رغم أنفه منها، لكنه لو رآها فسيضيع وقت لا تملكه هي في الدهشة والتساؤل وربما رفضه أن يغادر المكان معها لأي سبب.. إذن يجب أن تجبره على الخروج بأسرع وسيلة ممكنة.. يجب أن تجعل هربه من هنا قراره هو لا قرارها.. لهذا وقفت أمام غرفته ولهذا أخرجت من حقيبتها ورقة خطت عليها كلمة واحدة.

«اهرب!».

ثم دستها أسفل باب غرفته وأسرعت مبتعدة واثقة من أن حيلتها هذه

ستنجح.. لو كان يوسف يختبئ في هذا الفندق من عصام أو من الشيء، فمجرد وصول رسالة إليه تطالبه بالهرب سيكفيه ليفقد اتزانه ويبادر بالهرب.. سيحمل معه ما يمكنه حمله وسيخرج من الفندق ليبتعد عنه وإلى أقصى حد ممكن، لكنها ستكون في انتظاره.. وستقتله.

هكذا وفي اللحظة التي قرأ فيها رسالتها كانت هي تخرج من الفندق لتبدأ في البحث عن سيارته، لتفاجأ بعصام أمامها وقد استبد به غضب يستحيل وصفه بالكلمات، لكنه كان كافيًا لتعرف أنه هو.. هو عصام الذي أتى إلى منزل جدها والذي سيصعد الآن ليقبض على يوسف لو لم يكن قد غادر غرفته بالفعل.

وعلى الرغم من أن عصام مرَّ من قربها فإنه لم يلتفت إليها ولم يلاحظها حتى وهو يحثُّ الخطى متجهًا إلى الفندق، ليغيب داخله، فلم تشعر هي بالخلاص، على الرغم من أنها نجت منه.. على العكس تمامًا شعرت بمزيج من اللهفة والقلق وظلت مكانها تقف ترمق الفندق تتمنى أن يخرج منه يوسف من دون قيود تحيط بمعصميه.

لكنه سيخرج.. سيخرج وسيبلغ سيارته وستقتله هي فيها كما رأت في اللوحة!

تذكرت هذه الحقيقة فانتزعت نفسها من جمودها وعادت لتبحث عن سيارته فلم تجدها أمام الفندق، فدارت حوله تبحث عنها في كل مكان، إلى أن وجدتها في ذلك الشارع الجانبي وراء الفندق لتنتبه إلى حقيقة بالغة الأهمية.

إنها لا تحمل سكينًا معها!

لقد نسيت أن تحضر واحدًا في غمرة لهفتها على أن تَبْلُغ يوسف أولًا، وها هي الآن تقف بجوار سيارته تعرف أنه سيأتي إليها بعد قليل ليأخذها هربًا من عصام، ومنها، لو لم تقتله هي أولًا.. لكنها يجب أن تقتله.

يجب أن تجد سكينًا وأن تقتله به لو أرادت إنقاذ والديها، ويجب أن تعثر عليه وبسرعة.

لا يمكنها أن تبحث عن متجر لتبتاع منه واحدًا، ولا يمكنها أن تعود إلى الفندق لتبحث فيه، فقد تعود إلى هنا لتجد أن يوسف قد رحل بالفعل.. فما الحل إذن؟

هنا انفتح غطاء حقيبة سيارة يوسف فجأة ليمنحها الحل متمثلًا في صورة سكين رقد داخلها، وقد تلوَّث بدماء الدكتورة ليلى، فشهقت سوسن ذاهلة قبل أن تفهم أنه الشيء يساعدها على تنفيذ مهمتها.. ها هو يمنحها سكينًا اعتاد القتل، فهل ستعتاده هي لتفعل ما عليها فعله؟

إما نحن.. وإما هو.

هكذا مدَّت سوسن يدها لتقبض على المعدن البارد فوجدت السكين ثقيلًا في يدها يخبرها بأنه مستعد لينغرس في عنق يوسف.. كل ما عليها الآن هو أن تنتظر معه، وهذا ما فعلته سوسن ليلتها.

ترقبت يوسف حتى تصاعد لهاثه معلنًا قدومه، ليلحق هو به مقتحمًا الشارع الجانبي ومسرعًا إلى سيارته، فاحتاجت سوسن إلى لحظة للتأكد من أنه هو، وقد تبدلت هيئته بلحيته التي استطالت ونحوله الذي تعاظم، وذلك الهلع الذي أعاد تشكيل ملامحه، ثم قررت أنه بالطبع هو.. يكفيه أنه يهرب، ويكفيه أنه يتجه إلى سيارته، والآن فلتتحرك بسرعة.. هكذا

توارت عن نظره إلى أن مرَّ قربها، لتلتقط من على الأرض حجرًا ولتسرع به وراءه.. ضربة واحدة على رأسه تعالت برنين مكتوم، ثم انهار يوسف أمام سيارته فاقدًا الوعي والدماء تنزف منه.

لكنه لم يمت.

لن يموت إلا لو قتلته هي، ولكن عليها أن تأخذه وتبتعد أولًا، فعصام قد يأتي يطارده ليجدها معه، وحينها سيظفر بكليهما لحُسن حظه. هكذا بحثت عن مفاتيح سيارة يوسف في جيوبه حتى وجدتها، ففتحتها وجاهدت في حمل جسده ـ الذي غادره راحلًا إلى زمن «إليزابث باثوري» ـ لتلقي به على المقعد الخلفي، قبل أن تهم بالانتقال إلى المقعد الأمامي، حين فوجئت به يتأوه مستيقظًا، فلم تشعر سوسن بما حدث بعدها.

فقط وجدت نفسها تجثم على صدره قابضة على السكين في يدها تغرس نصله في عنقه، وليفتح هو عينيه، فأطل الذهول من عينه اليمنى جليًّا وقد فقدت اليسرى بريق الحياة فيها، ثم تحوَّلت نظرة الذهول في عينه إلى فزع، وقد بدأ يستوعب ما هو فيه وما سيحدث له الآن.

هنا همست ودموع القهر تسيل ساخنة على وجهها:

ـ سامحني.. لكن.. لكن يجب أن أقتلك!

٤

الآن يمكننا العودة إلى يوسف وإلى اللحظة المبهجة التي وجد نفسه فيها وقد قتلته «إليزابث» مرّة، ليعود إلى عالمه لتقتله سوسن!

كان الألم يتصاعد من كل عضلة من عضلات جسده الذي أنهكه الهرب على أرض الواقع، وكانت كليته التي ماتت في جسده تعلن عن وفاتها بمزيد من الألم الذي شق جنبه، بينما نصل سكين سوسن قد بدأ يجد طريقه إلى أوردة عنقه لتسيل دماؤه من جرحه تفارق جسده بلا رجعة، لكن أكثر ما شعر به يوسف لحظتها كان الذهول.. الذهول والغضب.

هكذا ستكون نهايته إذن.

بعد كل ما خاضه وبعد كل ما مرَّ به ستنتهي ليلته به مقتولًا في سيارته بعد أن نجا من مطاردة عصام بأعجوبة، وبعد أن حارب لينقذ «إليزابث» التي قتلته في زمنها بعد أن أعلنت له أنها الشيء وقد احتل جسدها.. لقد خدعه الشيء مرتين إذن.. مرَّة في زمن «إليزابث» ومرة على أرض الواقع حين أنقذه من عصام ـ والذي كان سيكتفي بالقبض عليه ـ ليرسله إلى سوسن التي ستقتله ومن دون أن يعرف لماذا.

سيموت الآن ومن دون أن يجد طقوس القضاء على الشيء، ومن دون أن يعرف منه الحقيقة كاملة، ومن دون أن يعرف ما الذي سيفتحه المفتاح العتيق ذو النقوش، ومن دون أن يعرف ما الذي حدث لسوسن طوال فترة اختفائها، فهي لن تخبره بأي شيء الآن قبل أن تغرس سكينها في عنقه.

بل إنه ليس سكينها حتى.

إنه سكين الدكتورة ليلى التي حاولت قتله به، فقتلها هو واحتفظ به لتعثر عليه سوسن في النهاية ولتستخدمه فيما حاولت الدكتورة ليلى فعله معه.. وحتى الدكتورة ليلى لن يفهم أبدًا ما الذي حدث لها، فهو الآن.. سيموت!

وها هو صوت سوء حظه يتصاعد، ليقول:

ـ *وداعًا يا عزيزي.. سأفتقدك.*

فأغمض يوسف عينيه واستسلم لمصيره.

لا بأس.. على الأقل سينتهي دوره في هذه المأساة، وستنتهي لعبة الشيء عند هذا الحد، وسيفارق هو سوء حظه إلى الأبد. كل ما سيشعر به الآن هو النصل البارد يمزق أوردته فشرايينه، ثم سيسيل مزيد من دمائه الساخنة حاملة معها حياته، وبعدها ستُظلم الدنيا من حوله للمرَّة الأخيرة وسيظفر بالراحة التي استحقها طويلًا و..

ولكن سوسن لم تفعلها.

انتظر يوسف الموت فلم تمنحه له هي، وارتعشت يدها القابضة على السكين، ثم شعر بها يوسف فوق جسده ترتجف وتنتحب، ليفاجأ بنفسه

يشعر بالإشفاق عليها! ما الذي فعله الشيء معك يا سوسن؟ أي أهوال خضتِها بسببه؟ وما الذي سيحدث لك من بعدي؟

ـ أنا.. أنا لا.. لا أستطيع.. لا...

ثم غابت باقي جملتها وسط دموعها، فأجابها يوسف بصمته وقد فهم ما يحدث.

إنها عاجزة عن قتله.

لسبب ما هي مضطرة لغرس سكينها في عنقه، لكنها عاجزة عن فعلها وهو يتفهم تمامًا ما تشعر به الآن.. يتفهم لكنه لن يتعاطف معها لدرجة مساعدتها على ذبحه.. فما الذي سيحدث الآن إذن؟

فتح عينيه فرأى بإحداهما أمامه فتاة غير مستعدة للقتل.. مجرد فتاة بائسة مثله قادها سوء حظها إلى ما لا قِبل لها بمواجهته، وأي حركة خطأ ستصدر منه الآن قد تساعدها على حسم قرارها، لذا فالحل الأمثل أمامه هو أن يتماسك.. وأن ينتظر.

أما هي فأخذت أصابعها القابضة على السكين في التراخي ببطء، وأمامها وجوار يوسف رأت أستاذها مجدي يجلس بهدوء ويبتسم لها مشجعًا وقد أخذت نظراته تقول: لا تفعليها.. قاومي الشيء ولا تفعليها.. فأجابت هي هامسة من وسط دموعها:

ـ لكنَّ.. والِدَيَّ...

فلم يجبها أستاذها، ولم تكن هي تحتاج إلى إجابته. أما يوسف فحدَّق فيها ذاهلًا قبل أن يقرر أنها فقدت عقلها أخيرًا.. لقد كانت تتلفت

كالمجاذيب طيلة الوقت باحثة عن شيء ما، وها هي الآن قد وجدته لتحدِّث من لا وجود له.. رائع!

المشكلة الآن أنها قد تستغرق وقتها لاتخاذ قرارها، وكل ثانية تمر يسيل فيها المزيد من دمائه - والتي لا يملك منها أنهارًا بالمناسبة - وإن لم تتخذه وبسرعة فسينتهي به الأمر جثة خاوية من الدماء تبكي فوقه فتاة تعشق التاريخ.. هنا تصاعد صوت سوء حظه ليقول:

- يبدو أنك ستنجو.

ففكر هو مجيبًا:

- أأنت واثق من هذا؟

- عزيزي.. قلتها مرارًا.. أنا لا أخطئ.. لكن هذا لا يعني إلا أن الأسوأ قادم.

وكالعادة لم يكن سوء حظ يوسف مخطئًا.. ففي اللحظة التالية اخترقت رصاصة عصام زجاج سيارته، لتتفجر الدماء من رأس سوسن، ولتهوِي بجواره بلا حراك!

* * *

إنه لم يختفِ.

هذا ما قرره عصام إذ وقف على سطح الفندق، وبعد أن صرخ غاضبًا ليفرغ جزءًا يسيرًا من انفعالاته، قبل أن يشعر بسخف ما فعله ليتلفَّت حوله مواصلًا البحث عن يوسف.

إنه لم يختفِ.

لا أحد يختفي هكذا فجأة إلا في الأفلام الرديئة.. فيها تجد رجل الشرطة يطارد اللص ـ أو القاتل، أو حتى البريء ـ إلى أن يبلغا مكانًا يستحيل الهرب منه، ليجد رجل الشرطة غريمه قد اختفى تمامًا، فيقف ويصرخ نادبًا حظه، ثم يقطع المخرج المشهد لينتقل إلى المشهد التالي، وفيه نرى اللص ـ أو القاتل، أو حتى البريء ـ يحتفل بنجاته من مطارده.. كيف؟ إنها رغبة المخرج، فلا تعترض!

لكن يوسف لم يختفِ، ولم ينتقل إلى المشهد التالي بعد، صحيح أنه صرخ غاضبًا.. لكنه لن يظل مكانه ليندب حظه، بل سيواصل البحث عنه وسيجده وسيلقي القبض عليه ليمزقه بنفسه.. والآن.. أين هو؟

السطح أمامه خاوٍ تمامًا إلا منه، وهذا يعني أن يوسف غادره.. لم يعد إلى داخل الفندق بالطبع، ولم يقفز إلى الشارع إلا لو أراد التحول إلى بقعة آدمية على قارعة الطريق.. ليضعْ نفسه مكانه إذن وليبحث عن المَخرج الأمثل، أو فلنقل: المَخرج الوحيد.

هكذا تحرك عصام وبسرعة في السطح، باحثًا عن المَخرج، فوجد تلك البناية القريبة من الفندق، والتي يمكن القفز إلى سطحها ببعض الجهد والحظ.. لا بد أن يوسف فعلها إذن.. قفز إلى السطح المجاور وغادره ليواصل رحلة الهرب.. عظيم.. والآن ما خطوته التالية؟ سيسرع إلى سيارته بالطبع وسيأخذها ليبتعد عن المكان إلى أقصى حدٍّ ممكن.. وسيارته لم تكن موجودة أمام الفندق، لكن لا بد أنها قريبة من المكان.. لو كان مكانَه لتركها في أحد الشوارع الخلفية، ولو كانت فرضيته صحيحة فهذا يعني أن يوسف سيظهر الآن في هذا الاتجاه و..

وها هو!

يوسف الذي قتل ليلى وخدعه وهرب منه يعدو الآن في ذلك الشارع الجانبي الضيق متجهًا إلى سيارته، وسيبلغها الآن ليأخذها ويبتعد إلى حيث لن يعثر عليه عصام أبدًا، تمامًا كما حدث مع سوسن التي يراها الآن تتسلل وراء يوسف حاملة حجرًا لا بأس بحجمه و.. مهلًا..

سوسن!

إنها هي.. سوسن!

سوسن التي بحث عنها طويلًا حتى فقد الأمل في العثور عليها، تظهر في آخر مكان وآخر لحظة تخيل ظهورها فيهما، وها هو الآن يقف على بعد عشرات الأمتار يحدق فيها ذاهلًا، بينما تهوِي هي بحجرها على رأس يوسف لتسقطه فاقد الوعي.

إنها هي.. سوسن!

وهي الآن تنحني على يوسف لتبحث عن مفاتيح سيارته في جيوبه تمهيدًا لأن تحمله إلى داخلها لتأخذه ولتهرب به.. ستأخذه إلى حيث اختفت وإلى حيث سيختفي يوسف معها وإلى الأبد.. و..

ولكن لا! لن يسمح لهما بالهرب!

وحين تحرك عصام هذه المرَّة بدا الأمر كأن الزمن نفسه توقف احترامًا لغضبه ولهفته، ليتفرغ لمشاهدة ما فعله عصام ليلتها، والذي تحرك بسرعة لم يبلغها جسده من قبل مطلقًا.. في لحظة كان قد غادر السطح ليبدأ هبوط درج الفندق.. وفي اللحظة التالية كان يعدو خارجًا من الفندق، والكل يقفز بعيدًا عن طريقه كأنه قطار ضلَّ طريقه ويوشك على دهسهم.. وفي اللحظة التالية كان قد دار حول الفندق ليواصل عدوه متجهًا إلى سيارة يوسف

والمسدس في يده يحشد رصاصاته متأهبًا لإفراغها في جسد بشري.. وفي اللحظة التالية كان عصام قد اقترب من السيارة ليفاجأ بسوسن تجثم فوق يوسف، وسكينها في يدها تهم بغرسه في عنقه، فلم يتردد هو لحظة واحدة.

رفع مسدسه وضغط زناده ليطلق رصاصة واحدة، دوت كانفجار قنبلة في ذلك الشارع الضيق، وتناثر معها الزجاج والدماء في سيارة يوسف، الذي فوجئ بسوسن تهوِي بجواره والدماء تتفجر من رأسها لتمتزج بدمائه.

والآن يأتي دور يوسف الذي لم تنتهِ أطول ليلة في حياته بعد.

* * *

للحظة لم يتحرك يوسف من مكانه، ولم يتحرك السكين الذي انغرس نصله في عنقه، قبل أن يقرر الاستسلام للجاذبية ليَهوِي بجوار سوسن التي رقدت تنزف، ليسود بعدها الصمت التام.

يوسف لم يتحرك.. سوسن لم تتحرك.. وحتى عصام ظلَّ واقفًا مكانه وقد تبدت الصدمة في ملامحه.

إنه لم يكن يتوقع أن يصيبها.. لقد أطلق رصاصته ليخيفها وليمنعها من قتل يوسف، لكنه أصابها.. أصابها في رأسها وقتلها قبل أن يعرف منها كيف حرقت سامح من الداخل إلى الخارج، وقبل أن يعرف منها حقيقة كل ما حدث وما يحدث.

والآن لن يعرف أبدًا.

لقد ماتت سوسن ورحلت عن عالمنا حاملة أسرارها معها، ولن يعرف هو إجابات أسئلته التي عذبته طويلًا أبدًا.

وداخل سيارته رفع يوسف رأسه ببطء ليبحث عن مصدر الرصاصة، لتلتقي عينه التي ترى بعيني عصام، وليتبادلا نظرة امتزج فيها الذهول بالغضب بالحيرة.. نظرة دامت للحظة واحدة، ثم تحرك الاثنان معًا في اللحظة التالية.

عصام انطلق يعدو تجاه سيارة يوسف الذي انتزع نفسه من ذهوله ليقفز إلى المقعد الأمامي وليبدأ إدارة محرك سيارته، فاستعاد الزمن سرعته الطبيعية وإن لم يستعدها عصام الذي ضحى بأغلب طاقته ليصل إلى هنا.. وفي اللحظة التي مدَّ فيها عصام يده ليفتح باب سيارة يوسف كان هذا الأخير يزن كل جسده على دواسة الوقود، ليزمجر محرك سيارته معترضًا، قبل أن تنطلق السيارة كلها بصرير أجبر عصام على التراجع فالسقوط على أطرافه الأربعة، سقط عصام والمسدس لا يزال في يده، فرفعه مجددًا وصوَّبه تجاه سيارة يوسف التي أخذت في الابتعاد وبسرعة، لكنه لم يقوَ هذه المرَّة على إحكام تصويبه أو ضغط الزناد.

لقد خسر!

الآن سيهرب يوسف حاملًا جثة سوسن معه، والآن ينحرف يوسف بسيارته في شارع جانبي لينجو ـ مؤقتًا ـ ولتنتهي أطول ليلة في حياته عند هذا الحد.

لكن الأسوأ لا يزال في انتظاره كما سيعرف فيما بعد.

٥

مرَّت أيامٌ على يوسف التأم فيها جرح عنقه، وإن لم يلتئم جرح سوسن التي لم تَمُت تمامًا.

رصاصة عصام لم تخترق رأسها، لكنها تركت جرحًا غائرًا في جانبه، وهذا ما عرفه يوسف ليلتها حين توقف بسيارته أخيرًا ليجدها لا تزال تتنفس، وإن فقدت من الدماء ما أفقدها الوعي طويلًا.. لكنها استعادته في النهاية لتفاجأ بنفسها حية، فبكت حتى نضبت دموعها ثم ضمدت جرحها وأخفته بخصلات شعرها القصير، وأخفت شعورها العميق بالفشل والمرارة بصمتها الذي احترمه يوسف لأطول فترة ممكنة قبل أن يقرر المخاطرة أخيرًا، ليسأل:

ـ والآن.. ما الذي حدث لك؟

كانا قد قضيا الأيام الماضية في التنقل بسيارته التي تحوَّلت إلى منزل دائم لهما، يعيشان فيها ويأكلان وينامان، وقد فقدا كل ما له علاقة بحياتهما السابقة، فلم يتبقَّ لأيٍّ منهما إلا مفتاح عتيق ذو نقوش، وذكريات تبدو الآن كأنها حدثت منذ زمن بعيد لم يعد يمت لهما بصلة.. وكان الصمت ثالثهما.

على مدى الأيام الماضية لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم تسأل سوسن يوسف عن سبب إنقاذه إياها، كما لم يسألها هو عن سبب محاولتها قتله.. هذه أشياء لم تعد تهم، فهما الآن طريدان يحاولان النجاة من الشيء ومن عصام ومن ثمن اختياراتهما التي سيدفعان ثمنها إن عاجلًا أو آجلًا.

هما الآن يعرفان أن عصام سيواصل بحثه عنهما ـ أو على يوسف على الأقل، فهو لا يعرف أن سوسن نجت ـ وأن الشيء لم يتركهما طيلة هذه الفترة، إلا ليلتقطا أنفاسهما ليواصلا بعدها لعبته التي لم تنتهِ بعد.. وهما الآن خائفان منهكان لا يملكان من الأمل بريقه حتى، ولا شيء يدفعهما للمواصلة إلا القصور الذاتي.. إنهما أحياء لأن الشيء تركهما على قيد الحياة لا أكثر، والآن حان وقت الاستعداد لخطوتهما التالية، وهذا ما كانت سوسن تعرفه، لكنها انتظرت حتى كرر يوسف سؤاله لتحكي له كل ما حدث لها وبأدق التفاصيل.

استغرقت قصتها ساعات لم ينبس فيها يوسف بِبنت شفة، وإن لم يتبدَّ الذهول المتوقع على ملامحه.. لقد كان يتوقع الأسوأ ولم تخيِّب هي ظنه.. فقط انتظر حتى انتهت، ليعقب:

ـ أنا أيضًا حصلت على مفتاحي.

قالها وأخرج مفتاحه العتيق ذا النقوش من جيبه، ليكون الذهول من نصيبها، وليأتي دوره، فبدأ حكايته التي استغرقت ساعات أطول، تعاظم فيها ذهول سوسن أكثر فأكثر، حتى انتهى يوسف مع مغيب الشمس، وقد استمعت إليه وإن لم يبدُ عليها التصديق، ليعود الصمت ثالثهما في سيارته، ولتمر دقائق ثقيلة عليهما، وكل واحد منهما يقارن حكاية الثاني بحكايته محاولًا الإجابة عن سؤال: أيهما أسوأ حظًّا.. هي، التي فقدت

عالمها ووالديها، أم هو، الذي فقد قطعًا من جسده مقابل قطعٍ ضئيلة منحها له الشيء رغمًا عنه؟

وفي النهاية طردت هي الصمت قائلة:

ـ أعطني مفتاحك.

قالتها وأخرجت مفتاحها من حقيبتها، لتبدأ مقارنته بمفتاح يوسف الذي تركه لها وقد تمنى أن تحتفظ به إلى الأبد.. لكنها تأملت النقوش على المفتاحين طويلًا، قبل أن تعيده إليه قائلة:

ـ هذه النقوش رسالة.. إنه يحاول إخبارنا بشيء ما.

ـ وما هو؟

ـ لن أعرف حتى أتمكن من ترجمة النقوش.. لكن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد.

وهو ما كان يعرفه يوسف ويخشاه.. بالطبع لن يتوقف الأمر عند هذا الحد، فهو يعرف أنه لم يحصل على الحقيقة كاملة بعد، ولا تزال بعض أعضاء جسده قابلة للمقايضة بقطع أخرى منها، والقطعة التي حصل عليها في زمن «إليزابث» ـ والتي احتاج لوقت ليستوعبها ـ هي أن الشيء قادر على خداعه حقًّا.. قادر على احتلال الأجساد والاختباء فيها، وهذا يعني أنه قد يكون الآن في أي جسد يعرفه، يواصل لعبته على أرض الواقع كما يواصلها في الأزمنة التي ينقله إليها.. قد يكون الآن في جسد سوسن ذاتها!

قرأت هي هذا الاستنتاج في عينيه، لتقول:

ـ لو كنتُ هو لما تركتك حيًّا.

فلم يجرؤ على الرد بأنها حاولت قتله بالفعل.. إنه يعرف الآن أنها فعلتها لتنقذ والديها، لكن ما الذي يضمن له أنها ليست جزءًا من لعبة الشيء؟ لكنها مُحقة.. لو كان الشيء يريد قتله حقًّا لما كان يجلس الآن في سيارته يرمق الشمس الغاربة بعين واحدة ترى.

ـ والآن ما الذي سنفعله؟

قالتها هي، فبحث عن الرد الأمثل، قبل أن يتنهد مجيبًا:

ـ سنواصل لعبته.

ثم أدار محرك سيارته لينطلق بها إلى مكان جديد.

* * *

في تلك المقابر الباردة قرب القاهرة توقف يوسف بسيارته وقد بدت له رفقة الأموات ملائمة تمامًا لما هما فيه.

وحدهم الأموات هم من يمكنك أن تأمَن جانبهم، فهم لم يعودوا قادرين على إيذائك.. قصتهم في هذه الدنيا انتهت وهم الآن يرقدون في سلام افتقده يوسف طويلًا.. حتى سوسن شعرت بنوع عجيب من الاسترخاء في هذا المكان، وإن تذكرت أن سامح الآن يرقد في قبر مماثل لهذه القبور التي تتناثر أمامها الآن.. بجثته التي احترقت من الداخل إلى الخارج وقد فقد ابتسامته التي رقص لها قلبها طربًا أيام حبهما.. يرقد الآن أسفل التراب وقد دفع ثمن لعبة لا ذنب له فيها، ولم يملك فيها أي خيار.

تذكرته سوسن لتكتشف أن مخزونها من الدموع لم ينضب تمامًا، لكنها أجبرت نفسها على التماسك لتقول:

- دوري الآن في اللعبة واضح.. إما أن أقتلك وإما أن أظل هكذا أنا ووالداي حتى أفعلها.. لكن.. ماذا عنك؟

فتبدت الحيرة في عيني يوسف ولم يجب.. إنها مُحقة.. ماذا عنه؟

ما الذي ينتظره الشيء ليواصل لعبته معه؟

هنا تصاعد صوت سوء حظه، ليجيبه:

- يجب أن تنام أولًا أيها الأحمق!

فتذكر يوسف على الفور أنه لم ينم قطُّ منذ أن نجا من أطول ليلة في حياته.. نعم كان يسند رأسه كل ليلة على مقود السيارة محاولًا النوم، لكنه لم يفعلها قَطُّ.. فقط كان يترك جسده - أو ما تبقى منه - يسترخي قدر الإمكان، بينما كان عقله يظل مستيقظًا يسترجع أحداث الأيام الماضية، محاولًا ومن دون جدوى البحث عن مخرج مما هو فيه.

- الشيء لن يزورك إلا لو استسلمت للنوم.. هذا ما كان يحدث كل مَرَّة.

وسوء حظه مُحق كعادته.. يجب أن يسترخي إلى الحد الكافي لينام ليواصل عذابه! هكذا أجاب سوسن التي أخذت تحدق فيه منتظرة إجابته:

- يجب أن أنام أولًا.. حينها سأنتقل إلى الزمن التالي لأواصل لعبته.

- وما الذي تنتظره؟

فاحتاج يوسف إلى لحظات ليتغلب فيها على خجله، قبل أن يجيب مشيحًا بوجهه عنها:

- إنني.. إنني خائف!

فبوغتت سوسن بإجابته، قبل أن يكتنفها شعور عميق بالإشفاق تجاهه ألجم لسانها تمامًا وأعجزها عن الرد.

ياله من بائس!

كانت قد صنفته في أول مرَّة رأته فيها على أنه صحفي متوسط الموهبة والثقافة، لكنها الآن تراه أمامها رجلًا بائسًا تورط أكثر من اللازم في مأساة لم يقدها إليه إلا سوء حظه، وها هو الآن أمامها يخشى حتى النوم، والذي لن يقوده إلا لزمن بعيد سيفقد فيه عضوًا جديدًا من أعضاء جسده، لمجرد أنها قاعدة من قواعد لعبة الشيء التي أرغمه عليها.

رجلًا بلغ من الضعف واليأس ما دفعه للاعتراف.. وأمام فتاة غريبة عنه.. بأنه خائف.. ومرَّة أخرى وجدت سوسن نفسها تتساءل: تُرى.. أيهما أسوأ حظًّا؟

أما يوسف فشعر بالندم على اعترافه لها بحقيقة خوفه، قبل أن يجد أن ندمه هذا كخوفه، كخجله.. لا يهم!

إنه سيستسلم للنوم في النهاية، ومهما قاوم، فلماذا لا يستسلم له الآن لينتهي من الفصل التالي من اللعبة سريعًا؟

- لقد فقدت عينك ورئتك وكليتك حتى الآن.. فما الذي ستفقده المرَّة المقبلة؟

يتساءل سوء حظه فيرتجف يوسف من دون أن يجيب، فالإجابات كلها ليست في صالحه.. فقط أخذ يرمق شواهد القبور أمامه ويتمنى لو كان يرقد أسفل أحدها، وبجواره لاذت سوسن بالصمت منتظرة قراره الذي لن يتخذه سواه.

ثم وجد يوسف نفسه يتذكر موقفًا مشابهًا تعرَّض له في طفولته، حين كان والداه لا يزالان على قيد الحياة، قبل أن يفقدهما لأنه *«شؤم شؤم.. أنت شؤم!»*، كما كشفت له عمته لاحقًا.. كانت إحدى ليالي الشتاء الباردة، وكان يوسف قد اعتاد السهر في هذه الليالي، ليندس بجسده الضئيل بين والديه أمام التلفزيون حتى يغفو ويحمله أبوه إلى فراشه.. وكان يوسف يشعر به، لكنه كان يتظاهر بالنوم ليترك أباه يوسده بالأغطية قبل أن يلثمه على جبهته، ليستسلم يوسف بعدها للنوم واثقًا من أنه حين يستيقظ سيجد والديه في انتظاره يحملان له المزيد من الحب والحنان ليغمراه بهما، ولِمَ لا وهو طفلهما الوحيد؟

هكذا كانت لياليه الصيفية، وهكذا كانت حياته قبل أن يفقدهما، ليعلن سوء حظه عن وجوده، لكن في تلك الليلة الصيفية ارتكب يوسف تلك الخطيئة الشهيرة التي يرتكبها الأطفال في مثل سنه عادة، وشاهد فيلمًا مخيفًا عن مسخ محترق الوجه يدعى «فريدي كروجر» ويعيش في الكوابيس، ينتظر أن يَخلد ضحاياه إلى النوم ليمزقهم بمخالبه المعدنية.. كان الفيلم يحمل اسم «كابوس في شارع إلم»، لكن يوسف الصغير أدرك ليلتها أنه لا يحتاج إلى أن ينتقل إلى «شارع إلم» ليزوره هذا المسخ وليمزقه بلا رحمة.. أدرك أن كل ما عليه هو أن ينام، ليجده في انتظاره وليبدأ المرح.

ليلتها.. وبعد أن انتهى الفيلم.. توسَّل يوسف لوالديه طويلًا ليسمحا له بالنوم معهما، فهو لن يجرؤ على قضاء ليلته بمفرده، لكنَّ أباه رفض، وبصرامة لا تقبل النقاش.. حاول يوسف أن يقنعه بأنه لو نام فلن يستيقظ حيًّا أبدًا، لكنَّ أباه أصغى إليه في صبر ثم أعلن:

ـ لقد أصبحت رجلًا.. ولا يوجد رجل ينام مع والديه.

ثم حمله مرغمًا ـ هذه المرَّة ـ ليلقي به في فراشه، وليقبع يوسف هناك أسفل الأغطية وقد قرر أنه لن ينام ليلتها أبدًا.. لا هذه الليلة ولا الليالي المقبلة.. سيظل مستيقظًا إلى الأبد، ولن يسمح للعم «فريدي» بأن يمزقه بمخالبه المعدنية ـ وهو قرار كان يوسف أصغر من أن يدرك سذاجته ـ ليقضي ليلته ودموعه على وجهه وقد شعر بأن رفض أبيه أشد قسوة عليه من مخالب «فريدي» المعدنية.

لا يوجد رجل ينام مع والديه.. *لكنه ليس رجلًا!*

ليلتها قاوم يوسف الطفل النومَ طويلًا وقد أخفى وجهه بالأغطية شاعرًا بالمخالب المعدنية تتحسس جسده الضئيل في شوق، تنتظر أن يخلد إلى النوم لتبدأ تمزيقه إربًا.. وخارج الأغطية سمع أنفاس العم «فريدي» تتصاعد بجوار أذنه، ثم سمعه ينشد له تهويدة ما قبل النوم بصوته القاسي المبحوح، فلم يجرؤ يوسف على الصراخ... فقط أغمض عينيه في قوة وأخذ يردد في رأسه أنه لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.

لا يوجد رجل ينام مع والديه؟ لا بأس.. لن يكبر ليصبح رجلًا وسيهلك الليلة ليفقد أبوه طفله الوحيد وسيكون هذا خطأه هو!

لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.

وحين استسلم للنوم في النهاية ـ كأي طفل في عمره ـ كان آخر ما شعر به هو أنه يكره أباه حقًّا، ولأول مرَّة في حياته.

لكنه ليلتها.. وحين استيقظ قرب الفجر مذعورًا يبحث في جسده عن آثار مخالب العم «فريدي».. وجد أنَّ أباه كان يجلس بجوار فراشه يقرأ

في كتابٍ ما، فحدَّق فيه يوسف عاجزًا عن النطق وقد أخذته المفاجأة.. إنه.. إنه لم يتركني!

أرغمه على النوم في فراشه لكنه ظل ساهرًا بجواره طوال الليل يقرأ بعينين منتفختين من السهر، لمجرد أن يطمئنه وليحميه من خطر لا وجود له.. وحتى الآن حين شعر به يحدق فيه ذاهلًا، لم يرفع عينيه عن كتابه، وإن قال بخفوت:

ـ عُد إلى نومك ولا تخشَ شيئًا.. إنني هنا.

فالتمعت الدموع في عيني يوسف الطفل وعاد إلى وسادته ليغوص فيها وليغيب عن الدنيا وقد أخذت دموعه في الانحدار على وجنتيه ببطء... لكنها هذه المرَّة.. كانت دموع امتنان.

* * *

لكنه الآن كبر وأصبح رجلًا ولم يعد أبوه على قيد الحياة ليسهر بجواره طوال الليل يقرأ.

الآن هو رجل بالغ خائف يجلس في سيارته في المقابر هاربًا، يخشى النوم لا لأنه سيواجه العم «فريدي» الخيالي بمخالبه المعدنية، بل الشيء الذي سيأخذه إلى زمن سيمنحه فيه قطعة من الحقيقة.. وسيأخذ منه قطعة.

صحيح أن سوسن تجلس بجواره الآن وقد غلبها النوم ليسقط رأسها الجميل على كتفه، لكن حتى لو كانت مستيقظة فهي لا تملك له شيئًا لتفعله.. لو نام فسيظل جسده هنا بجوارها، لكنه سينتقل إلى حيث سيواجه اختيار الزمن الجديد بمفرده.

ـ لكنك ستنام في النهاية.. أنت تعرف هذا.

يقولها سوء حظه، فيهمس هو:

ـ أعرف.. فلا يوجد رجل ينام مع والديه.

يصمت سوء حظه مشفقًا عليه، ويلوذ هو الآخر بالصمت، وقد عاد لتأمل شواهد القبور من حوله.

كل المطلوب منه الآن هو أن ينام.. أن يغلق عينيه وأن يسمح للخدر بأن يسري في جسده لينتقل إلى هناك.

إلى حيث ينتظره فصل جديد من فصول لعبة الشيء.

هل يوقظ سوسن قبل أن يفعل؟ لا داعي.. فليتركها لتحظى ببعض النوم الذي تستحقه، وليرحل هو عالمًا بأن رحلته على أرض الواقع لن تطول.. في النهاية سيعود إليها وسيجدها هنا كما تركها.

إن عاد!

٦

ثم شعر يوسف بالدفء فجأة، وبرائحة الكعك الطازج تفعم أنفه.

وللحظة بدا له الأمر كأنه أحد أحلام طفولته وقد تكرَّم عليه بالزيارة، قبل أن يجد أنه يجلس في غرفة ضيقة مظلمة ذات نافذة صغيرة يتسلل منها ضوء خافت لم يكفِ لتبديد الظلام من حوله.. تحسس جسده فوجد أنه جسد رجل عجوز ذي شعر أبيض طويل استرسل على كتفيه ووجهه حتى امتزج بلحيته، يرتدي عباءة ثقيلة ذات غطاء رأس كأنها ملابس راهب.

لقد نام إذن.

نام وظفر به الشيء ونقله إلى زمن جديد حيث سيبدأ هو فصلًا جديدًا من فصول اللعبة.. لكن.. أين هو هذه المرَّة؟ ومتى؟

كان يجلس على مقعد خشبي صغير من دون مسند للظهر، وحين حاول الوقوف شعر بعظامه تئن معلنة آلام شيخوخة لم يبلغها بعد على أرض الواقع ـ وربما لن يبلغها أبدًا ـ وكان الظلام يحيط به، حاجبًا عنه جدران الغرفة الضيقة، لكن النافذة الصغيرة كانت أمامه مباشرة تغريه بالاقتراب،

فاتجه إليها وألصق وجهه بزجاجها، ليجد أنها تطل بارتفاع على قاعة طعام ضخمة فاخرة تليق بقصر.

في منتصف القاعة رقدت طاولة عملاقة أحاطت بها المقاعد المزخرفة، وعليها استقرت أطباق الحلوى والشراب، وحولها تناثرت الشموع في القاعة تضيئها وتعلن خلوَّها من الضيوف.. فقط كانت هناك خادمة شاحبة تتحرك حول الطاولة توزع أدوات الطعام على الأطباق، قبل أن تخرج من القاعة من بابها الخلفي، من دون أن تشعر بيوسف الذي أخذ يرمق المكان من نافذته العلوية بمزيج من الدهشة والحيرة.. ولنفسه همس:

- أين أنا؟

قالها بصوت واهن خشن النبرات، وبلغة روسية عتيقة، ليجيب بنفسه عن سؤال «أين هو؟» وإن ظل سؤال «متى؟» معلقًا ينتظر إجابة، ليتصاعد صوت أنثوي من ورائه مباشرة، يقول باللغة ذاتها:

- إنه قادم.

فانتفض يوسف والتفت بأسرع ما استطاعه جسده المسن، لكن الظلام كان في انتظاره، ومنه تصاعد الصوت الأنثوي يواصل:

- إنه يعرف ما سيحدث.. لكنه قادم.

ثم اقتربت صاحبة الصوت من الضوء الخافت، ليجد يوسف أنها ليست سوسن - كما تمنى - بل امرأة حادة الملامح والنظرات، وقد حملت ملامحها مزيجًا متساويًا من القلق والتحفز، مرتدية زيًّا مماثلًا لزيه، لتتجه بهذا المزيج إلى النافذة ولتطل منها مكررة للمرَّة الثالثة:

ـ إنه قادم.

وأمام النافذة توقفت متجاهلة يوسف ونظرات الدهشة التي أطلت من عينيه، ثم رفعت يدها لتتحسس زجاج النافذة بترقب كأنها عاشقة تنتظر حبيبها.

من هي؟ ومن هو القادم؟ ـ مع أنه يعرف ـ وما الذي يحدث؟

أسئلة ستنتظر رغمًا عنه، فالمرأة لا يبدو عليها أنها ستشغل بالها بالإجابة عنها.. إن تركيزها كله الآن معلّق بقاعة الطعام الخاوية وبما سيحدث فيها الآن.. لهذا قرر يوسف مقاومة فضوله والعودة إلى النافذة ليقف بجوار المرأة وليتفرغ لمراقبة المكان من مخبئه وقد أصابته عدوى الترقب الذي تشعر به المرأة.

شيء ما سيحدث الآن في هذه القاعة.. شيء مهم.

ذلك الصمت الثقيل الذي لم يجرؤ على مواجهته إلا صوت عقارب الساعات يقول إن شيئًا ما سيحدث.. ذلك الترقب في نظرات وأنفاس المرأة بجواره يقول إن هناك شيئًا مهمًّا سيحدث.. وتلك الرائحة في الهواء ـ والتي امتزجت برائحة الكعك الطازج ـ تقول إن هناك شيئًا مهمًّا سيحدث.. وكل ما عليه الآن هو أن ينتظر.. كالعادة!

لكن انتظاره لم يَطل، فعبر بوابة قاعة الطعام الرئيسية دخل رجلان وامرأة يرتدون من الملابس ما يدل على أنهم أصحاب القصر أو أصحاب قصر مماثل.. المرأة خصوصًا بدت شديدة الجمال في ردائها الحريري الذي ماثل لون شعرها الذهبي، وقد غطت كتفيها بوشاح قطيفي، وقد بدا التوتر والقلق على ملامحها الراقية، وهي تواجه أول الرجلين، قائلة:

ـ سيصل في أي لحظة.

فأجابها الرجل بتوتر لم يَقِلَّ عن توترها:

ـ سنكون في استقباله.. اذهبي إلى غرفتك ولا تخرجي منها مهما حدث.

ـ وماذا لو طلب رؤيتي؟

ـ لن يجد الفرصة ليفعل.. فلنأمل هذا.. والآن...

ولم يكمل.. فهزت المرأة رأسها في استسلام واستدارت لتغادر القاعة بخطوات مسرعة كأنها تهرب مما سيحدث فيها بعد قليل.. فقط.. وقبل أن تخرج.. أدارت وجهها لهما طالبة:

ـ «يوسوبوف».. لا أريد دماء.

فتبادل «يوسوبوف» نظرة سريعة مع رفيقه، قبل أن يجيب:

ـ لو سار كل شيء على ما يرام فلن تكون هناك دماء.

وتراقصت ابتسامة متوترة على شفتيه، وهو يردف:

ـ الكعك سيفي بالغرض.

فلم تبادله المرأة ابتسامته، ولم يبدُ عليها إلا المزيد من القلق، لكنها هزَّت رأسها صامته وخرجت من القاعة، تاركة «يوسوبوف» يعود إلى رفيقه، قائلًا:

ـ «ديمتري».. الليلة سينتهي كل شيء.

قالها محاولًا التظاهر بالثقة، لكن «ديمتري» منحه نظرة صامتة أفرغ فيها

جزءًا من قلقه هو الآخر، قبل أن يتجه إلى إحدى نوافذ القاعة ليرمق الثلوج المتساقطة خارجها، من دون أن يشعر هو أو «يوسوبوف» بيوسف والمرأة اللذين أخذا يراقبان الموقف من مخبئهما وعبر نافذتهما الصغيرة.. وهذه المرَّة اشتم يوسف رائحة جديدة غزت القاعة حتى ملأتها.. رائحة مؤامرة.

الرجل الأول اسمه «يوسوبوف».. لماذا يبدو له هذا الاسم مألوفًا؟ لا.. ليس لأنه قريب من اسمه هو.. لقد قرأ هذا الاسم من قبل.. قرأه في أحد كتب التاريخ ليظل معلقًا في ذاكرته.. قرأه ويعرف أن صاحبه استحق أن يخلد التاريخ اسمه، لكن..

لماذا؟

سؤال آخر ينضم إلى قائمة الأسئلة التي ستنتظر إجابات، وفي القاعة، وعلى أحد المقاعد، جلس «يوسوبوف» محاولًا السيطرة على انفعالاته، تاركًا رفيقه يقف عند النافذة ينتظر وصول ذلك «القادم» ـ مع أنه يعرف ـ في صبر.. وجوار يوسف همست المرأة:

ـ سيفسدان كل شيء.. وسيدفع الجميع ثمن خيانتهما.

قالتها بمقت واضح لم يزد يوسف إلا حيرة، لكن في القاعة رفع «يوسوبوف» رأسه كأنه سمعها، فتراجع يوسف غريزيًّا محاولًا أن يستتر بالظلام، وإن لم تتحرك المرأة من مكانها قرب النافذة، وكأنها لا تخشى انكشاف أمرها.. وللحظات تلفت «يوسوبوف» حوله كمن يبحث عن شيء ما، لكن صوت «ديمتري» انتزعه من بحثه معلنًا:

ـ إنه هنا.

فهبَّ «يوسوبوف» على الفور وأسرع إلى نافذة القاعة ليتأكد من قوله،

في اللحظة التي عاد فيها يوسف إلى نافذة غرفته الصغيرة بحذر ليتابع الموقف من جديد.. وأمامه وقف «يوسوبوف» أمام نافذته وقد أخذت يداه ترتعشان انفعالًا، لكنه جاهد ليسيطر عليهما وعلى صوته حين قال:

ـ أأنت مستعد؟

فهز «ديمتري» رأسه من دون أن ينطق بحرف، وفي لحظة واحدة تحرك الاثنان خارجين من القاعة، ليستقبلا ضيفهما الذي سيراه يوسف بعد قليل، ليعرف في أي زمن هو، وليتذكر أخيرًا مَن هو «يوسوبوف».. لكن المرأة.. التي كانت تعرف كل هذا وأكثر.. همست:

ـ سيموت سيدي الليلة.. وبعدها.. يأتي دورنا.

* * *

وحين عاد «يوسوبوف» إلى القاعة مرَّة أخرى كان رجل ثالث قد انضم له ولـ«ديمتري»، وكان يبدو عليه التوتر مثلهما، فاستنتج يوسف أنه ليس ضيفهما المنتظر.

كان ثالثهما يرتدي معطفًا ثقيلًا حمل آثار الثلج المتساقط في الخارج، وكان يبدو عليه التوتر مثلهما، وهو يقول:

ـ أين «مويكا»؟

ـ في غرفتها.. طلبتُ منها البقاء هناك حتى ننتهي.. أين هو؟

ـ قادم ورائي.. لقد طلب أن يتوقف ليتلو صلاته أولًا.

ـ ستكون صلاته الأخيرة إذن.

وعلى الرغم من أن «يوسوبوف» و«ديمتري» لم ينطقا باسم ثالثهما إلا أن يوسف وجد أنه يعرف أنه «فلاديمير بوروشيفتش».. إنه يذكر اسمه كما يذكر اسم «مويكا»، كما يذكر أنه قرأ عن هذا الموقف كاملًا من قبل.. فقط ينقصه أن يرى ضيفهم المنتظر ليستعيد ذاكرته كاملة، وليفهم ما الذي يحدث هنا.. بعدها سيكون عليه أن يعرف من هو، ومن هذه المرأة التي تقف بجواره، وما الذي قصدته حين قالت إن سيدها سيموت وبعدها سيأتي دورهما.. وأمامه في القاعة خلع «فلاديمير» معطفه، ليلقي به على أحد المقاعد قائلًا:

ـ استعدَّا لاستقباله.. لا أريده أن يشعر بشيء قبل أن ننتهي منه.

فأجابه «يوسوبوف»:

ـ لن يشعر إلا لو كان يعرف ما سيحدث له.

فهمس يوسف من مخبئه بما قالته له المرأة بجواره:

ـ لكنه يعرف.

فواصل «ديمتري» كأنه سمعه:

ـ حتى لو كان يعرف.. لن يخرج من هنا حيًّا.

ـ إنه قادم.. إنني أسمع خطواته يتجه إلينا.

قالها «يوسوبوف» ليلتفت هو ورفيقاه إلى باب القاعة محاولين الابتسام وإخفاء توترهما، ليستقبلوا ضيفهم الذي تعالى صوته قبل أن يدخل القاعة، قويًّا عميقًا كأنه يخرج من حنجرة عملاق:

ـ رائحة الكعك شهية.

وفي اللحظة التالية خطا ضيفهم إلى القاعة ليراه يوسف أخيرًا ولتستعيد ذاكرته كل ما قرأه عنه على الفور.

القامة الفارهة والجسد الضخم تغطيهما الملابس السوداء.. الشعر الأسود الطويل الناعم الذي يمتد حتى يبلغ لحية خشنة كثيفة.. والعينان القادرتان على اختراق حواجز الزمان والمكان لتريا ما تخفيه الأعين وما يعتمل في الصدور... إنه هو.. هو!

أصابع المرأة بجواره تنقبض على ذراعه حتى تؤلمه، وقد انحبست أنفاسها في صدرها رهبة، والرجال الثلاثة في القاعة يرتجفون أمام العينين، وكأن أمرهم قد انكشف من قبل أن يبدأوا ما أتوا من أجله، وحتى عقارب الساعات تتباطأ نوعًا ما كأنها تبدي احترامها للضيف الذي تعالى صوته العميق حاملًا نبرة يستحيل تمييز إن كانت نبرة ثقة أم سخرية، يقول:

ـ يبدو أنها ستكون ليلة ممتعة.

فتختنق الإجابات في حلوق الرجال الثلاثة أمامه، ويجد يوسف نفسه يهمس باسمه وكأنه سقط تحت تأثير عينيه الخارقتين.

إنه هو.. هو!

«جريجوري يفيموفتش راسبوتين».

* * *

وبالطبع أنت تعرف «راسبوتين» أو قرأت اسمه من قبل حتى ولو لم تقرأ في التاريخ حرفًا.

هناك بعض الأسماء في التاريخ تجد طريقها إليك، مهما كانت اهتماماتك.

ومن العسير حقًّا تصديق أن هناك من لا يعرف من هو «جيفارا».. أو «هتلر».. أو «نيرون».. وبالتأكيد «راسبوتين».

سأعرفك به قليلًا، وسنعود بسرعة إلى أهم ليلة في حياته ـ كما سترى بعد قليل ـ وسنبدأ بذكر أنه وِلِد في يناير عام ١٨٦٩، وهو تاريخ غير دقيق، فلا يوجد شيء واحد مؤكد عن هذا الرجل، على الرغم من شهرته الفائقة.

والده كان مزارعًا فقيرًا، وكان «جريجوري راسبوتين» هو ثالث إخوته والوحيد الذي تبقّى منهم، فأخته التي كانت تعاني من الصرع غرقت في النهر أمام عينيه حين كان طفلًا، ثم كاد أخوه أن يلقى المصير ذاته لاحقًا، لولا أن قفز «جريجوري» في النهر لينقذ أخاه الذي أصيب بالتهاب رئوي حاد قضى عليه بعدها بأيام.. أخته كان اسمها «ماريا»، وأخوه كان اسمه «ديمتري»، وهما الاسمان اللذان منحهما «جريجوري» لأطفاله فيما بعد.. إنه لم ينسَ قطُّ ما حدث لأخويه وبسببهما أصيب بالوجوم والميل إلى الصمت والانعزال منذ طفولته.

في قريته نشأ «جريجوري» طفلًا فقيرًا لا يحمل أي مزية تستحق الاهتمام، إلى أن أتى اليوم الذي سُرق فيه حصان والده من مزرعته.. يومها فقد الأب الأمل في العثور على حصانه، لولا أن «جريجوري» منحه وصفًا تفصيليًّا للسارق من دون أن يراه ليبحث والده متشككًا عن صاحب الأوصاف وليجد أنه السارق بالفعل! كيف فعلها «جريجوري»؟ لم يعرف أحد قطُّ لكنها كانت البداية.

في البداية تعالت همسات أهل القرية تردد ما رُوي عن قدرات «جريجوري» الخارقة، قبل أن يبلغ هو سن المراهقة لتتحول الهمسات المترددة عن قدراته إلى قصص كاملة مذهلة عن فُجره ومجونه!

الفتى كان يعشق الخمر ولا ينافسه في عشقها هذا إلا ولعه بالنساء.. ويؤكد بعض من عاصروه أنه قضى أغلب مراهقته بين الحانات وبيوت الدعارة، حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر ليقرر الاتجاه إلى حياة التدين فجأة، بعد أن زعم أن العذراء مريم زارته في أحلامه.. وهكذا حصل «راسبوتين» على لقب «الراهب» لأول مرَّة في حياته.

لكن لقبه هذا لم يمنعه من حياة الملذات، وفي عام ١٨٨٩ تزوج «راسبوتين» بامرأة أنجبت له ثلاثة من أولاده، قبل أن يُرزق بطفل رابع من امرأة أخرى عام ١٩٠١، لكنه تركهم كلهم وبدأ رحلة روحية طويلة زار خلالها القدس واليونان قبل أن يعود إلى وطنه حاملًا القدرة الخارقة التي كانت الأساس في شهرته فيما بعد.. العلاج الروحي.

هذه القدرة ـ والتي قد تبدو لك مجرد سخافة الآن ـ كانت تمنح صاحبها شهرة لا تُصدق في زمن «راسبوتين»، وكان هو أشهر أصحابها بكل تلك القصص التي رُويت عنه وعن الذين شفاهم من أمراضهم بصلواته، لكن الحدث الذي قلب حياته رأسًا على عقب كان لجوء زوجة القيصر إليه طالبة منه أن يعالج ابنها «أليكسي» الذي كان يعاني من «الهيموفيليا»، بعد أن عجز كل أطباء روسيا عن مساعدته.. الفتى كان هشًّا، وكان أي جرح مهما كان صغره يكفيه لكي ينزف لأيام متصلة. وحين اقترب من الموت أخيرًا قررت أمه المخاطرة ومنح العلاج الروحي فرصة، فأتوا لها بـ«راسبوتين» الذي فحص الطفل بسرعة، قبل أن يبدأ تلاوة صلواته و.. و..

وتحسَّن الصبي بمعجزة ما!

البعض يقولون إنها قدرته على التنويم المغناطيسي هي ما ساعدت الطفل على التحسن، والبعض يصرُّون على أنها قدراته الخارقة، لكن

المؤكد أن إنقاذه الصبي منحه شهرة لا حدَّ لها، وأنه بعدها أصبح مقربًا من القيصر وزوجته، حتى إنهم كانوا يقولون إن الطريق إلى قلب القيصر يبدأ من «راسبوتين».

هكذا حصل «راسبوتين» على السُّلطة، وهكذا استخدمها ليمارس ملذاته على نطاق واسع، عارضه الكل طويلًا من دون أن يؤثر هذا على سلطاته التي منحتها له الإمبراطورة.. ومع الوقت أصبح الموت أو العزل هو مصير كل مَن يجرؤ على معارضة «راسبوتين» أو التصدي له.

وهنا أصبح واضحًا للجميع أن المعارضة السياسية لن تُجدي معه وأنه يجب أن يموت.

كانت أول محاولة لقتله عن طريق امرأة استأجرها بعض النبلاء لقتله، فطعنته تلك المرأة في معدته، لكنه نجا، وإن عاش بعدها وهو يمتلك جرحًا غائرًا زاد من حمض معدته، وهذه الزيادة منحته تحصينًا ضد السموم التي حاول البعض اغتياله بها لاحقًا.. وهذا الحمض كان يمنحه ألمًا لا يُطاق، ضاعف من جنونه ومن سعيه وراء متعته، إلى أن بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ليقرر نبلاء روسيا أن موضوع «راسبوتين» لم يعد قابلًا للتحمُّل أو التأجيل.

فـ«راسبوتين»، الذي كان يملك سلطة اختيار رئيس الوزراء ووزير الدفاع، تسبب بفضل قراراته «الحكيمة» في الحرب في هلاك ملايين من شباب روسيا الذين وجدوا أنفسهم يقاتلون في معركة لا يحملون فيها سلاحًا ولا ذخيرة.. وهنا لم يعد للعبث مكان، ولم يعد للصبر فرصة.. اجتمع بعض النبلاء بقيادة الأمير «يوسوبوف»، وقرروا أنهم سيقضون على «راسبوتين» وبأي طريقة ممكنة.

متى؟ في ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ١٩١٦.

أين؟ في قصر «مويكا» الفاتنة التي كان «راسبوتين» يرغب فيها صراحة.

هناك ستكون نهاية الرجل، وهناك يقف الآن يوسف ليشهدها بنفسه.

وليبدأ دوره بعدها.

* * *

وأمامه في قاعة الطعام وقف «راسبوتين» ينظر مبتسمًا للرجال الثلاثة، وقد أخذوا يرتجفون أمامه ويتبادلون النظرات كأطفال أمسكهم بالغٌ وهم يقترفون خطأ ما.. وبجواره استعادت المرأة قدرتها على التنفس أخيرًا لتبدأ في اللهاث معوِّضة ما فاتها، فشعر يوسف برجفة عجيبة تسري في جسده، تحولت إلى انتفاضة حقيقية حين رفع «راسبوتين» رأسه ليسدد عينيه تجاهه مباشرة، قائلًا:

ـ قصر جميل.

فوجد يوسف نفسه يهمس بخوف لا مبرر له:

ـ إنه.. يراني.

لكن «راسبوتين» خفض رأسه ليسدد عينيه إلى الرجال الثلاثة أمامه مردفًا:

ـ ألن تنضم «مويكا» لنا؟

سأل، فتضاعف توتر الرجال وانتزع «يوسوبوف» صوته من حلقه ليخرج منه مختنقًا إذ أجاب:

ـ إنها تستعد لاستقبالك.. لماذا لا نجلس لننتظرها؟

فابتسم «راسبوتين» ابتسامة رجل يعرف ما يحدث تمامًا، ليشحب وجه «يوسوبوف» وقد توقع أنه سيستدير راحلًا، لكن «راسبوتين» تقدَّم من أحد المقاعد المحيطة بالطاولة وجلس عليها لتتساوى قامته الفارهة بقامات الرجال الواقفين أمامه، قبل أن يشير إليهم مبتسمًا:

ـ اجلسوا.

قالها ببساطة، لكنهم تلقوا كلمته كأنها أمر لا يقبل الجدل أو النقاش ليجلس الثلاثة على الفور، وقد أشاح «ديمتري» بوجهه عن «راسبوتين» محاولًا أن يتحاشى نظراته وابتسامته الواثقة، بينما دفن «فلاديمير» وجهه في طبقه الخاوي أمامه، تاركًا «يوسوبوف» يحاول الابتسام والسيطرة على نفسه أمام «راسبوتين»، الذي اتسعت ابتسامته وهو يكرر:

ـ رائحة الكعك شهية.

وهنا أصبح يوسف على يقين من أنه يعرف.. المرأة بجواره لم تكن تبالغ.. إنه يعرف ما سيحدث له تمامًا لكنه أتى على الرغم من كل شيء، وها هو يواصل لعبتهم بثقة لم تدفع إلا بالخوف في قلوبهم، ولكن «يوسوبوف» تمالك نفسه ليقول:

ـ لقد طلبت «مويكا» إعداده خصيصًا من أجلك.

قالها وأمسك بسكين طعام لينقر به على أحد الأكواب الفارغة أمامه، فأتت الخادمة التي رآها يوسف ما إن وصل إلى هذا الزمن، لتدخل القاعة من بابها الخلفي ولتتجه إلى الكعكة لتبدأ في تقطيعها بسكينها، ولتضع قطعة منها في طبق كل واحد من الرجال أمامها بسرعة ومهارة،

كأنها تمارس مهمة تدرَّبت عليها طويلًا، وقد أخذت تتحاشى نظرات «راسبوتين» المبتسمة، التي سددها لها حتى انتهت، لتهم بمغادرة المكان لولا أن استوقفها قائلًا:

ـ انتظري.

فتجمدت الخادمة مكانها وشحب وجهها لتختلس نظرة سريعة مع «يوسوبوف» الذي حافظ على جمود وجهه ـ وهو الأمر الذي عجز عنه رفيقاه اللذان تبدَّى القلق جليًّا على وجهيهما ـ قبل أن تلتفت إلى «راسبوتين» منتظرة أوامره، لتتسع ابتسامته قبل أن يقول:

ـ أكره أن أتناول هذا الكعك الشهي من دون أن تذوقيه أولًا.. لذا...

وببساطة تامة أمسك بشوكته ليقتطع بها جزءًا مما وضعته الخادمة في طبقه، قبل أن يمدَّ يده به تجاهها، مردفًا:

ـ لماذا لا تأخذي قطعة؟

هنا تحوَّل المشهد أمام يوسف إلى شيء أشبه بلوحة العشاء الأخير، وقد تحوَّل الرجال الثلاثة إلى «يهوذا»، وقد تبدت المفاجأة والصدمة على ملامحهم، و«راسبوتين» يجلس وسطهم يبتسم في ثقة، يمد شوكته بقطعة كعك إلى الخادمة التي شحب وجهها هلعًا وقد فقدت قدرتها على الرد أو الحركة.. وبصوته العميق الآمر طلب «راسبوتين»:

ـ والآن.. افتحي فمك.

قالها باستمتاع كمن يحاول إطعام طفلٍ يأبى الاستجابة، مع فارق، هو أن الخادمة ليست طفلة، وأنها ليست تأبى الاستجابة له، بل هي

تخشاها كالموت الذي ينتظرها في قطعة الكعك هذه.. لهذا اختلست نظرة جديدة لـ«يوسوبوف» الذي منحها نظرة صارمة أمرها فيها بالاستجابة لـ«راسبوتين»، وقد دس يده في ملابسه في إشارة واضحة: إما الموت بالكعك وإما بمسدسه الذي قبض على مقبضه متحفزًا.. فابتلعت الخادمة المسكينة ريقها والتمعت الدموع في عينيها، قبل أن تفتح فمها بتردد، لتسمح لـ«راسبوتين» بأن يدس شوكته فيه، لينتفض جسدها مع مذاق الكعك الشهي الذي تركه «راسبوتين» داخله، قبل أن يستعيد شوكته مبتسمًا في رضا، ليقول:

ـ أشكرك.

فلم تجبه الخادمة ولم تقوَ على التحمُّل أكثر من هذا.. هاربة بما تبقى من عمرها أسرعت خارجة من القاعة، ليلتفت «راسبوتين» مبتسمًا للرجال الثلاثة الذين شهدوا الآن مقتل تلك البائسة من دون أن يتحرك لهم طرف، وقال:

ـ خادمة لطيفة.

ثم.. وبالهدوء والبساطة ذاتيهما اقتطع لنفسه قطعة ضخمة من الكعكة في طبقه ليدسها في فمه، ولتسترخي أجساد الرجال الثلاثة أمامه أخيرًا.. لقد فعلها.. أكل كعكته المسمومة، وما هي إلا لحظات حتى يبدأ مفعول «السيانيد»، وحينها ستنتهي هذه الليلة المشؤومة.. وحين ابتسم «يوسوبوف» كانت ابتسامته حقيقية هذه المرَّة تحمل نوعًا من الخلاص، إذ قال:

ـ انتظرنا هذه الليلة طويلًا.

فابتلع «راسبوتين» ما في فمه، ليجيبه:

ـ أعرف.

ثم ملأ شوكته بقطعة جديدة دسها في فمه وقد بدا عليه الاستمتاع بمذاقها، ليتحول استرخاء الرجال أمامه إلى ترقب، فتحفز، فذهول لا حد له.. إنه لا يزال يأكل! «ديمتري» تحديدًا أخذ يحدِّق فيه بذهول لاحظه «فلاديمير» الجالس بجواره، فلكزه محاولًا تنبيهه، لكن «ديمتري» تجاهله تمامًا وقد أخذ يتابع «راسبوتين» الذي واصل التهام ما في طبقه باستمتاع، أثار غثيان «يوسوبوف» الذي تساءل بحيرة:

ـ ما الذي تعرفه؟

ـ أعرف أنكم كنتم تنتظرون هذه الليلة طويلًا.. وأعرف ما الذي تتوقعونه الآن.

قالها ببساطة لم يتحمَّلها «ديمتري» فهبَّ واقفًا وهمَّ بقول شيء ما، لكن صوت سقوط جسد ثقيل تعالى خارج القاعة من الاتجاه الذي خرجت منه الخادمة، لينتفض الرجال الثلاثة ومعهم يوسف في مخبئه، لكن صوت «راسبوتين» خرج منه هادئًا ليفسر:

ـ إنها الخادمة.. لم تتحمَّل «السيانيد» فماتت.

ثم وبالهدوء ذاته دسَّ آخر قطعة كعك أمامه في فمه ليتراجع بظهره في مقعده، وقد بدا عليه الشَّبَعُ أمام أعين الرجال الذاهلة.

وللحظة تجمد المشهد أمام يوسف تمامًا وإن انهار الجدار الرابع للمسرحية التي كان الرجال يؤدونها أمام «راسبوتين» الذي ابتلع ما في

فمه ليواصل تسديد عينيه تجاههم مبتسمًا، وكأنه يدعوهم للخطوة التالية.. كأنه يتحداهم!

ثم في اللحظة التالية تحرك الرجال الثلاثة فجأة لتبدأ المعركة.

* * *

وفيما بعد.. وحين عاد يوسف إلى زمنه ليسترجع ما قرأه عن أحداث تلك الليلة، فهم سر تضارب أقوال الرجال الثلاثة في وصفهم ما حدث، ووجد أنه هو ذاته عاجز تمامًا عن وصف اغتيال «راسبوتين»، مع أنه شهده بنفسه.

سيذكر أنه رأى الرجال الثلاثة ينقضُّون على «راسبوتين» الذي لم يتحرك من مكانه، وسيذكر أنه رأى «ديمتري» يُخرج هراوة معدنية من ملابسه، وهوى بها على رأس «راسبوتين» فأصدرت دويًّا هائلًا كأنها ارتطمت بحجر، قبل أن تتفجر الدماء من رأس «راسبوتين» في وجه «ديمتري» الذي أزاحه «فلاديمير» من طريقه لينقض بخنجره على «راسبوتين»، وليغرسه في صدره في اللحظة التي قفز فيها «يوسوبوف» من على مقعده وقد قبضت أصابعه على مسدسه العتيق يحاول تسديده لـ«راسبوتين» الذي صرخ في غضب لم يحمل ذرة من الألم وهو يهبُّ واقفًا ليملأ قاعة الطعام بجسده الضخم وقامته الفارهة.

وما حدث بعدها يستحيل وصفه بالكلمات، ويستحيل تصديقه حتى لو رأيته بعينيك.

الرجال الثلاثة انقضوا من جديد بأسلحتهم و«راسبوتين» انقض عليهم بيديه العاريتين وبصرخاته التي انتفض لها جسد يوسف المسن بقوةٍ كاد قلبه أن يتوقف معها، لولا أن أمسكت به المرأة لتجذبه صائحة:

ـ هيا بنا.

فتركها يوسف تجذبه بعيدًا عن النافذة الصغيرة التي ارتطمت دماء «راسبوتين» بها، وإن لم تتوقف صرخاته ولا صرخات الرجال الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة دبٍّ ثائر قادر على تمزيقهم إربًا، وإن لم يتمكن يوسف من التحرك أكثر وقد فقد قدرته على الرؤية مع ظلام الغرفة، لتصيح فيه المرأة من جديد:

ـ يجب أن نتحرك.. هيا.

ثم جذبته بقوة أكبر استجاب لها جسده الواهن في اللحظة التي تعالى فيها صوت أول طلق ناري، سيتذكر يوسف فيما بعد أنه اخترق ظهر «راسبوتين»، لكنه لم يوقفه.

السم لم يوقفه.. الضربات والطعنات لم توقفه.. وحتى الطلقات النارية لم توقفه ليلتها، لكن يوسف لن يظل مكانه ليشهد نهايته، فالمرأة جذبته إلى ظلام الغرفة الضيقة، لتفتح فيها بابًا تسلل منه الضوء ولتُخرجه منها وقد أخذت تردد:

ـ يجب أن نسرع.. لو عثروا علينا فلن نخرج من هنا.. أراد يوسف أن يخبرها بأن الرجال الثلاثة لن يبقوا على قيد الحياة ليطاردوهما، لكن معلوماته التاريخية استوقفته وأرغمته على الصمت والاستسلام لها.. بالطبع سيبقون على قيد الحياة وسيقتلون «راسبوتين»، فهذا ما ذكره التاريخ وبصراحة.. صحيح أنهم قضوا ليلتهم يحاولون فعلها قبل أن يَهوِي «راسبوتين» في النهاية جثة هامدة، وصحيح أنه عاد إلى الحياة ثانية ليحاول الهرب وليقتلوه من جديد قبل أن يحملوا جثته ليلقوا

بها في نهر «نيفا»، حيث عاد إلى الحياة للمرَّة الثالثة، وحيث حاول الهرب لتجبره رصاصة في رأسه على الاستسلام للموت أخيرًا.. لكنهم فعلوها في النهاية وظلوا على قيد الحياة عاجزين عن تفسير ما شهدوه هذه الليلة وعن حكايته بالصورة الصحيحة.

هكذا ستنتهي أسطورة «راسبوتين» وسيعجز التاريخ بعدها عن تفسير عودته إلى الحياة بعد أن واجه السم والطعنات والرصاص ومياه نهر «نيفا» المثلجة، كما سيعجز عن تفسير رسالته التي أرسلها إلى القيصر «نيكولاي» يتنبأ فيها باغتياله وبهلاك عائلة «نيكولاي» من بعده ـ وهذا ما حدث فعلًا ـ لكن كل هذا لم يكن يهم يوسف الآن.

الآن عليه أن يتبع المرأة عبر ممرات قصر «مويكا» السرية، والتي اقتادته خلالها لتخرج به في النهاية إلى حيث كانت الثلوج المتساقطة في انتظارهما.

لقد انتهت ليلة «راسبوتين» عند هذا الحد.. لكن ليلته هو لم تبدأ بعد.

* * *

وفي العربة التي كانت تنتظرهما قرب القصر وجد يوسف بعض الدفء في انتظاره.

في داخلها ألقى بجسده الواهن ليحتمي بها، وبجواره جلست المرأة وقد احتبست الدموع في عينيها، لتشير إلى قائد العربة الشاب من دون أن تنطق بحرف فانطلق بهما وسط الثلوج المتساقطة.. لقد مات سيدها الليلة.. قتلوه أمام عينيها ومن دون أن تملك له شيئًا ومن دون حتى أن تملك الوقت الكافي لترثيه أو تفتقده.. والآن..

إنه دورهما.

وبجوارها جلس يوسف يحاول إيقاف جسده عن الارتجاف وقد بدا من الواضح له أنه لن يتحمَّل برودة هذه الليلة طويلًا.. ليس في هذا الجسد المسن الذي اختاره له الشيء ليعذبه بمجرد وجوده فيه.. وعلى الرغم من أنها كانت فرصته الآن ليلقي بأسئلته على المرأة، فإنه رأى الدموع المحتبسة في عينيها فقرر الانتظار قليلًا.. امرأة في هذه الحالة لن تمنحك أي إجابات مهما حاولت معها، والأفضل أن ينتظر حتى تبدأ هي أو حتى يبلغا وجهتهما ليفهم أكثر.. لكنها التفتت إليه لتبدأ بصوت لم تستطع إخفاء حزنها فيه كما أخفت دموعها:

ـ سنصل بعد قليل إلى المعبد.. وهناك سننهي ما بدأه سيدي.. لن يكون الأمر سهلًا لكنني أعرف أنك قادر على فعلها.

فلم يملك يوسف نفسه من أن يتساءل بحيرة:

ـ قادر على فعل ماذا؟

ـ ستفهم كل شيء حين نصل.. لكن «راسبوتين» أخبرني بأنك الوحيد القادر على فعلها.. أخبرني بأنك حين ترى ما ينتظرك ستعرف ما عليك فعله.

ثم مدت يدها لتقبض على أصابعه المرتجفة، مردفة:

ـ وأنا أثق فيك يا أبي.

وهنا لم يجبها يوسف وقد ألجمت المفاجأة لسانه وأعادت تشكيل ملامحه.

لقد حصل على إجابة أول سؤال له في هذه الليلة، وعرف أخيرًا من هي هذه المرأة التي تجلس بجواره والتي تقوده الآن إلى حيث تنتظره مفاجأة أقسى ـ كما سيعرف بعد قليل ـ لأنها تثق فيه.

إنها ابنته!

* * *

على أرض الواقع، وفي إحدى الليالي تساءل يوسف: ما الذي سيحدث لو تزوج لينجب ويصبح أبًا.

كان تساؤلًا بلا جدوى ـ فاحتمال أن يجد من تقبل الزواج به أقرب إلى الاستحالة ـ لكنه كان يملك حق التخيل، وكان يمارسه في بعض الليالي كنوع من التعويض عن وحدته التي سيقضي معها ما تبقى له من عمر.. لا توجد امرأة واحدة عاقلة ستقبل الزواج به، لكنه يستطيع أن يتخيل واحدة ترضى.. بل يمكنه أن يجرؤ على تخيل أنها ستحبه!

وفي تلك الليلة تخيلها يوسف وقد وافقت على الزواج به لتعيش معه طاردة وحدته من المنزل ـ فهي لن تقبل بأن يشاركها فيه أحد ـ ثم تخيلها وقد أنجبت له ابنًا يحمل اسمه، فتمنى يوسف ألا يحمل منه أكثر من هذا.

تمنى ألا يرث ابنه منه نحوله ولا ملامحه ولا ضيق جيوبه الأنفية ولا سوء حظه، وألا يعاني الوحدة التي عاناها هو طويلًا، وتمنى لو امتد به العمر حينها ليظل بجوار ابنه، يقرأ بجوار فراشه كل ليلة، وألا يتركه ليواجه هذه الحياة القاسية بمفرده أبدًا.

ليلتها أقسم يوسف إنه لو حصل على ابنه التخيلي هذا فلن يتركه أبدًا، وسيبقى بجواره، وسيمنحه السعادة التي لم يحظَ هو بها قطُّ.. وليلتها قضى

ساعات طويلة يداعبه ويحكي له عن طفولته هو، ويعده بأنه حين يكبر لن يتركه يعمل في مجلة اسمها «المجلة» مهما كان السبب.. ثم ليلتها حين استفاق من تخيلاته أخيرًا وجد وحدته في انتظاره تبتسم ساخرة، تجاهل ابتسامتها واحتمى بفراشه وأحلامه من واقعه المرير.. إنه لن يتزوج أبدًا ولن يكون له ابن.. وهو يعرف هذا جيدًا.

لكنه ـ على الرغم من كل شيء ـ ابتسم ليلتها لنفسه قبل أن ينام، وهمس:

ـ لأنني أحبك لن أتزوج أبدًا كيلا أكون أباك.

كأنه قراره!

ثم نام ليلتها وهو يشعر بخواء لم يشعر بمثله من قبل.

* * *

لكن ها هو الشيء وقد حقق له أمنيته ليمنحه ابنة تجلس الآن بجواره في عربة تتجه بهما إلى حيث ستبدأ مأساة هذه الليلة.

ابنة روسية، عاشت في أوائل القرن العشرين، وتصف «راسبوتين» بأنه «سيدها»، وتنتظر منه أن يعرف المطلوب منه بمجرد أن يرى ما ينتظره في المعبد، ليفعل ما عليه فعله، لأنها تثق فيه كما أخبرته.. ابنة هي الآن امرأة بالغة تجلس إلى جانبه، لكنه لا يشعر تجاهها بأي نوع من العاطفة، ولا يبدو عليها أنها تحمل له إلا رغبتها في أن ينهي ما بدأه سيدها.. ابنة حين تحدثت خرج صوتها باردًا كالثلوج المتساقطة خارج العربة، ليصيبه بالقشعريرة:

ـ لقد وصلنا.

توقفت العربة بهما أمام ذلك المبنى الذي بدا ليوسف مهجورًا بالثلوج التي غطت مدخله وجدرانه والظلام الذي أطلّ من نوافذه، لكن ابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ ترجلت من العربة، لتقف أمامه ولترمقه بتوتر من تعرف ما الذي ينتظرها في الداخل، قبل أن تلتفت إليه منادية:

ـ هيا بنا.

فتردد يوسف للحظة قبل أن يفارق دفء العربة ليلقي بجسده في برودة تلك الليلة ـ التي لم تكن الثلوج المتساقطة السبب الوحيد فيها ـ ليقف بجوارها وقد أخذ قلبه يرتجف في جسده المسن.. لقد حانت لحظة الحقيقة، وأيًا ما كان ينتظره داخل هذا المبنى فلم تعد تفصله عنه إلا لحظات معدودة.. دوره في هذه الليلة سيبدأ حالًا، وهو لا يعرف بعد ما الذي عليه فعله، لكن «راسبوتين» قال إنه سيعرف.. لماذا قالها؟ الآن سيعرف.. فقط أضافت ابنته:

ـ يجب أن ننهي الأمر كله قبل أن تنتهي هذه الليلة.

ثم إنها ابتسمت لتردف بلهجة حالمة لم تزده إلا خوفًا:

ـ إنها الليلة الثانية والعشرون.. لكنها ستكون الليلة الأخيرة.

ومن دون أن تمنحه تفسيرًا لما قالت خطت خطوتها الأولى تجاه المبنى المهجور، فملأ يوسف صدره بهواء الليلة البارد، ليرتجف جسده كله رهبة وانفعالًا، قبل أن يتبعها إلى حيث كانت مفاجأة قاسية في انتظاره.

أقسى مما تخيل بكثير!

* * *

داخل المبنى كان الظلام في انتظارهما، وكانت اللوحات متناثرة على الجدران، لكنها لم تكن تتحرك، ولم يجد يوسف نفسه في أي واحدة منها.

وعلى ضوء الشمعة التي أشعلتها ابنته تراقصت الظلال على اللوحات ليرى يوسف فيها وجوهًا تتلوَّى في ألم، ورجالًا يرتدون زيًّا مماثلًا لزيه ينحنون في خضوع وطاعة أمام رجل استرسل شعره الأسود الطويل على وجهه حتى امتزج بلحيته، وقد سدد لهما عينين توشك نظراتهما على اختراقهما، فأدرك يوسف على الفور أنه «راسبوتين»، وأن أتباعه كانوا يعبدونه بصورة أو بأخرى.. إن ابنته في هذا الزمن تلقبه بـ«سيدي»، لكن يبدو أنه لم يكن مجرد قائد لهم.. بل ما هو أكثر بكثير.. وها هو الآن في هذا الزمن واحد منهم، وعليه أن يبدي الخضوع ذاته والطاعة ذاتها حتى لو كان يعرف يقينًا أنه مات وأن جثته الآن ترقد في مياه نهر «نيفا» القريب من هنا.. لهذا تساءل بصوت حمل نفوره من كل ما يراه حوله:

ـ والآن.. ما المطلوب مني؟

ـ سترى بنفسك بعد قليل.

قالتها ابنته، ثم تقدمت من القاعة الخاوية أمامه حاملة شمعتها لتضيء الطريق أمامها، فتبعها هو بخطوات منهكة حتى بلغت ابنته ذلك البروز في الجدار، لتأخذ في تحسسه كأنما تبحث عن شيء ما، قبل أن تضغط على جزء فيه، لينفرج الجدار كاشفًا عن درج مظلم يقود إلى الأسفل، فأشارت إليه وقد استبد بها الحماس:

ـ مِنْ هنا.

ثم بدأت هبوط الدرج، فأسرع يوسف من ورائها يحتمي بضوء شمعتها

من الظلام الذي حاول ابتلاعه.. وعلى الرغم منه تذكر اللحظة التي هبط فيها الدرج إلى قبو فيلّا الدكتورة ليلى، قبل أن تلحق هي به هناك لتحاول قتله بسكين قتلها هو به، لتحاول سوسن قتله بذات السكين لاحقًا.. ولنفسه همس:

ـ تماسك.. الدكتورة ليلى لن تلحق بك الليلة.. ليس في هذا الزمن.

لكن.. مَن قال إن ما ينتظره في نهاية هذا الدرج لن يكون أسوأ من الدكتورة ليلى وجثث عائلتها التي كانت ترقد في قبو منزلها؟ لا داعي للتفكير بهذه الطريقة فأنت ستواصل الهبوط على أي حال وإلى أن ترى بنفسك ما الذي ينتظرك.

تماسك.. تماسك!

وبلغت ابنته نهاية الدرج أولًا، لتضيء بشمعتها ذلك الباب الخشبي عند نهايته، ولتلتفت إليه قائلة:

ـ أبي.. أأنت مستعد؟

فودَّ يوسف أن يطلب منها ألا تناديه بهذه الكلمة، لكنه قرر تجاوزها ليهز رأسه مجيبًا أن نعم، فمنحته ابنته نظرة صامتة دامت للحظة قبل أن تمد يدها لتفتح الباب الخشبي الثقيل ببعض العناء، لينفجر الضوء الذي انبعث من الداخل في وجه يوسف، وليجبره على أن يغلق عينيه متألمًا، قبل أن يفتحهما من جديد ببطء، ليشاهد أخيرًا ما تركه له «راسبوتين» في الداخل، وليتفجر الذهول هذه المرَّة من عيني يوسف وفي ملامحه.

ففي الداخل، ووسط مئات الشموع التي تناثرت في المكان، وعلى ذلك المذبح الحجري الذي انتصب في منتصف الغرفة تمامًا، كان

ذلك الطفل يرقد بجسده الضئيل، وبعينين مفتوحتين ترمقان اللاشيء بثبات مخيف.

طفل في العاشرة من عمره، شاحب الوجه أسود العينين، بدت نظراته الثابتة حادة لا تليق بعمره بأي حال من الأحوال.

طفل رآه يوسف من قبل، وكان السبب في كل ما حدث له، والبداية لمأساته التي لم تنتهِ بعدُ ولن تنتهي.

طفل لا يحمل اسمًا لكنه يعرفه كابنه.

ابن الدكتور مجدي!

٧

أنت تذكر تلك الجريمة التي حدثت في العام الماضي، والتي نشرنا تفاصيلها في المجلة.. أستاذ التاريخ الذي قتل ابنه.. لقد كانت جريمة بشعة حقًّا.. الرجل هشم رأس طفله وهو نائم بمِطرقة.

* * *

- مجرد فكرة أنه فتح عينين مذعورتين ونظر إليك والدماء تتفجر من رأسه من دون أن يجبرك هذا على التوقف؛ مثيرة للغثيان حقًّا.. لقد مات مع الضربة الأولى، لكنك واصلت ضربه و...

هنا قاطعه مجدي وللمرَّة الأولى بصوت لم يستخدم منذ عام أو أكثر:

- لكنه لم يمت.

* * *

- أنا هنا لأساعدك.. اللعبة لن تكون ممتعة لو لم أساعدك.

* * *

ـ في كل مرَّة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسأحصل أنا على قطعة.

* * *

وأمامه على ذلك المذبح الحجري.. شاخص العينين في زمن لا يمت لزمن يوسف بصلة.. بجسده الضئيل.. بشعره الأسود الفاحم.. بنظراته التي تليق برجل بالغ.. وبملابس تليق بهذا العصر، رقد الطفل أمامه ثابتًا كنظراته، وكأنه مجرد جسد لا روح فيه ولا حياة، وأمامه وقفت المرأة لتشير إليه وقد استبد بها خوف ارتجفت له يدها التي أشارت بها وصوتها الذي خرج منها، ليقول:

ـ إنه هنا.

فلم يجبها يوسف، ولم يبدُ عليه أنه سمعها أصلًا.. لقد كان يقف معها في الغرفة ذاتها يرمق الجسد ذاته، لكنه كان قد فقد اتصاله بواقع هذا الزمن الذي وجد نفسه فيه، وكان وعيه يسبح في بحر ذكريات بعيدة، خاض بعضها في زمنه والبعض الآخر في أزمنة أخرى زارها مرغمًا، وفقد في كل واحد منها قطعة من جسده.. لكن المرأة واصلت من دون أن تلتفت إليه وقد أخذ جسدها كله يرتجف هذه المرَّة:

ـ إنه هنا.. داخل هذا الجسد.. يشعر بنا ويستمع الآن لما نقوله، لكن انتقاله لم يكتمل.

ثم التفتت إلى يوسف الذي وقف ثابتًا شاخص النظرات كالجسد الراقد أمامه، لتكرر:

ـ إنها الليلة الثانية والعشرون.. لكنها ستكون الليلة الأخيرة.

قالتها فأجبر يوسف نفسه على العودة إلى أرض الواقع، ليخرج صوته من حلقه مبحوحًا خشنًا كصوت رجل يوشك قلبه على التوقف:

ـ الليلة الثانية والعشرون؟

ـ هذا ما أخبرني به سيدي.

ثم بدأت ابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ تشرح مستعيدة ما لقنه لها سيدها:

ـ إنها ليلة تتكرر كلَّ ستةٍ وتسعين عامًا، وفيها تذوب الحواجز بين عالمنا والعوالم الأخرى، سامحة لنا بالعبور إليها.

واختنق صوتها بالخوف، وهي تردف:

ـ وسامحة لهم بالعبور إلينا.

وصمتت للحظات تمالكت فيها نفسها، قبل أن تواصل:

ـ في الليلة الأولى كانت البداية.. سيدي أخبرني بأن الأمر كله بدأ بامرأة حاولت أن تعيد زوجها إلى الحياة.

* * *

لم تشعر به المرأة التي واصلت ممارسة طقوس لم يحتَجْ يوسف لوعيه كاملًا ليدرك الغرض منها.

إنها تحاول إعادة جثة رجلها إلى الحياة.

خياله الخصب منحه هذا التفسير، وقصة كاملة تصلح للإجابة عن أسئلة عديدة.. هذه المرأة ورجلها كانا يسيران في الغابة حين اعترض سكان تجاويف الأشجار طريقهما.. قتلوه، وهربت هي لتقتلهم ولتحاول

قتله هو ظنًّا منها أنه ينتمي إليهم، ثم جمعت جثثهم في هذه الدائرة لتستخدمهم في ممارسة طقوس سحرية ستعيد بها رجلها إلى الحياة.

* * *

ـ كانت المرأة تمارس السحر وتجيد طقوسه.. وحين هلك زوجها أمام عينيها حاولت إعادته باستخدام طقوس لم تجربها من قبل، ولم تكن لتجرؤ لولا أنها اضطرت.. إعادة الموتى للحياة مخاطرة حقيقية، ولقد كانت المرأة تعرف هذا، لكنها كانت تحب زوجها حقًّا، ولهذا خاطرت.. ولهذا نفذت الطقوس للمرَّة الأولى.. لكن من عاد ليلتها لم يكن زوجها.. بل كان هو!

واختلست نظرة سريعة إلى جسد الطفل الراقد أمامها قبل أن تردف:

ـ كان الشيء.. لا أحد يعرف ما هو تحديدًا، لكننا الآن نعرف أنه موجود.. ونعرف كيف بلغ عالمنا.

ثم عادت لتشيح بوجهها بعيدًا عنه، لتواصل:

ـ هكذا استيقظ الشيء في جسد زوج تلك المرأة أول مرَّة، وهكذا ظل لسنوات طالت يعيش أسير هذا العالم، يجوب الأرض والأجساد، ويتجاوز الأزمنة، حتى انتهى به الأمر في «والاشيا» وفي زمن «فلاد الثالث».. أتعرفه؟

* * *

ـ أأنت مستعد؟

فأجابه يوسف وبلغته ذاتها وبصوت ليس هو صوته:

ـ مستعدٌّ لماذا؟

فتبدت الدهشة في عيني الأشيب والضخم، وتبادلا نظرة سريعة، قبل أن تعود عينا الأول إلى يوسف، ليجيب:

ـ لقتله.. أنت من سيقتل «فلاد».

* * *

لم يكن «فلاد» ضخم الجثة ولا مخيف الملامح.. مجرد رجل عادي ذي شارب ضخم يشطر وجهه نصفين، أسفله فم دقيق، وأعلاه عينان خاملتان تحملان ثقة رجل يدرك جيدًا أن أيًا ما كان ما سيريده فسيُنفذ له على الفور.

رجل اعتاد رؤية الموت وتوزيعه.. اعتاد رائحة الجثث والدماء.. اعتاد القتل حتى أصبح هواية يمارسها باستمتاع لا حد له.

رجل تأمل يوسف والضخم والأشيب بهدوء بالغ، قبل أن يسأل حرسه:

ـ مَن منهم الذي تسلل إلى غرفتي؟

* * *

لكن «فلاد» لم يتوقف.. فقط واصل ترديد الطقوس بخشوع أقرب إلى الصلاة، حتى اقترب من نهايتها، ليفعل آخر شيء توقعه يوسف على الإطلاق.

فمع نهاية الطقوس استلّ «فلاد» خنجرًا من حزامه فجأة ليصيح:

ـ إنني أقدم لك هذا الجسد.. جسدي.

ومن دون ذرة تردد أولج الخنجر حتى مقبضه في قلبه هو!

* * *

ولم يجبها يوسف، لكنها واصلت:

ـ كان «فلاد» هو ثاني من مارسوا هذه الطقوس على أرضنا، وكان يحاول بها إعادة زوجته للحياة.. لكن شيئًا ما حدث لم تذكره كتب التاريخ، ولن نعرفه أبدًا، وبدلًا من أن يعيد «فلاد» زوجته إلى الحياة هلك هو ليمنح للشيء جسده.. فيه عاش الشيء طويلًا، وبه تمكن من الهرب ممَّن حاولوا قتله لينطلق إلى المجر ولينتقل إلى جسد ثالث من نفذوا الطقوس على أرضنا.. «إليزابث باثوري».

* * *

ـ قبل أن نتحرك هناك شيء يجب أن أعرفه أولًا .. من أنتِ؟

فتراقصت ابتسامة وحشية على شفتي المرأة إذ أجابت:

ـ بالطبع أنت تعرفني.. أنا مولاتك «إليزابث».. «إليزابث باثوري».

* * *

ـ دماء العاهرات لم تمنحني الخلود.. أتعرف لماذا؟ لأنهن عاهرات.. كلهن عاهرات، وكلهن دفعن الثمن.. وفي النهاية لم يعد أمامي إلا أن أجرِّب تلك الطقوس الملعونة.. كنت أظن أنها ستمنحني الخلود.. كنت أظن أنها ستمنحني الفرصة لأحيا.. لكنها بدلًا من هذا.. منحتني له!

* * *

ـ لكن بقاءه في جسدها لم يَدُم.. حين سجنوها في قصرها سئِمها وتركها تهلك أخيرًا ليتحرر من جديد، وليظل معلّقًا لسنوات طويلة بلا جسد يُؤْوِيه ومن دون أن يعرف بوجوده أحد.. لكن سيدي كان يعرف.. كان يعرف وعنه بحث طويلًا حتى عثر عليه في النهاية وعلى طقوس استدعائه.. وبها استطاع أن يمنحه هذا الجسد.

قالتها وأشارت إلى جسد الطفل من دون أن تجرؤ على النظر إليه، ثم التقطت أنفاسها لتواصل:

ـ إنه جسد طفل يتيم كاد المرض يفتك به، فأتوا به إلى سيدي لينقذه لكنه لم يفعل.. أخبرني بأنه هالك لا محالة، وأن كل ما يملك فعله هو أن يستخدم جسده ليكون مقرًّا للشيء.. وهذا ما فعله.. بدأ طقوس استحضار الشيء لكنه لم يكملها.. سيدي أخبرني بأننا يجب أن ننتظر إلى الليلة الثانية والعشرين حتى يذوب الحاجز بين عالمنا وعالمه ليساعده على العبور كاملًا، وأخبرني أيضًا أنه لن يكون معنا ليتمم الطقوس.. لقد كان يعرف أنهم سيقتلونه الليلة، وأنه لن يجد الفرصة ليكمل ما بدأه، ولهذا اختارك أنت لتكمل ما بدأه هو.

ثم عادت لتستخدم الكلمة البغيضة، قائلة:

ـ أبي.. لا أعرف لماذا اختارك سيدي تحديدًا، لكنه أخبرني بأنك الوحيد الذي ستفهم ما يحاول فعله.. أنك الوحيد القادر على إنهاء ما بدأه.. وأخبرني بأن كل شيء يجب أن ينتهي هنا.. والليلة.. وإلا...

ولم تكمل، وقد وجدت أنها ليست في حاجة لتفعل، لكن يوسف وقف أمامها وقد فقد قدرته على الاستيعاب تمامًا.

لقد حصل لتوِّه على قطعته من الحقيقة في هذا الزمن، لكنه حصل عليها مغلفة بالمزيد والمزيد من الأسئلة.

ما الذي يعنيه «راسبوتين» بأن الليلة سيكتمل عبور الشيء؟

ولماذا اختاره هو تحديدًا؟

أكان يعرف أنه سيكون هو يوسف الذي عرف أكثر من اللازم ودفع ثمن معرفته هذه؟

كيف عرف؟

هل أخبره الشيء؟

ولو كان يعرف فلماذا اختار منه أن يساعد الشيء وهو الذي يحاول القضاء عليه؟

وما الذي عليه فعله الآن؟

ابنته - التي هي ليست ابنته - تقف الآن تنتظر قراره، وهذه الليلة لن تدوم طويلًا، وفيها يجب أن ينتهي كل شيء كما أخبرته، فهي الليلة الثانية والعشرون.. الليلة التي سينتهي فيها كل شيء.

لكنْ لا.

إن الأمر لن ينتهي الليلة وهو يعرف هذا يقينًا.

ما سيحدث الليلة هو أن الشيء سيحصل على جسد هذا الطفل، وسيظل فيه إلى أن يعثر عليه الدكتور مجدي في زمنه ليأخذه معه، ولتبدأ مأساة الدكتور مجدي التي ستنتهي ببداية مأساته هو.. هذا هو ما حدث وما سيحدث لو لم يفعل شيئًا الآن.

نعم.. إنها فرصته!

فرصته ليغير التاريخ ولينجو بنفسه من دائرة الهلاك التي وجد فيها نفسه.. وليفعلها يجب أن يقضي على الشيء.. يجب أن يفعلها.. وهنا.. والآن.. ولكن.. كيف؟

إنه لا يعرف طقوس القضاء على الشيء، حتى وهو يرقد الآن أمامه في هذا الجسد عاجزًا عن الحركة يشعر به ينظر إليه ساخرًا، ينتظر قراره الذي يعجز عن اتخاذه تمامًا.. كأنه يتحداه.. كأنه يمنحه الفرصة ليفعلها لو كان يستطيع.

فما.. الذي.. سيفعله؟

- أبي.. يجب أن تبدأ سريعًا فما تبقى من هذه الليلة أقل بكثير مما مضى منها، ولو لم نفعلها الليلة فلن يمتد بنا العمر حتى تأتي الليلة الثالثة والعشرون.. ما الذي تنتظره؟

قالتها ابنته بلهجة أقرب إلى الرجاء، فلم تزده إلا حيرة وترددًا.. وفي رأسه سمع صوت الشيء يردد بصوته العابث:

- في كل مرَّة سيكون لك الاختيار.

وها هو اختيار الليلة.

أن يغير التاريخ أو أن يستسلم له.

فقط عليه أن يعرف ما الذي عليه فعله و.. و..

وكشرارة ضوء في قلب الظلام التمع الحل في رأس يوسف، فشعر به وأخذ يتحسس طريقه إليه تقوده رغبته في البقاء.. نعم.. هناك مخرج

من هذا كله.. إنه يعرف الطريقة، لكن عليه أن يبلغها في عقله وعليه أن يفعلها وبسرعة.

ـ أبي.. يجب أن تبدأ.. أيًا ما كان ما ستفعله.. فافعله!

تقولها ابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ فيضل طريقه وسط أدغال عقله المظلمة حيث أشجار الأسئلة كثيفة تحجب عنه الحل الوحيد.

تماسك.. تماسك.

أنت تعرف ما عليك فعله.. فقط اهدأ واسترخ قليلًا وستصل إلى الحل الصحيح.

إنه لا يعرف طريقة القضاء على الشيء.. لكن التاريخ الذي عذبه طويلًا يحمل له المخرج من هذا كله.. الطفل سيبقى وسيعثر عليه الدكتور مجدي والشيء في داخله.. سيعيده وسيدفع الجميع الثمن.. سيهلك وسيتساقط ضحايا الشيء واحدًا تلو الآخر.. سيخوض هو لعبة الشيء وسيفقد أعضاء جسده وسيدفع الثمن في النهاية كما وعده الشيء و.. و..

ولكن.. ماذا لو لم يعثر الدكتور مجدي على الطفل؟!

نعم.. ها هو الحل يرقد في أعماق عقله ينتظر أن يلتقطه لينفذه.. نعم.

ماذا لو لم يعثر الدكتور مجدي على الطفل؟!

ـ أبي.. ما الذي تنتظره؟

لكن يوسف لم يجبها.. في رأسه كان قد عثر على الحل الصحيح ليبدأ تقليبه على كل الأوجه باحثًا عن الطريقة المثلى لتنفيذه.. إنها الليلة الثانية

والعشرون ولقد أوشكت على الانقضاء، لكنه لا يزال يملك وقتًا كافيًا.. نعم.. ستكون هذه هي الليلة الأخيرة.

وأمام عيني المرأة المتلهفتين بدأت ابتسامة ثقة تغزو وجه يوسف الكهل حتى ملأته، فاستحالت لهفة المرأة إلى حيرة أقرب إلى الخوف.. لقد عرف ما عليه فعله.. تمامًا كما توقع سيدها!

وحين خرج صوت يوسف الخشن من حلقه هذه المرَّة كان يحمل النبرة العابثة ذاتها التي حملها صوت الشيء في كل المرَّات التي سمعه فيها، إذ قال:

ـ أنا مستعد.

قالها وفي اللحظة التالية قبض على عنق من يفترض أنها ابنته، ليضرب رأسها بالمذبح الحجري بأقصى ما أوتي من قوة، فلم تجد هي الفرصة لتصرخ أو لتفهم.. فقط حدقت فيه ذاهلة للحظة قبل أن تهوِي أسفل قدميه فاقدة الوعي والدماء تتفجر من رأسها، فلم يُلقِ هو بنظرة واحدة عليها.. فقط وقف أمام جسد الطفل يرمقه مبتسمًا، قبل أن يهمس لنفسه برضا:

ـ لقد عرفت ما عليَّ فعله.

ثم.. وبمنتهى الهدوء.. بدأ تنفيذ الحل الوحيد.

* * *

ومن المعبد خرج يوسف حاملًا جسد الطفل بين ذراعيه وهو يلهث ويترنح، لتستقبله الثلوج المتساقطة وقد اشتدت كثافتها كأنها تعترض على ما ينتويه، لكنه تحامل على نفسه ودفن قدميه في الثلج محاولًا التقدم من

العربة التي كانت في انتظاره، وقد شعر بأن جسد الطفل يزن أطنانًا.. لكنه ليس مجرد طفل وهو يعرف هذا جيدًا.

وحين بلغ العربة في النهاية خرج سائقها منها والحيرة تطل من عينيه متسائلًا:

- أين «أولجا»؟

فأجابه يوسف بأنفاس مختنقة:

- ستبقى هنا.. وسنتحرك نحن حالًا.

ثم ألقى بجسد الطفل على المقعد الخلفي ليجده لا يزال شاخص العينين يحدق في اللاشيء، بالتعبير ذاته الجامد على وجهه، فألقى بنظرة سريعة عليه، قبل أن يشير إلى قائد العربة آمرًا:

- هيا بنا.

- إلى أين؟!

- إلى نهر «نيفا».

وابتسم قبل أن يردف بنبرة عابثة:

- فهناك.. سينتهي كل شيء.

٨

وبجوار قائد العربة الشاب جلس يوسف بجسده الكهل يتجاهل نظرات الشك التي أخذ يسددها إليه بين الفينة والفينة.

إنه يشعر بأن هناك شيئًا ما خطأً.. شعورًا هو أقرب إلى اليقين، لكنه لا يملك ما يؤيده ليحوِّل حيرته وشكوكه إلى أسئلة يوجهها إليه.. لهذا اكتفى بنظراته تلك وبذلك التعبير الرافض المتوتر على وجهه، وإن أخذ يقود عربته وسط الثلوج ببطء ملحوظ كأنه يبتاع لنفسه المزيد من الوقت.

لا بأس.. لا تولِه اهتمامًا فهو لن يتمكن من الفهم أو التصديق حتى لو شرح له الموقف كاملًا.. كل ما عليه هو أن يوصله إلى وجهته وبعدها سيتكفل هو بالباقي.. ليركز طاقته الآن في التغلب على حقيقة أنه سيفعل ما سيفعله في طفل صغير يتيم لم يتجاوز العاشرة من العمر، حتى وإن كان الشيء يحتل جسده.

كان قائد العربة شابًّا أقرب إلى المراهقة بذلك النمش الذي غطى وجهه والزغب النامي أسفل أنفه وفي مناطق متباعدة من ذقنه، وكان أقرب إلى النحول والضعف، لكنه ظل ـ مقارنة بجسد يوسف الكهل الضامر ـ

ضخمًا باديَ الصحة، قادرًا على الفتك لو استبد به الشك أكثر من هذا.. لهذا قال يوسف محاولًا كبح جماحه:

ـ سيدي أخبرني بما عليَّ فعله.. ولهذا علينا أن نسرع.

فقفز الشك من نظرات الشاب إلى صوته، إذ سأل:

ـ ولماذا لم تأتِ «أولجا» معنا؟

ـ لأن ابنتي ستقوم بدورها هناك في المعبد.. يجب أن يتم كل شيء في التوقيت ذاته، وإلا فستضيع فرصتنا الأخيرة.

فلم يجب الشاب هذه المرَّة، وإن عاد الشك إلى نظراته، فلاذ يوسف بالصمت بجواره وقد قرر أنه لا داعي للمخاطرة.. إنه مراهق يشعر بالشك والحيرة، وأقل استفزاز له سيؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب.. ثم إنه اقترب من النهر فعلًا.. البرودة المتزايدة والتي لم تخفف عباءته الثقيلة منها ولو ذرة تقول إنه اقترب.

اقترب من نهاية هذا كله.

في المقعد الخلفي رقد جسد الطفل ساكنًا جامد الملامح، وقد بدا أقرب إلى جثة هامدة لولا عيناه الشاخصتان اللتان تبدت فيهما نظرة يستحيل أن تميز إن كانت ساخرة أم خائفة.. إن الشيء في أعماقه يعرف ما سيحدث له بعد قليل، لكنه عاجز عن الحركة أو المقاومة، وهو الآن يكتفي بمتابعة ما يحاول يوسف فعله بهدوء ينذر بعاصفة.

تماسك.. تماسك.

كل شيء سينتهي الليلة.. لقد عرفْتَ الحل الصحيح والوحيد أمامك..

ستنفذه.. ستعود إلى زمنك لتجد أن مأساتك انتهت، وأن الشيء لم يعد له وجود في عالمك.. تجاهل نظرات الشاب المتشككة و.. تماسك!

لكن الشاب بدأ فجأة مهشمًا آماله:

ـ وما الذي سنفعله عند نهر «نيفا» تحديدًا؟

اللعنة على المراهقين في كل زمان ومكان!

و«تماسك» يوسف ليجيب:

ـ ما أمرني به سيدي.

ـ وما الذي أمرك به سيدي؟

ـ لو كان يريدك أن تعرف لأخبرك بنفسه.

قالها يوسف ليغلق باب الجدال قبل أن يتسع، لكن الشاب توقف بالعربة بغتة وبصورة أفقدت يوسف توازنه، ليصيح:

ـ أريد أن أعرف.. لن نتحرك من هنا إلا بعد أن أفهم كل شيء.

ها هو باب الجدال وقد انفتح على مصراعيه سامحًا للغضب والرفض بالمجيء معه، ليهددا بإفساد كل شيء وفي أسوأ توقيت ممكن.. الآن أي حرف سيخرج من بين شفتيه سيعني الكثير، وعليه أن يزن كلماته جيدًا قبل أن ينطق بها.. لهذا استحضر يوسف هدوءًا لم يشعر به قطُّ، ليخرجه في صوته وهو يقول:

ـ هذا الطفل هو الوحيد القادر على إنقاذ «راسبوتين».. لقد قتلوه الليلة.

ـ قتلوه؟!

ـ قتلوه وألقوا بجثته في نهر «نيفا».. لكننا سنذهب إلى هناك لننقذه ولنعيده إلى الحياة.. لكن يجب أن نفعلها الليلة وإلا فسيهلك سيدنا إلى الأبد وحينها ستكون أنت المسؤول.. والآن خذ قرارك.

قالها يوسف ثم لاذ بالصمت وقد ألقى بالكُرة في ملعب الشاب مدركًا أنه أحرز هدفًا في شباكه.. لو كان واحدًا من أتباع «راسبوتين»، فلن يخاطر بأن يهلك سيده بسبب تسرعه وشكوكه التي يُعِدُّ لها مكانًا وسط كل الذهول الذي أخذ يعتمل في أعماقه الآن.. الخيار الوحيد أمامه الآن هو...

ـ لماذا لم تقل هذا من البداية؟! يجب أن نسرع.

ثم وبحماس المراهقين اعتدل الشاب على مقعده ليدير محرك السيارة وينطلق بها بأقصى سرعة سمحت بها الثلوج، ليسترخي يوسف بجواره وقد أدرك أنه ربح هذه الجولة.. وعن جدارة.. هذه هي مزية المراهقين الوحيدة.. أنهم أغبياء!

الآن يمكنه أن يعود إلى التفكير في حقيقة أنه سيلقي بجسد هذا الطفل الصغير في مياه نهر «نيفا» المثلجة ليتخلص منه ومن الشيء وإلى الأبد.. هكذا لن يجده الدكتور مجدي مستقبلًا، ولن يعود به إلى مصر لتموت زوجته ويدفع ثمن محاولته لقتل الطفل الذي هو ليس طفلًا.. هكذا لن يرسله مدير التحرير إليه في سجنه ليُجري حوارًا معه.. وهكذا ستنجو الدكتورة ليلى وعائلتها، ولن ترقد جثث أطفالها في قبو منزلها وفي فم ابنتها مفتاح لم يعرف حتى الآن ما الذي عليه فعله به.

سيعود إلى زمنه وقد استرد عينه ورئته وكُليته، ولو صحت نظريته فلن يجد سوسن تجلس بجواره في سيارته في المقابر الباردة، بل سيجد

نفسه في غرفة نومه في منزله، تنتظره الوحدة وسوء حظه الذي قد يحمل إليه الكثير، لكنه لن يكون أسوأ مما مر به حتى الآن.. كل هذا سيحدث لو ألقي بجسد طفل بائس لم يتجاوز العاشرة من عمره في نهر «نيفا»!

لكنه ليس طفلًا.

إنه الآن مجرد جثة تحوي الشيء بداخلها.. جثة تستحق أن تدفن بالصورة اللائقة، لكنه لن يخاطر بأن يبحث الدكتور مجدي عن مقبرة الطفل ليخرجه منها، فهو لا يعرف حتى الآن كيف عثر عليه أصلًا.. كل ما يعرفه هو أنه أتى به من روسيا، وهذا يفتح باب الاحتمالات كلها.. لكنه.. ومهما استبد به الحماس.. فلن يبحث عنه في مياه النهر.

هكذا سيبقى الشيء أسير هذا الجسد في أعماق النهر إلى أن تقوم الساعة، وربما عاد إلى عالمه، فهي الليلة الثانية والعشرون على الرغم من كل شيء و.. و..

ولكن.. ماذا لو جرفت مياه النهر جثته إلى الشاطئ؟

حينها سيعثر عليها أحدهم وقد يدفنها حيث سيعثر عليها الدكتور مجدي لاحقًا، أو ـ لسوء حظه الذي لم يخيِّب ظنه قطُّ ـ قد يكمل الطقوس ليكمل انتقال الشيء إلى الجسد، ليبقى فيه حتى يصل إلى الدكتور مجدي لاحقًا... ملاحظة شديدة الأهمية ومن الرائع أنه انتبه لها قبل أن تضيع فرصته.. يجب أن يربط جسد الطفل بحجر ثقيل ليضمن أنه سيغوص إلى أعماق النهر ولن يغادره.. من أين سيأتي بحجر ثقيل؟ سيجد واحدًا قرب النهر بالتأكيد فسوء حظه لن يبلغ هذه الدرجة أبدًا!

سيحتاج إلى حجر ثقيل وإلى حبل غليظ وإلى... مهلًا.

هذه المشاهد من حوله تبدو مألوفة!

خارج العربة كانت الثلوج المتساقطة تكسو الموجودات كلها باللون الأبيض ليتحول المشهد من حوله إلى شيء أشبه بلوحة ثابتة لا تفاصيل فيها، لكنه يكاد يقسم إنه رأى ذلك المبنى منذ قليل!

رآه ورأى تلك التبة الصخرية ورأى عمود الإنارة هذا الذي حجبت الثلوج المتراكمة عليه ضوءه، وهو واثق تمام الثقة بأنه عبر ذلك الجسر الذي يتجه إليه الشاب الآن بعربته.

ما الذي يحدث؟

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

سأل ليتجاهله الشاب وإن زاد من سرعة عربته نوعًا ما، فبدأت الحيرة في أعماق يوسف تتحول إلى خوف حقيقي ببطء ولكن بثقة.. لذا كرر صائحًا هذه المرَّة:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

فأجابه الشاب من دون أن يلتفت إليه وهو يزيد من سرعة عربته أكثر فأكثر:

ـ سنعود إلى المعبد لنحضر «أولجا».

ـ ماذا؟!

ـ سيدي مات ونحن سنعيده إلى الحياة.. أتظنني أحمق؟! أنت تكذب وأنا أعرف هذا جيدًا.

ـ ولكن أ...

ـ لو لم تخرس فسألقي بك وسط الثلوج وسآخذ الطفل معي.

فخرس يوسف مرغمًا وقد أعجزته الصدمة عن الرد أو التفكير.. الأحمق سيفسد كل شيء! سيفسد كل شيء بعد أن اقترب أخيرًا من الحل، وسيعود به إلى حيث لن تُشكل حقيقة كونه والد تلك المرأة التي في المعبد الكثير بالنسبة إليها؛ إن ولاءها لسيدها مطلق ولن تؤثر فيه أي روابط أسرية من أي نوع، ولو عاد إلى المعبد.. فلن يخرج منه حيًّا.

تماسك.. تماسك.

لكنه ليس وقت التماسك.. إنه وقت التصرف.. وبسرعة.

وهنا تذكر يوسف موقفًا مشابهًا مرَّ به منذ زمن طويل.. حادثًا.. لو شئنا الدقة.. حادثًا تعرَّض إليه واستيقظ بعده في المستشفى ليعرف أن عمته قد قررت التخلي عنه إلى الأبد.. حادثًا هو الآن أمله الوحيد في النجاة!

وفي اللحظة التي بلغت فيها سرعة العربة الحد الأقصى التفت يوسف إلى الشاب مبتسمًا هذه المرَّة، ليقول:

ـ هل أخبرتك من قبل بأنني شؤم؟

فالتفت إليه الشاب بنظرة استنكار في عينيه، لكن يوسف انقض على عجلة القيادة بغتة ليديرها بكل قوته، لتنزلق العربة على الثلوج، وليصرخ الشاب محاولًا السيطرة عليها، لكنها دارت حول نفسها قبل أن تقفز من على الأرض لتنقلب به وبيوسف الذي لم يجد الفرصة حتى للصراخ.

العالم من حوله انقلب رأسًا على عقب والزجاج والدماء تناثرا في

وجهه، ثم شعر بعظامه تتهشم وبالثلوج تقتحم العربة لتغطيه، ومن الشاب تعالت حشرجة مخيفة، قبل أن تتوقف العربة أخيرًا على جانبها، ليشعر يوسف بعدها بآلام تفوق الوصف تتعالى من كل خلية في جسده.

وفي اللحظة الأخيرة.. وقبل أن يفقد الوعي.. سمع صوت عمته في رأسه يتردد:

ـ شؤم.. شؤم.. أنت شؤم!

* * *

لكنه لم يفقد الوعي طويلًا.

لدقائق معدودة فقد يوسف اتصاله بالعالم الخارجي، ثم استعاده ليجد أنه لا يزال جالسًا على مقعده في العربة التي رقدت على جانبها وقد غطاه الزجاج والثلج والدم، وبجواره كان الشاب يجلس مكانه وقد تهشم قفصه الصدري تمامًا، وأخذت الدماء تنهمر من فمه بلا توقف لتتجمد على صدره، وفي عينيه اللتين بدأ بريق الحياة فيهما يخبو، رأى يوسف نظرة «أنت قتلتني!» قبل أن يُفرغ الشاب ما تبقى فيه من حياة بحشرجة أخيرة، همد بعدها جسده تمامًا.

لكنه نجا!

بمعجزة ما نجا هو وإن احتاج إلى لحظات ليستوعب ما هو فيه، قبل أن يدير رأسه ببطء إلى المقعد الخلفي، ليجد أن الطفل لا يزال هناك وإن انقلب على وجهه ليرحمه من نظراته الشاخصة مؤقتًا.

والآن ماذا عن إصاباتك أنت؟

إن عنقه لم يتهشم فلقد أدار رأسه بنجاح وأعاده إلى موضعه فلم يلاحظ إلا الدماء التي أخذت تسيل على جانب رأسه لتمتزج بشعره الطويل وبلحيته.. حاول تحريك ذراعيه فتضاعفت آلامه فجأة لكنه فعلها ليتحسس جسده بحذر باحثًا عن عظام بارزة أو فجوات، فلم يجد.. حاول تحريك ساقيه فوجد أن ساقه اليمنى تحاول الاستجابة، بينما رقدت اليسرى مكانها وقد اخترقها قائم معدني عند الفخذ.. هذه مشكلة.

يجب أن يحرر ساقه، وأن يزيح أطنان الثلوج التي ملأت العربة عنه، وأن يزحف خارجًا منها، والأهم.. أن يأخذ الطفل معه.

ولنبدأ بالقائم المعدني.

بحذر بالغ مدَّ يوسف يديه ليتحسس القائم المعدني، فلم يكد يلمسه حتى تصاعدت الآلام من ساقه اليسرى بصورة أرغمته على الصراخ، لكنه عضَّ شفتيه مقاومًا وبدأ محاولة إخراجه من ساقه، لتشتد حدة الألم بصورة أصابته بالدوار، وشعر كأنما يحاول اقتلاع نخلة من جذورها.

توقف.. توقف.

لكنه لا يستطيع التوقف.. لو لم يحرر ساقه فسيظل أسير هذه العربة وسيبقى داخلها إلى أن ينزف حتى الموت أو يتجمد حتى الموت، وفي الحالتين سيخسر كل شيء.. يجب أن يحرر ساقه.. يجب أن يخرج من هنا.

لهذا توقف للحظات لهث فيها بعنف قبل أن يجذب نفسًا عميقًا ملأ به صدره بالهواء البارد، ليقبض على القائم المعدني من جديد وليبدأ جذبه بقوة أكبر هذه المرَّة، فشعر بالظلام يغزو العالم من حوله كأنما يجذب روحه من جسده.. ومن فخذه سالت الدماء غزيرة من دون أن يتحرك

القائم المعدني قيد أنملة، ثم شعر به يستجيب في النهاية في اللحظة التي أصمت فيها ضربات قلبه أذنيه.

أخرجه.. حتى لو مزقت هذه الساق، أخرجه فهو ليس جسدك، ولو فعلتها فلن تضطر إلى البقاء فيه طويلًا!

وببطء بدأ القائم المعدني الخروج من فخذه وقد غطته الدماء، ومن حول يوسف بدأت الموجودات الاختفاء واحدة تلو الأخرى وقد تعاظم الظلام في مجال رؤيته حتى ملأ المشهد تمامًا، لكنه استنفر آخر ما تبقى في جسده من طاقة ليواصل الجذب حتى انتفض جسده أخيرًا في اللحظة التي خرج فيها القائم المعدني منه.

لقد فعلها.

دماؤه الساخنة سالت على ساقه لتفقد حرارتها في لحظة، وخدر عجيب سرى في نصفه السفلي كاملًا، وألم يفوق قدرة البشر على التحمُّل تصاعد إلى رأسه حتى كاد يفقده الوعي مجددًا، لكن الظلام في مجال رؤيته أخذ ينقشع تدريجيًّا، وحين حاول تحريك ساقه اليسرى صرخت ألمًا، لكنها استجابت.

عظيم.. والآن يأتي دور الخروج من هنا وأخذ الطفل معك.

وهي مهمة ليست بسهولة التفكير فيها، فجدران العربة منطبقة عليه ومحاولة فتح الباب المجاور له عبثية.. سيخرج من النافذة الأمامية التي لم تعد هناك، وهذا سيتطلب بعض الزحف والمرونة التي لا يملكها جسده وهو سليم، فما بالك وهو مصاب ينزف؟

لكنك ستخرج.. ستتحامل على نفسك وستخرج وستأخذ الطفل معك.

وهذا ما فعله يوسف في النهاية.. وإن استغرق منه الأمر وقتًا لا يملكه.. الليلة أوشكت على الانتهاء وهو لم يصل إلى النهر بعد.. ها هو الآن يرقد على الثلج بجوار العربة وجثة الطفل ترقد بجواره، ليجد يوسف نفسه يواجه حقيقتين بالغتي الأهمية:

أولًا: عليه أن يحمل جسد الطفل وأن يسير به، وهو عاجز عن الوقوف حتى، ليتجه به إلى النهر، الذي لا بد أنه يبعد مسافةً لا بأس بها.. فكيف سيفعلها؟

ثانيًا: أين النهر؟!

إنه لا يعرف الطريق إليه، والعالم من حوله لونه أبيض لا يحمل علامات أو إشارات تدله على الطريق الصحيح.. فكيف سيعرف الاتجاه الصحيح؟

سؤالان يستلزمان إجابتين فوريتين، وهو عاجز عن التفكير في إجابات، وقد أخذت الثلوج المتساقطة تحاول دفنه بجوار العربة وجثة الطفل الذي رقد قربه يرمقه بعينين شاخصتين لا اهتمام فيهما.. إن إغراء النوم الآن لا يقاوم، لكنه يعرف أنه لو استسلم له فلن يستيقظ أبدًا في هذا العالم.. سيعود إلى زمنه وسيجد نفسه وقد خسر فرصته الوحيدة للتخلص من الشيء.

إذن لا داعي للتفكير.. وليبدأ التنفيذ.

هكذا وقف يوسف وببطء شديد مستندًا إلى حطام العربة، لتئن كل عظمة في جسده ألمًا، وليسيل المزيد من الدماء من جرح ساقه، لكنه تجاهل هذا كله وانحنى على جسد الطفل ليحمله، فاستسلم له هذا الأخير، كأنه يثق بأنه لن يتمكن من بلوغ النهر به.

لهذا اختار له الشيء هذا الجسد في هذا الزمن.. لأنه كان يعرف!

لكنه ألقى بجسد الطفل على كتفه.. ترنح للحظة حتى أوشك على السقوط.. ثم تماسك.. ثم بدأ التحرك.

لو كان الشاب يقود عربته عائدًا إلى المعبد فلا بد أن النهر في الاتجاه العكسي.. ها هي إجابة السؤال الثاني، ولو تساءل الآن عن المسافة التي تفصله عن النهر فلن يبلغه أبدًا.. لذا...

وهكذا بدأ يوسف التحرك حاملًا الطفل مخلفًا وراءه خيطًا من الدماء استقبلته الثلوج التي غطت الأرض في نهم.

إنها الليلة الثانية والعشرون.

ومهما حدث.. فستكون الليلة الأخيرة.

* * *

وحين بلغ يوسف النهر في النهاية كان قد فقد قدرته على السير.

أكمل طريقه زحفًا وهو يجر جسد الطفل وراءه، وقد أخذ جسده هو يرتجف بلا توقف.. وفي السماء بدأ اللون الوردي يتسلل وسط الأزرق منذرًا بأن الليلة أوشكت على الانتهاء.

لا يهم.. إنه لن يعيده إلى عالمه فهو لا يعرف كيف.. إنه - فقط - سيسجنه في أعماق النهر.

وعلى بعد أمتار من النهر فقد يوسف قدرته على المواصلة فاسترخى على الثلج يلهث وجسد الطفل بجواره يرمقه منتظرًا، فلم يقوَ يوسف حتى على الالتفات إليه.. سيحظى ببعض الراحة المستحقة ثم سينفذ ما أتى

من أجله.. هذا الجسد لن يمكنه المواصلة هكذا.. فقط عليه ألا يستسلم للنوم وسط الثلوج.. ليس بعد أن بلغ النهر فعلًا.

لكم تبدو هذه الليلة هادئة.

السكون واللون الأبيض يحيطان به، والسماء وردية جميلة تتساقط منها الثلوج ببطء.. والمشهد كله أشبه بإحدى ليالي «الكريسماس» في الأفلام التي اعتاد رؤيتها بمفرده، ولا شيء من حوله يشي بأنها الليلة التي قُتل فيها «راسبوتين» والتي سيسجن فيها الشيء في أعماق نهر لتكون نهايته في هذا الزمن.

العالم من حوله هادئ جميل وهو النقطة السوداء الوحيدة في صفحته البيضاء بعباءته الرمادية التي تمزقت وتلطخت بدمائه.. حتى الطفل بجواره يبدو هادئًا وديعًا لا يحمل أي أثر للشيء المسجون في أعماقه والذي لم يحاول المقاومة ولو لمرَّة واحدة طوال هذه الليلة.. ربما لأنه عاجز عن هذا، أو ربما لأنه يحمل في جعبته الورقة الرابحة ولم يلعب بها بعد.

لكنه لن يمنحه الوقت ليفعل.

الليلة ستكون النهاية.. وهو أقسم على هذا.

لهذا اعتدل جالسًا على ضفة النهر ليبدأ التلفت حوله باحثًا عن حجر ثقيل وليتذكر في هذه اللحظة أنه لم يحضر حبلًا معه ليربط به جسد الطفل بالحجر.. أين سيجد حبلًا هنا؟ لن يجد! ما الحل إذن؟ لحظات من التلفت والتفكير ثم انتبه يوسف للحل الوحيد الذي يملكه، والحلول كلها في هذه الليلة لا بدائل لها.

هكذا وقف ببطء وقد فقد شعوره كاملًا بساقه المصابة، وهكذا بدأ

نزع عباءته الرمادية ليرتجف جسده أكثر ولتبدأ الزرقة في التسلل لأطرافه على الفور.

تماسك.. تماسك.

جسدك الكهل هذا لن يتحمَّل البرودة وسيهلك في دقائق معدودة، لكنك ستكون قد تخلصت من جثة الطفل أولًا، وبعدها لن يهم إن هلك جسد العجوز هذا، فأنت ستغادره على أية حال لتعود إلى زمنك.

هكذا كان يعود إلى زمنه في كل مرَّة بأن يهلك في الزمن الذي ينتقل إليه.. وهذا هو ما سيحدث له الليلة.. حتى الآن كان قد جرب الموت بتهشيم العنق وبسهم في ظهره وبطعنة في جنبه.. والآن يأتي دور الموت تجمدًا، لكنها ستكون المرَّة الأخيرة التي يموت فيها.. على الأقل في أزمنة بعيدة لا تمت لزمنه بصلة.

وعلى الرغم من أن جسده كان يرتجف بقوة عجز عن السيطرة عليها، فإنه شقَّ عباءته نصفين متصلين لينحني بها على الطفل وليبدأ عقدها حول جسده بأصابع تجمدت حتى أصبحت صالحة للتهشم.. والآن نحتاج إلى حجر ثقيل.. بالقرب منه وجد واحدًا يصلح، فاتجه إليه وحمله بمشقة ليلقي به على صدر الطفل، قبل أن ينهار على ركبتيه بجواره، ليبدأ ربط الحجر بجسد الطفل بعباءته التي أبقته حيًّا طوال هذه الليلة، فلم يعرف هذا إلا بعد أن فقدها.

ها هو الطفل قد أصبح مستعدًّا للغرق ثم البقاء في أعماق النهر، وكل ما عليه الآن هو أن يحمله ليلقي به هناك.. لكنه لن يتمكن من حمله.. ليس بعد أن أضاف إلى وزنه الحجر الثقيل.. ليجره إذن.. ليجره وليغرق

معه في النهر لو استلزم الأمر، فكل هذه التفاصيل لم تعد تهم.. لا شيء الليلة يهم إلا التخلص من الشيء.

هنا أمسك يوسف بساق الطفل.. ارتجف.. تماسك.. ثم بدأ في جره إلى النهر.

وهنا تعالى صوت الطفل، ولأول مرَّة في هذه الليلة، ليخرج منه طبيعيًّا طفوليًّا بائسًا، يقول:

ـ أرجوك لا تقتلني!

ـ!!!

٩

«إنه جسد طفل يتيم كاد المرض يفتك به، فأتوا به إلى سيدي لينقذه لكنه لم يفعل.. أخبرني بأنه هالك لا محالة، وأن كل ما يملك فعله هو أن يستخدم جسده ليكون مقرًّا للشيء.. وهذا ما فعله.. بدأ طقوس استحضار الشيء لكنه لم يكملها».

* * *

حتى الآن قتل يوسف امرأة، وعجوزًا، وأصاب شابًّا إصابة لا بد من أنها ستودي بحياته، ثم تسبب في مقتل مراهق في عربته، لكنَّ قتلَ طفلٍ صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره بعدُ يختلف.. يختلف حتى ولو كان الشيء يحتل جسده!

حتى الآن قتل يوسف كل من قتلهم دفاعًا عن نفسه، وكان الخيار أمامه إما هم وإما هو.. وهو اختار البقاء، لكنه هذه المرَّة لا يدافع عن نفسه بل يحاول تغيير التاريخ.. تاريخه هو.

هذه المرَّة هو يفعلها باختياره وبدم بارد، وكل ما يفصله عن تنفيذ

جريمته ثلاثة أمتار أو أكثر قليلًا.. ساق الطفل بين يديه ومياه النهر الباردة أمامه.. سيلقي بالطفل فيها وسينتهي كل شيء.

ـ أرجوك يا سيدي.. إنني أشعر بالبرد.. أرجوك أعدني إلى منزلي!

يقولها الطفل فتعتصر قبضة باردة قلب يوسف في جسده، ويدير رأسه ببطء ليجد عيني الطفل الخائفتين في انتظاره تحدقان فيه وتتوسلان إليه.. لم يعد وجهه جامد الملامح، ولم تعد نظراته شاخصة وعيناه تحدقان في اللاشيء.. بل ها هو يحدق فيه مباشرة وقد ارتسم على وجهه تعبير خوف وألم قادر على غرس الرحمة في قلوب أقسى الرجال، فماذا عن قلبه هو؟

ويتلفت الطفل حوله ببراءة الدنيا كلها، قبل أن يقول:

ـ سيدي.. أين أنا؟

فلا يجيب يوسف ولا يجد في نفسه رغبة ليفعل.. فقط يفلت ساق الطفل لتسقط على الثلج، وبجواره ينهار جالسًا وقد فقد قدرته تمامًا على المواصلة.

إنه حي.. حي.

الطفل المسكين اللعين الذي سيدمر حياته كلها لاحقًا حي.

لو قتله الآن فسينجو بنفسه، لكن..

لكنَّ قتل طفل صغير لم يتجاوز العاشرة بعدُ يختلف.

ببطء يحرك الطفل ذراعيه لترتجفا بردًا، وليبدأ تحسس الحجر الثقيل على صدره، ولتخرج كلماته من فمه مختنقة متألمة:

ـ هذا الحجر.. إنني لا أستطيع التنفس!

إنه الحجر الذي سيبقيك في أعماق النهر!

ويحاول الطفل إزاحة الحجر عن صدره، لكنه يعجز عن هذا لتسترخي ذراعاه بجواره ويلهث، وقد أخذ جسده كله يرتجف.. وبجواره جلس يوسف يحدق فيه أسفل سماء تعلن وبوضوح أن الليلة الثانية والعشرين أوشكت على الانتهاء.. يحاول الطفل الاعتدال جالسًا لكنه يفشل.. يحاول إزاحة الحجر مجددًا لكنه يفشل.. يحاول فهم ما يحدث له لكنه يعجز، فتسيل الدموع من عينيه لتكوي قلب يوسف، وهو يقول:

ـ أريد العودة إلى منزلي.. أرجوك يا سيدي.. إنني خائف!

ثم يتعالى نحيبه ليجد يوسف نفسه يشعر تجاه الطفل الذي زار كوابيسه طويلًا بالشفقة.. إنه مجرد طفل يتيم وحيد.. إنه مجرد «هو» في زمن آخر، والفارق الوحيد بينهما هو أن الشيء احتل جسده، بينما هو يخوض لعبته مضطرًّا.

إنه مجرد طفل لا ذنب له في كل ما يحدث ولا يستحق أن يهلك غرقًا في مياه نهر قادر على تجميده حيًّا و.. و..

وإنه يضحك!

نحيب الطفل استحال إلى ضحكات خافتة متقطعة، أخذت تتعالى تدريجيًّا حتى جلجلت عالية قاسية بجواره، فانتفض يوسف وحدق فيه ذاهلًا، ليجد أن ملامح الطفل اكتسبت تعبيرًا عابثًا كصوته الذي خرج منه إذ قال:

ـ أيها الأحمق.. أنت لن تستطيع قتلي.

فشهق يوسف بمزيج من الذهول والخوف وقد أدرك على الفور من يحدثه.. إنه هو.. إنه الشيء!

ـ أتظن أنك قادر على التخلص مني؟ كثيرون قبلك حاولوا فعلها.. وفي النهاية كل يوم في أعمارهم أضاف المزيد إلى عمري.. إنني باقٍ أيها الأحمق.. باقٍ حتى النهاية.

ثم جلجلت ضحكاته العابثة من جديد لينتفض لها جسد يوسف هلعًا، وليبدأ اليأس التسلل إلى قلبه.

إنه مُحق!

الشيء مُحق!

لن يستطيع الانتصار عليه أبدًا مهما حاول.. في النهاية سيهلك، وما تبقى له من أيام في حياته البائسة سيكون من نصيب الشيء، وبها سيبقى ليواصل لعبته مع آخرين سيحاولون القضاء عليه كما حاول هو.

لقد حاول.. وفشل!

ـ هل أخبرتك كيف قتلت الدكتورة ليلى عائلتها؟

يقولها الشيء في جسد الطفل بصوته العابث وباستمتاع لا حد له.. كأنه يروي له دعابة!

ـ عبثت بعقلها طويلًا حين حاولت علاجي حتى كشفت لها عن وجودي.. حينها فقدت صوابها تمامًا وأدركت أنها هالكة لا محالة.. لكن الحمقاء كانت تعرف أنني لن أترك عائلتها فأرادت أن تنقذهم

مني بأن تقتلهم هي أولًا .. كانت تظن أنها بهذا تحميهم مني.. هذا ما كانت تظنه.

* * *

ما دامت الدكتورة ليلى تعيش بمفردها؛ فأين زوجها وطفلاها، الذين يبتسمون معها في هذه الصورة التي ترقد في إطار غطته الأتربة؟

* * *

- ليلتها بدأت بزوجها.. كان غافيًا في فراشه تمامًا كما كنت أنا حين حاول الدكتور مجدي قتلي.. وبجواره وقفت هي تبكي تقبض على ذلك التمثال الثقيل، وقد أدركت ما عليها فعله.. لكنها كانت تحبه.. الحمقاء كانت تحب زوجها وبجواره وقفت ساعات طويلة عاجزة عن فعلها، فهي كانت تعرف أنها لو فعلتها فسيأتي دور أطفالها.. لكنني كنت معها.. كنت أعرف أنها تحتاج إلى دفعة صغيرة لتبدأ، فمنحتها أنا هذه الدفعة.. أخبرتها بأنها لو قتلتهم.. ولو نفذت كل ما أطلبه منها بعدها.. فسأعيدهم لها حين ينتهي هذا كله.. هنا رفعت هي التمثال الثقيل وهوت به على رأسه بلا تردد.. وبعدها...

ثم جلجلت الضحكة العابثة من جديد، فلم ينتفض يوسف هذه المرَّة، وإن اكتنفه شعور عميق بالغثيان.. لقد رأى جثة الزوج في قبو منزل الدكتورة ليلى ويعرف ما الذي حدث بعدها.. لكن الشيء واصل رواية دعابته:

- لم يقاومها زوجها ليلتها.. لم يجد الوقت ليفعل.. تهشم رأسه من دون أن يعرف حتى ما أصابه.. وبجواره انهارت الحمقاء تصرخ وتبكي وتحاول الاعتذار إليه كأنه سيقبل اعتذارها.. لكن الجزء

الطريف لم يبدأ بعد.. ففي اللحظة التي وقفت فيها الدكتورة ليلى مجددًا لتواصل ما بدأته.. وجدت أن طفلها يقف عند باب الغرفة يحدق في جثة أبيه.

* * *

- إذن على الأقل أجيبي عن هذا السؤال: أين زوجك وطفلاك؟

* * *

اللون الوردي في السماء يشتد حمرة، ويواصل صوت الشيء العابث حكايته، فيستمع يوسف وقد أخذ يترنح لفرط غثيانه:

- وقفت الدكتورة ليلى ذاهلة تحدق في طفلها الذي كان يقف حاملًا دميته ودماء أبيه تغطيها.. وكانت تعرف أنه دوره.. وهو أيضًا شعر بهذا فانطلق هاربًا ليختبئ منها.. نادته، فلم يستجب.. حاولت أن تشرح له أنها تحاول إنقاذه فلم يصدقها.. وهكذا لم تجد أمامها إلا أن تبحث عنه لتقتله.. وأنت تعرف كيف كانت الدكتورة ليلى تبحث عمَّن تريد قتلهم.. أليس كذلك؟

* * *

- يوووووووووسف.. أين أااااانت؟

* * *

- في النهاية عثرت الدكتورة ليلى على طفلها.. قادها نحيبه إليه فوجدته يختبئ في القبو حيث عثرت عليه.. لكنها لم تهشم رأسه.. لم تتحمَّل أن تفعلها، بل جلست إلى جواره هناك في ظلام القبو تحاول تهدئته

حتى توقف عن البكاء لتبدأ في كتم أنفاسه حتى توقفت، وإلى الأبد.. سكن طفلها ثم أتى دور طفلتها و...

ـ كفى!

صرخ يوسف وقد فقد قدرته على التحمُّل، وفي أعماقه تصاعدت طاقة ولَّدها غضب جارف استبد به، فهب واقفًا وقد تلاشت آلام جسده كلها، ليواجه الطفل الذي اندلعت الضحكات العابثة من فمه تتحداه.

ـ *أنت لن تقتلني يا عزيزي.. لعبتنا لم تنتهِ بعد.*

ـ بل انتهت.. نهايتك ستكون في هذا الزمن.. لقد حصلت على قطعتي من الحقيقة، والآن يأتي دورك أنت لتدفع الثمن.

قالها يوسف ثم قبض على ساق الطفل، ليبدأ جرَّه إلى النهر وقد قرر أنه سيُغرقه ولو كان هذا آخر ما سيفعله في حياته.. ومن الطفل تصاعد صوته بريئًا خائفًا هذه المرَّة وقد استرد نبرته الطبيعية:

ـ أرجوك لا تقتلني.. أرجوووك.. إنني لم أفعل شيئًا!

لكن من قال إن هذا هو الطفل حقًّا؟

ألم يكن الشيء في جسد «إليزابث باثوري» طوال الوقت وكان يخدعه؟

إنه لا يحتل إلا أجساد الموتى، وهذا لا يعني إلا أن الطفل قد هلك وقبل أن يبدأ «راسبوتين» طقوسه، وفي هذه الحالة هو لن يقتل طفلًا لم يتجاوز العاشرة من عمره بعدُ كما كان يخشى.. بل هو سيقضي على الشيء.

ـ أرجوك إنني خاااااائف.. إنني... إنني...

ثم تندلع الضحكات العابثة من حلق الطفل لتنتفض الأشجار القريبة من النهر ولتتساقط منها الثلوج.. لكنه لا يقاوم.. كدمية «ماريونت» تمزقت خيوطها، ترك الطفل نفسه ليوسف يجذبه صوب النهر، حتى بلغه يوسف أخيرًا ليخطو خطواته الأولى فيه، وليستعيد كل آلام جسده دفعة واحدة مع البرودة الهائلة التي تصاعدت من قدمه حتى رأسه.

إنه لن يخرج من هذا النهر حيًّا.. لو واصل طريقه فسيغرق هو الآخر أو سيتجمد، وفي الحالتين لن تكون أمامه أي فرصة للعودة.

لكن لا يهم.

إنه لا يريد العودة.

إنه ـ فقط ـ يريد التخلص من الشيء.

وبإصرار منحته له رغبة عدم البقاء على قيد الحياة واصل يوسف خطواته في مياه النهر جاذبًا جسد الطفل والحجر الثقيل الرابض على صدره، حتى فقد يوسف إحساسه بالأرض من أسفله، ليدفع جسده إلى الأمام ضاربًا المياه المثلجة بذراعه الحرة.

ـإنني أشعر بالبرد.. المياه باردة يا سيدي.. أرجوك أعدني إلى منزلي!

ثم الضحكات العابثة، ثم النحيب، ثم صوت طفل يحاول التنفس وقد بدأ رأسه يغوص في الماء ليبدأ السعال.. لكن يوسف لم يتوقف لحظة، ولم يُصغ لهذا كله.. خيوط الفجر الأولى تشق السماء معلنة اللحظات الأخيرة في الليلة الثانية والعشرين، وهي لحظات تكفي يوسف تمامًا.

وببطء بدأ يوسف يفقد الإحساس بجسده كله لفرط البرودة، لكنه كان قد اقترب من منتصف النهر وساق الطفل لا تزال في يده، فضرب الماء بذراعه الحرة عدة مرات، قبل أن تخور قواه أخيرًا، فالتفت إلى الطفل الذي حاول تحريك ذراعيه مقاومًا وقد تحولت صرخاته أسفل مياه النهر إلى كرات من الهواء تجمدت على سطحه، ليبتسم قائلًا:

ـ هكذا تنتهي فصول اللعبة.

ثم أفلت ساق الطفل ليبدأ جسده الضئيل الغوص إلى أعماق النهر حتى ابتلعه ظلامه من دون أن يجد فرصة للإجابة.

لقد فعلها.. فعلها!

هنا سيرقد الشيء في هذا الجسد، وهنا سيبقى ولن يعثر عليه الدكتور مجدي أبدًا، وهنا وفي هذه اللحظة تحديدًا تنتهي مأساة يوسف وإلى الأبد.

صحيح أنه فقد قدرته تمامًا على الحركة، وصحيح أنه بدأ يشعر بجسده يغوص هو الآخر في المياه التي توشك على إحالته إلى تمثال من الثلج، لكنه لم يعد يبالي بهذا كله.

لقد فعلها.

وكل ما عليه الآن هو أن يستسلم للموت ليعود إلى زمنه وقد انتصر.

لهذا أغمض يوسف عينيه، وترك جسده يغوص ببطء وقد بدأ يشعر بالتصلب يغزو أطرافه.. لكنه قبل أن يستسلم تمامًا للظلام الذي أحاط به.. وبسرعة.. ابتسم.

* * *

ثم انهالت تلك الصفعة على وجهه لتعيده إلى عالم الأحياء، فشهق ذاهلًا وفتح عينيه ليجد المفاجأة الأخيرة في هذه الليلة في انتظاره.

فأمامه كانت ابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ تنحني عليه وقد أخذ جسدها المبتل يرتجف بقوة، وإن ارتسم على وجهها غضب ألقى الرعب في قلبه حين رآه.. إنه لم يعد إلى زمنه بعد! إنه لا يزال هنا.. لكن.. لماذا؟!

ـ أين الطفل؟

صرخت بها المرأة ثائرة، فحاول هو أن يجيبها لكنه لم يستطع.. لسانه الذي تجمد في حلقه أبى أن يتحرك، وأطرافه الأربعة رقدت حوله وقد اكتسبت زرقة مخيفة، ليدرك يوسف على الفور أنها لم تَعُدْ صالحة للاستخدام حتى لو تمكن من إذابتها لاحقًا.. وعلى وجهه هوت صفعة أشد قسوة، قبل أن تصرخ المرأة مكررة:

ـ أين الطفل؟

منحت صفعتها وجهه بعض السخونة الكافية ليحرك فمه محاولًا الإجابة، فخرجت الكلمات منه متحشرجة تحمل آخر ما تبقى في صدره من حياة:

ـ إن.. إنه.. حـ.. حيث لن.. يعثر عليه.. أحد.

فتبدت الصدمة في ملامح من يفترض أنها ابنته، قبل أن تنقض عليه صارخة بمزيج من الغضب والكراهية:

ـ أيها الأحمق.. لقد أفسدت كل شيء.. كل شيء!

لكنه لم يفعل! لقد تخلص من الشيء!

ـ لقد أضعت فرصتنا الوحيدة للتخلص منه.. سيدي كان يريد إعادته إلى عالمه، وأنت أفسدت كل شيء.. كل شيء... هكذا لن يستطيع أحد فعلها إلى أن تأتي الليلة الثالثة والعشرون.. بعد ستةٍ وتسعين عامًا أيها الأحمق!

فيحدق فيها يوسف ذاهلًا عاجزًا عن التصديق.

كان يحاول إعادته إلى عالمه!

هذا ما كان عليه فعله، لكنه بدلًا من هذا...

وتهوِي المرأة على وجهه بصفعة ثالثة فيشعر يوسف بها تهوِي على روحه مباشرة، ومن عينيه تسيل دموع الألم والذهول، ليحدق في السماء من فوقه عاجزًا عن النطق.. لقد توقفت الثلوج عن التساقط، وها هو فجر يوم جديد يبدأ حاملًا معه بعض الدفء الذي لن يشعر به أبدًا.

ـ لقد خنت سيدي.. ومن يَخُنْ سيدي لا يستحق الحياة.. حتى لو كان أبي!

ومن عباءتها تخرج المرأة خنجرًا صغيرًا لكنه يصلح تمامًا لما أدرك يوسف أنها ستفعله، فأغمض عينيه بقوة تاركًا دموعه تتجمد على وجهه.. إنها ابنته في هذا الزمن.. لكنه يستحق!

وكان آخر ما رآه يوسف في هذا الزمن الخنجر وقد مرَّ بسرعة على عنقه، لكنه لم يشعر بالألم.

لم يشعر بأي شيء على الإطلاق.

١٠

وحين فتح يوسف عينيه وجد أن كل شيء تركه في انتظاره كما هو.

في سيارته بجوار سوسن، وفي المقابر الباردة، عاد يوسف ليجد أنه لم يغير تاريخه أو حاضره، ولم يسترد ما فقده من أعضاء جسده، فأدرك على الفور أن خطته فشلت، وأن اللعبة لم تنتهِ بعد... تمامًا كما وعده الشيء!

حاول أن يصرخ غضبًا معترضًا ليشعر بألم حاد في عنقه قبل أن تنتابه نوبة سعال حادة تناثرت معها الدماء من بين شفتيه لتستقر على زجاج سيارته أمامه، فشهقت سوسن بجواره ذاهلة وقد فوجئت به يسترد وعيه في لحظة ليقبض على عنقه بيديه كأنه يختنق، قبل أن يبدأ سعاله الدموي هذا.. لكن يوسف لم يبالِ بألمه ولا بدمائه، ولم يبالِ بفزع سوسن ولا بذهولها إذ صاحت:

ـ يوسف.. ما الذي أصابك؟!

ففي أعماق يوسف تصاعدت حقيقة واحدة غطت على كل ما يشعر به في جسده ومن حوله.

لقد فشل!

التاريخ لم يتغير، ولم يتمكن من التخلص من الشيء بعد كل ما خاضه في زمن «راسبوتين».. ها هو الآن حيث ترك جسده آخر مرَّة، وكل ما خرج به من هذا الفصل من فصول لعبة الشيء هو قطعة بائسة من الحقيقة، تقول إنه كان بإمكانه أن يعيد الشيء إلى عالمه في الليلة الثانية والعشرين، لكنه أضاع الفرصة بحماقته.

كيف كان سيعيده؟ لن يعرف أبدًا، فابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ ذبحته لتعيده إلى عالمه حيث سيواصل مأساته حتى النهاية.. ربما كان «راسبوتين» يعرف كيف سيعيده، ولو انتظر فلربما أخبرته ابنته بطقوس التخلص من الشيء، لكنه لم ينتظر.

لم ينتظر وأنقذ الشيء وهو يظن أنه ينقذ نفسه.

لقد خدعه الشيء ثانية.. والآن...

توقف يوسف عن السعال أخيرًا ليبدأ اللهاث، أمام نظرات سوسن المذعورة التي انتظرت حتى توقف، لتبدأ:

ـ يوسف.. أنا أعلم أين هو.

ثم ارتجف جسدها وقد أخذت تسترجع رسالته، قائلة:

ـ إنه.. في منزل الدكتور مجدي.

قالتها فالتفت إليها يوسف ذاهلًا محاولًا أن يطلب منها أن تشرح أكثر، لكنه لم يستطع.

سؤاله ولد في عقله ومات على شفتيه من دون أن يخرج من بينهما،

فتعاظم الذهول على وجهه أكثر فأكثر، ثم مدَّ أصابعه ليتحسس عنقه الذي لم يعد يؤلمه، ليبدأ استيعاب ما أصابه وببطء.

في كل مرَّة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسآخذ منك قطعة.

وهذه المرَّة أخذ الشيء منه صوته!

١١

لم تستغرق سوسن وقتًا طويلًا في فهم ما أصاب يوسف هذه المرَّة.

بعد كل ما مرت به، وبعد كل ما رأته وسمعته، لم يعد المنطق يشكل حاجزًا بين سوسن وبين فهمها ما حدث ليوسف.

لكن هذا لم يمنعها من الذهول والتعاطف وهي ترى يوسف أمامها يجاهد ليخرج من فمه أي صوت مسموع، من دون أن يتمكن من هذا.. حاول أن يصرخ.. أن يشرح.. أن يبكي.. حاول حتى فقد الأمل ليجلس في النهاية مستندًا بظهره إلى أحد شواهد المقابر، فتركته سوسن يستجمع شتات نفسه حتى ساعات الصباح الأولى، قبل أن تمنحه ورقة وقلمًا كأنها تطلب منه أن يكتب لها ما حدث، فحكى لها يوسف كل ما مرَّ به في زمن «راسبوتين» في أسطر مختصرة، قرأتها سوسن ليتعاظم ذهولها ولتجلس بجواره عاجزة عن التعليق.

لقد خاض فصلًا جديدًا من اللعبة.. وخسر!

لكن ما عاد به يوسف من حقيقة الشيء يستحق الاهتمام وبشدة..

إن هناك طريقة للتخلص من الشيء.. هناك طريقة، لكنها عاجزة الآن عن التفكير فيها، وربما لو أتيح لها بعض الوقت لوجدت هذه الطريقة ولوضعتها محل التنفيذ، لكن.. ليس الآن.

الآن وقت الذهول.. واستيعاب الصدمة.. والصمت.

لكن في النهاية وجدت سوسن أن صمتها لن يضيف إلى الموقف شيئًا، فبدأت تحكي:

ـ لقد زارني في حلمي.

فلم يجبها يوسف، ولم يكن ليتمكن حتى لو حاول.. فقط سدد إليها عينين شاردتين دفعتاها للمواصلة:

ـ كنت نائمة بجوارك لكني استيقظت لأجد نفسي هناك.. في منزل الدكتور مجدي.. وجدتني أستيقظ في فراشه، ولسبب ما وجدتني أعرف أين أنا على الرغم من أنني لم أرَ غرفة نومه قطُّ.. عرفت أنها غرفة نومه ورأيت صورته فيها لكنه لم يكن هناك.. لم يكن في انتظاري سوى البرد والظلام وذلك الصوت الأنثوي يتعالى من بعيد يردد أغنية أطفال بصوت مألوف فعرفت أن عليَّ أن أتجه إلى مصدره.. لكني.. لكني كنت خائفة.

وارتجفت سوسن ثم تمالكت نفسها لتواصل:

ـ كان منزله مظلمًا.. المكان الوحيد الذي كان مُضاءً كان غرفة ابنه، ومن هناك كان الصوت يواصل ترديد الأغنية من دون أن يتوقف ولو للحظة واحدة.. وحين اقتربت من الغرفة ميَّزت صاحبة الصوت وأدركت أنها زوجة الدكتور مجدي.. لقد التقيتها أكثر من مرَّة

وأعرف صوتها.. لكنني حين سمعتها تنشد تلك الأغنية داخل الغرفة استبد بي الخوف أكثر فأكثر، وداهمتني رغبة عنيفة في أن أهرب وأن أبتعد عنه وإلى أقصى حدٍّ ممكن.. لكنَّ شيئًا ما في صوتها دفعني إلى الهرب وإلى الاقتراب في الوقت ذاته... ترددت طويلًا.. وفي النهاية وجدتني أخطو داخل غرفة الطفل في منزل الدكتور مجدي لأجد زوجته في انتظاري.. وحين رأيتها عرفت بعد فوات الأوان أنه كان عليَّ أن أهرب.

رأت الترقب في عيني يوسف، وحرك فمه ليطلب منها أن تواصل بلا صوت، فواصلت:

ـ كانت تجلس هناك على أرض الغرفة.. وكانت ترتدي منامتها مولية ظهرها إليَّ وقد أخذت تهز جذعها بانتظام مواصلة ترديد أغنيتها.. وعلى ساقيها كان الطفل يرقد جامدًا وكأنها تهدهده، لكنه لم يكن نائمًا.. حين دخلتُ الغرفة أدار رأسه تجاهي ليرمقني بعينيه المتوهجتين.. وابتسم.. لم أكن قد أصدرت أدنى صوت حين دخلت الغرفة، لكنه شعر بي والتفت إليَّ لتتوقف زوجة الدكتور مجدي عن ترديد أغنيتها وعن الحركة، وكأن دورها قد انتهى.. لقد دخلت الغرفة ولم يعد هناك مجال للتراجع.. لا أعرف لماذا ناديتها حينها، لكنني فعلت.. وحينها التفتت هي إليَّ ببطء و.. و..

وارتجف جسد سوسن ثانية، فقبض يوسف على يدها محاولًا أن يطمئنها، فلم يتوقف جسدها عن الارتجاف وإن واصلت:

ـ لقد كانت ميتة يا يوسف.. زوجة الدكتور مجدي كانت ميتة وما التفت إليَّ في الحلم كان جثتها.. جثة متحللة اسودَّ لونها،

ولم يعد في وجهها عينان أو فم تنشد به تلك الأغنية الطفولية التي كانت ترددها.. جثة رأيتها فصرخت لينفجر الشيء في جسد الطفل بضحكته العابثة.

أخذت الدموع تسيل من عينيها، وارتجف صوتها هذه المرَّة:

ـ بعدها وجدتُ الظلام يحيط بي من كل صوب حتى فقدت قدرتي على الرؤية تمامًا.. وفي اللحظة التالية استيقظت لأجد نفسي جوارك من جديد.. حاولت إيقاظك لكنك سعلت فجأة وتناثرت الدماء من فمك و.. و..

ولم تُكمل.. فما حدث بعدها يعرفه يوسف جيدًا.. فقط تركها تمسح دموعها وتحاول السيطرة على نفسها وليتفرغ هو للتفكير في رسالة الشيء لهما.

لقد اقتربت اللعبة من النهاية إذن.

لقد خسر كل فصول اللعبة التي خاضها حتى الآن، ولم يعرف طقوس القضاء على الشيء، ولم يعد يملك حتى مجرد أمل في الخروج من هذه اللعبة حيًّا.. لكن النهاية اقتربت.

نهايتهما!

ـ إنه هناك يا يوسف.. لكن.. هل سنذهب إليه؟

سألته سوسن فلم يجبها ولم يحاول حتى.. ببطء أدار رأسه ليعود إلى شواهد القبور وليعود الشرود إلى عينيه، فصمتت هي منتظرة قراره.. إنه يعرف ما الذي ينتظرهما في منزل الدكتور مجدي، فلقد رآه حين دخله

مع عصام الذي أكد له أن منزل الدكتور مجدي لم يعد منزلًا، بل هو مسرح الجريمة.

يعرف الكابوس العالق في جدار غرفة ابن الدكتور مجدي ـ الذي هو ليس ابنه ـ ويعرف تمامًا ما الذي سيحدث لو عاد إلى تلك الغرفة مرَّة أخرى.. إن رسالة الشيء واضحة.. إنه في انتظارهما هناك، ويوسف يعرف أنه على أي حال سيجده وإن كان لا يعرف ما الذي سيحدث بعدها.

لكن اللعبة أوشكت على النهاية.

هو يشعر بهذا أيضًا، ويشعر بأنها لن تنتهي لصالحه أو لصالحها.

لكنه على الرغم من هذا تنهد.. استند إلى شاهد القبر ليقف ببطء.. ثم أشار إلى سوسن إشارة لا تحتاج إلى تفسير، فحدقت هي فيه خائفة للحظة، قبل أن يبدو عليها الاستسلام لمصيرها لتقف هي الأخرى ولتتبادل معه نظرة صامتة طويلة.

إنهما لا يملكان الخيار.

اللعبة ستستمر على الرغم منهما، والفصل الجديد من اللعبة ينتظرهما هناك.

في منزل الدكتور مجدي.

ومن دون أن يتبادلا المزيد من الصمت استدار يوسف متجهًا إلى سيارته، فنكست سوسن رأسها ولحقت به إلى داخلها.

ثم انطلقا إلى حيث ينتظرهما الشيء.

* * *

وفي الطريق إلى منزل مجدي أخذت سوسن تسترجع ما رواه لها يوسف، محاولة البحث عن إجابات وسط كم الأسئلة التي غرقا فيها.

الشيء أتى إلينا من عالمه في الليلة التي نفذت فيها المرأة في الغابة طقوس استدعائه.. كانت هذه هي أول ليلة ذابت فيها الحواجز بين عالمنا وعالمه وفيها بدأ كل شيء.. هذه الليلة تتكرر كل ستة وتسعين عامًا كما عرف «راسبوتين» وكما أخبر تابعيه.. الليلة التي انتقل فيها يوسف إلى زمن «راسبوتين» كانت ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ١٩١٦م، وكانت الليلة الثانية والعشرين.

هذا يعني أن الليلة الثالثة والعشرين التالية ستكون ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ٢٠١٢.. تحديدًا بعد يومين اثنين من الآن!

لهذا أخبرهما الشيء بأن اللعبة أوشكت على الانتهاء، ففي الليلة الثالثة والعشرين سينتهي كل شيء.

«راسبوتين» كان يحاول إعادته إلى عالمه.. لكن كيف؟

كيف كان سيفعلها؟

إنها لم تعثر على طقوس القضاء على الشيء حتى الآن، لا في الحاضر ولا في التاريخ، وبالتالي فالحل الوحيد أمامهما الآن هو أن يعيدا الشيء إلى عالمه.. لكن.. كيف؟!

ولماذا ينتظر الشيء هذه الليلة؟

في هذه الليلة ستذوب الحواجز بين عالمنا وعالمه.. فما الذي سيفعله الشيء حينها؟

ولماذا منحهما المفتاحين؟

إنها تشعر بأن السؤالين مرتبطان بشكل ما، لكنها عاجزة تمامًا عن رؤية الرابط بينهما.. كل ما تملكه هو إحساسها، وهي تعرف أن إحساس الأنثى لا يكذب ولا يخطئ إلا نادرًا.

والعجيب أن يوسف ـ على الرغم من أنه لم يتبادل معها حرفًا واحدًا طيلة الطريق وكأنه كان يستطيع ! ـ كان يفكر في السؤال ذاته في الوقت ذاته.

لماذا منحهما الشيء المفتاحين؟

وسط كل الأسئلة التي مرَّا بها حتى الآن أصبح هذا السؤال هو الأهم والأقرب إلى تفسير كل ما حدث وما سيحدث.. لكن يا ترى هل سيمنحهما الشيء إجابة هذا السؤال في منزل الدكتور مجدي؟

لو كانا سيخسران على أي حال، فلماذا لا يمنحهما إجابة واحدة عن سؤال وحيد؟

هو أيضًا أجرى العملية الحسابية في رأسه، وهو الآن يعرف مثل سوسن أن نهاية كل شيء ستكون في الليلة الثالثة والعشرين، وهذا يعني أن كل ما تبقى أمامهما يومان اثنان لا أكثر، وبعدها...

ـ وبعدها لن يشكل ما سيحدث فارقًا، فلم يعد في جسدك ما يصلح لأخذه لتبقى بعدها على قيد الحياة.

قالها سوء حظه في رأسه فهز يوسف رأسه مؤمِّنًا على قوله.

نعم.. أيًا ما كان سيحدث فالفصل التالي من اللعبة.. سيكون الفصل الأخير.

* * *

كان الظلام والبرودة في انتظارهما هناك، تمامًا كما وجدتهما سوسن في حلمها.

وفي منزل الدكتور مجدي اشتم يوسف الرائحة ذاتها التي اشتمها عصام من قبله هنا، وفي منزل الدكتورة ليلى، لكنه لم يبالِ بها، فقد كان يعرف أن ما سيحدث الآن أكثر أهمية من هذه الرائحة، وأن ما ينتظرهما في غرفة الطفل أشد هولًا.

و في رأس يوسف تعالى صوت سوء حظه يقول:

ـ يوسف.. أرجوك لا تدخل هذه الغرفة!

فتجاهله يوسف، وقد أدرك أنه سيفعلها على أي حال.. لقد أتى إلى هنا ولم يعد يفصل بينه وبين الشيء إلا باب غرفته، وتمامًا كما حدث لسوسن في حلمها.. لم يعد هناك مجال للتراجع.

أما سوسن فأخذ جسدها يرتجف بقوة وقد وجدت نفسها تعيش حلمها من جديد، ولكن على أرض الواقع هذه المرَّة.. صحيح أن صوت زوجة الدكتور مجدي لم يكن يتعالى من داخل الغرفة يردد أغنية الأطفال تلك، وصحيح أنها ليست بمفردها هذه المرَّة، لكنها كانت تعرف أنه هناك.

الشيء هناك داخل الغرفة ينتظرهما ليواصل معهما اللعبة التي أوشكت على النهاية.

التفت إليها يوسف صامتًا وفي عينيه سؤال: هل سندخل الآن؟

فأجابته هي بهزة من رأسها متحاشية النظر إليه.. إنها خائفة مثله، لكن لا داعي لأن تريه خوفها هذا، فهو لا يملك لها شيئًا الآن، ومخرجها

الوحيد من هذا كله هو أن تقتله، وهي تعرف أنها لن تفعلها.. لهذا اكتفت بهز رأسها، ولهذا اكتفى يوسف بردها هذا ليتجه إلى باب غرفة الطفل في منزل الدكتور مجدي، وليمسك بمقبضه ويتذكر تلك اللحظة التي فتح فيها عصام باب الغرفة أول مرَّة وما حدث له.

ـ لكنك لن تفقد الوعي هذه المرَّة.. مع الأسف لن تفعل.

قالها سوء حظه في رأسه فتجاهله يوسف ثانية، ومنح سوسن نظرة أخيرة فتحاشتها هي وقد بدا عليها الاستسلام التام.

ثم فتح يوسف باب الغرفة.

* * *

ـ والآن، أصغِ إليَّ جيدًا.. ما ستراه الآن غير صالح للنشر مهما كان السبب.. أكرر.. مهما كان السبب.. كل ما ستراه في الداخل ستحتفظ به لنفسك، ثم يجب أن تنساه إلى الأبد.. يعلم الله أنني ما زلت أحاول نسيانه، وأنه لولا واجبي لما دخلت معك الآن لأراه من جديد.. لكن يجب أن أدخل معك.. يجب.. فربما لن تتحمل ما ستراه.

* * *

كان كل شيء كما تركه يوسف في المرَّة الوحيدة التي دخل فيها الغرفة سابقًا.

الفراش الصغير.. خزانة الملابس.. صندوق الألعاب الذي لم يستخدم قطُّ.. والدماء الجافة التي كانت تغطي كل شيء.. وكان وجه الطفل لا يزال هناك في مكانه مغروسًا في جدار الغرفة ينتظرهما.. ويبتسم!

أمامه توقفت سوسن ذاهلة ترتجف، فتوقع يوسف أنها ستفقد وعيها في أي لحظة كما فعل هو، لكنها لم تفقده.. بعد كل ما رأته سوسن لم يعد هناك ما يكفي لإفقادها الوعي، لكن ابتسامة وجه الطفل في الجدار أفقدتها القدرة على النطق، لتشاركه صمته الإجباري، ولتقف بجواره تتمنى أن يكون ما تراه الآن كابوسًا جديدًا ستستيقظ منه في أي لحظة.

- لكنه ليس كابوسًا.

هكذا بدأ الشيء محركًا وجه الطفل في الجدار على الرغم من استحالة هذا، لكن صوته العابث ذكَّر يوسف وسوسن بأنه لم تعد هناك مستحيلات.. هناك هما.. والشيء.

- إنها أول مرَّة نجتمع فيها معًا.. لكنها لن تكون المرَّة الأخيرة.

قالها الشيء، فتحول ذهول يوسف إلى كراهية أطلت من عينيه، فاتسعت لها ابتسامة وجه الطفل في الجدار، الذي تعالى صوته العابث يقول:

- أتريد قول شيء ما؟ أعتقد أنك لن تستطيع يا عزيزي.. ليس الآن.

ثم انفجر الوجه في الجدار بالضحك لتنتفض جدران الغرفة ولتصرخ سوسن رغمًا عنها، بينما قاوم يوسف رغبة عنيفة داهمته بأن يتجه إلى الوجه ليلكمه.. وفي النهاية توقفت الضحكات ليواصل الصوت العابث:

- تريدان أن تفهما.. أليس كذلك؟ أنت تريد أن تفهم كيف وصلت إلى هنا على الرغم من أنك ألقيت بي في النهر.. لقد كنت تتوقع أنك ستتخلص مني بهذه الطريقة الساذجة.. لكنك كنت مخطئًا يا عزيزي.

ثم أدار الوجه في الجدار عينيه إلى سوسن، ليواصل:

ـ *وأنت كنتِ تملكين الخيار.. كان يمكنك أن تقتليه لتنقذي والديك.. لكنكِ اخترتِ أن تواصلي اللعبة.. ولهذا أتيتُ بكما هنا.. لنواصل اللعبة.*

ثم ماتت الابتسامة على شفتي الوجه في الجدار، قبل أن يواصل بصوت حمل بعض الجدية للمرَّة الأولى:

ـ *لقد اقتربت النهاية.. ستفهمان كل شيء وستحصلان على إجابات لكل أسئلتكما.. لكنكما ستدفعان الثمن.. احتفظا بالمفتاحين معكما فسيأتي دورهما قريبًا.*

ثم استعاد الصوت نبرته العابثة ليختم:

ـ *والآن.. استعدًا.. فهناك مفاجأة سارة في انتظاركما.*

هنا انتزعت سوسن نفسها من ذهولها وهلعها لتصيح:

ـ ما الذي تريده منا؟

فلم يجبها الشيء، وفي الوجه في الجدار ساد جمود عجيب يعلن أن الشيء غادره تاركًا لهما الصمت والحيرة.. كررت سوسن صارخة:

ـ ما الذي تريده منا؟

فتعالى صوتٌ مِن ورائهما مباشرة ليجيب:

ـ أريدكما.

فانتفضت سوسن صارخة، والتفتت إلى مصدر الصوت في اللحظة

التي ارتسمت فيها الصدمة على وجه يوسف، وهو يحدق في عصام الذي خطا داخلًا ورجاله مِن ورائه، معلنًا:

ـ كنت أعرف أنكما ستعودان إلى هنا إن عاجلًا أو آجلًا.. والآن...

ثم وقف عصام وعقد ذراعيه أمام صدره، ليردف بثقة من ربح معركته:

ـ حان وقت دفع الثمن.

١٢

دائمًا ما يعود المجرم إلى مسرح الجريمة.

قرأ عصام هذه القاعدة في إحدى الروايات البوليسية الساذجة في صباه ولم يصدقها حينها، ولكنه بعد أن تخرَّج في كلية الشرطة، ليبدأ العمل كأحد أبطال تلك الروايات، وجد أن الحياة أكثر سذاجة من كل الروايات التي قرأها في حياته، وأن المجرم دائمًا ما يعود - حقًّا - إلى مسرح الجريمة!

لماذا يعود؟ بعضهم يعود ليطمئن على أنه لم يترك دليلًا يقود إليه.. وبعضهم يعود لأنه شعر بالندم.. وبعضهم يعود لأنه لم يُنهِ جريمته كاملة بعد.. لكن أغلبهم يعودون لأنهم أكثر سذاجة من الحياة ذاتها، وبفضل سذاجتهم هذه تمكَّن عصام من تحقيق بعض النجاح في حياته العملية.. لا لأنه يتمتع بذكاء خاص أو موهبة نادرة، وليس لأنه يجتهد أكثر من سواه، بل - وبمنتهى البساطة - لأن أغلب من يرتكبون الجرائم حمقى، وحماقاتهم هذه هي ما تقودهم إليه.

ولأن الحياة ساذجة، والمجرمين حمقى، قرر عصام أن يمارس دوره في هذه الحياة كأبطال الروايات التي كان يقرأها، وأن يتحول وبإرادته

الحرة إلى ما يطلق عليه النموذج التقليدي لرجال الشرطة.. الصوت العالي.. النبرة الآمرة.. الغطرسة غير المبررة.. والنظارة الشمسية الفاخرة التي يرتديها ليلَ نهارَ ليخفي بها الغباء الذي يطل من عينيه كلما تعرض إلى تحدٍّ حقيقي.

وقضيتا سوسن ويوسف كانتا أكبر تحديين واجههما في حياته.

الأولى قتلت المهندس سامح واختفت ثم ظهرت ليقتلها هو ـ قبل أن يتضح له أنها لم تمت لحسن حظه. والثاني قتل الدكتورة ليلى.. وخدعه!

لهذا راقب عصام منازل الدكتور مجدي والمهندس سامح والدكتورة ليلى طويلًا على أمل أن يظهر يوسف، فلم يخيب هذا الأخير ظنه، وبحماقة لا مبرر لها عاد ومعه سوسن.. و..

والآن حان وقت دفع الثمن.

في مكتبه أشعل عصام سيجارة وأخذ يتخيل ما سيحدث بعد قليل، لتتراقص على فمه ابتسامة استمتاع، فالآن ستبدأ مرحلة الاستجواب وهي ـ بالنسبة إليه ـ الجزء الوحيد الممتع في عمله.. يمكنه أن يكون غبيًّا كما شاء، وهذا سيؤثر على أدائه في فحص مسرح الجريمة وفي العثور على أدلة أو في ربط التفاصيل الصغيرة بعضها ببعض، ليحصل على الصورة كاملة، لكن الاستجواب يختلف.. الاستجواب لا يستلزم ذكاءً من أي نوع، وهو يجيد كل طرق الاستجواب المشروعة وغير المشروعة، وسيبدأ بالثانية مع يوسف وسوسن لو استلزم الأمر، حتى يعرف منهما كل شيء، وأهم ما يريد معرفته اليوم هو: كيف أحرقت سوسن المهندس سامح من الداخل إلى الخارج؟

لكنه.. ولأنه يريد ادخار الأفضل حتى النهاية.. أرسل طالبًا يوسف ليبدأ به، وجلس في مكتبه يدخن محاولًا تنظيم أسئلته العديدة في رأسه، وقد قرر أن يحصل على إجاباتها كلها من يوسف ورغمًا عنه.. سيكون عليه أن يخفي لهفته وحيرته، لكنه لن يضطر لإخفاء غضبه، فيوسف خدعه، والآن.. الآن حان وقت دفع الثمن.

هكذا.. وحين تعالى الطرق على باب مكتبه.. وجد نفسه ينادي بلهفة لام نفسه عليها قبل أن يخفيها:

ـ ادخل.

فدخل أحد جنوده يقتاد يوسف الذي فقد من جسده أكثر من قدرة عصام على التخيل أو التصديق.

بوجه شاحب وجسد نحيل ونظرات شاردة دخل يوسف وقد بدا عليه أنه لم يستوعب بعد أنهم قد ألقوا القبض عليه، ليزيد عدم استيعابه هذا من متعة عصام، ولتتسع ابتسامته وهو يبدأ:

ـ حان وقت الكلام.

فأجابه يوسف بنظرة صامتة شاردة، استقبلها عصام بالمزيد من الرضا، قبل أن يطفئ سيجارته ليعتدل على مقعده.. ليبدأ الاستجواب.

* * *

لكن استجواب يوسف كان عبثيًّا، ومنه لم يخرج عصام ولو بإجابة واحدة على أيٍّ من أسئلته.

لساعات طويلة جلس يوسف أمامه صامتًا من دون أن يُجهد نفسه حتى

بمحاولة شرح أنه عاجز عن التحدث تمامًا، وأنه حتى لو حاول أن يجيب عن أسئلته فلن يستطيع، تاركًا عصام يمارس عليه كل «خبراته» في مجال الاستجواب، وتاركًا عقله يسبح في خواطر لا نهاية لها، تبدأ باللحظة التي التقى فيها الدكتور مجدي أول مرَّة في سجنه، وتنتهي بالليلة التي ألقى فيها بجسد الطفل في النهر، ليعود إلى زمنه بعدها وليجد أن الشيء لا يزال في انتظاره ليواصل معه لعبته. خواطر خاض معها يوسف حوارًا طويلًا مع سوء حظه في عقله، تاركًا عصام يلقي بأسئلته إلى فراغ الغرفة لترتد إليه كما هي لم تمسسها إجابة.

هكذا يمكنك أن تتخيل كيف مضت ساعات الاستجواب بين رجل يستجوب رجلًا يخوض حوارًا في عقله!

يسأل عصام:

ـ والآن يا يوسف.. لنبدأ بالدكتورة ليلى... لماذا ذهبت إلى منزلها؟

فيتعالى صوت سوء حظ يوسف في رأسه، قائلًا:

ـ نصحتك بعدم دخول منزلها.. نصحتك لكنك لم تستجب.

فيجيب يوسف في رأسه:

ـ كان يجب أن أدخل.. كان يجب أن أحصل على المفتاح.

فيسأل عصام:

ـ لقد ذهبت إلى عيادتها ومن هناك حصلت على عنوان منزلها.. لماذا؟

ـ وما الذي فعلته بالمفتاح؟ إنك لا تعرف الغرض منه حتى الآن.

ـ لكنني سأعرف.. الشيء أخبرنا بأننا سنحتاج المفتاحين في النهاية ويجب أن نحتفظ بهما معنا.

ـ وما الذي تظن أنه سيحدث بعد أن تعرف؟

ويرتد سؤال عصام الثاني إليه بلا إجابة، فيلقي بالثالث:

ـ يوسف.. لماذا قتلت الدكتورة ليلى؟

فيجيب يوسف في رأسه:

ـ لأنقذ نفسي.

ـ وما دمت تريد النجاة فلِمَ ستواصل هذه اللعبة؟

ـ لأنني مرغم.. لقد حاولت التخلص منه و..

ـ وفشلت.. والآن يمكنك أن تنهي هذا كله.. خذ ورقة وقلمًا واكتب لعصام كل ما حدث.

فيقول عصام غير سائلٍ هذه المرَّة:

ـ صمتك لن يفيدك بشيء.. لقد عثرنا على بصماتك في مسرح الجريمة ونعرف أنك الفاعل.. فلا داعي للتظاهر بالخرس.

ـ لكنه لا يتظاهر أيها الأحمق.. لقد أخذ منه الشيء صوته.

ـ إنه لا يعرف هذا.. وحتى لو أخبرته فلن يصدقني.

ـ وما الذي ستفعله إذن؟ ستتركه يسجنك لينتهي بك الأمر كالدكتور مجدي؟

ـ الدكتور مجدي هو السبب في كل ما حدث.. هو من عثر على الطفل وأتى به إلى هنا.

ـ وكيف عثر عليه؟ كيف وجده بعد أن ألقيت به في النهر؟

فيبدأ صبر عصام في النفاد لتكتسب لهجته النبرة الآمرة التي يجيدها:

ـ يوسف.. أنت ستخبرني بكل ما أريد معرفته سواء أردت هذا أم لم تُرد.. الإعدام هو مصيرك لو لم تتعاون معي، لذا ولآخر مرَّة سأكرر سؤالي: لماذا قتلت الدكتورة ليلى؟

لا يجيب يوسف، فينصحه سوء حظه:

ـ ورقة وقلم.. هذان هما كل ما تحتاج إليه لتنهي هذا الاستجواب السخيف.

ـ أخبرتك بأنه لن يصدقني.. وحتى لو صدقني.. فلعبة الشيء ستستمر حتى النهاية.

ـ حتى نهايتك أنت.. ألم تفهم هذا بعد؟ إنك لن تخرج من هذه اللعبة حيًّا.

ـ ما الفارق إذن؟

يسأل يوسف سوء حظه فيجيبه بالصمت وقد عجز عن العثور على الرد المناسب.. أو كأنه يعلن بصمته هذا موافقته على قول يوسف.

يجرب عصام حظه ليغير السؤال، قائلًا:

ـ وماذا عن سوسن؟ ما علاقتك بها؟ وما الذي تعرفه عن المهندس

سامح؟

فيجد يوسف أنه يعرف الكثير عن سوسن وعن سامح، لكن كل ما يعرفه لا يصلح للإجابة.. هذا سؤال سيكون من نصيب سوسن لاحقًا وهو لا يملك إلا أن يتمنى لها حظًّا أفضل حين يبدأ عصام في استجوابها.. أما استجوابه هو.. فليترك عصام يحاول معه إلى أن تنضب طاقته، فهو لن يمنحه أي إجابات.

لكن عصام فقد آخر ما تبقى من صبره ليغادر مقعده وقد استبد به غضب يعرف يوسف أنه سيدفع ثمنه غاليًا، ليعلن:

ـ إنك لم تترك لي خيارًا آخر.. الآن سأجبرك على التحدث بطريقتي.

يقولها ليجد يوسف نفسه يبتسم لا شعوريًّا وقد أدرك ما سيحدث له الآن.

ليتركه يحاول.. فمَن يدري؟

ربما سيتمكن من إعادة صوته له!

* * *

بعد ساعات أعادوا يوسف إلى سجنه وقد غُطِّي بالكدمات.. ودماؤه تسيل من جراحه، من دون أن يظفر منه عصام بإجابة واحدة.

لقد «اجتهد» عصام قدر استطاعته حتى أصابه الإرهاق، ويوسف لا يستطيع أن يلومه على «اجتهاده»، لكن المشكلة الآن أنه فقد إحساسه بجسده تمامًا كما فقد صوته سابقًا.

ـ لكنك ستشعر بالألم قريبًا.. إن عقلك يرفض التصديق الآن لكنه

سيفعل.. وحينها ستشعر بألم كل كدمة وكل جرح.

فيضحك يوسف بلا صوت فهو لم يعد يبالي.

لتأتِ الآلام كما يحلو لها، وليستعد جسده للمزيد منها، فهو باقٍ هنا إلى أن ينتهي عصام منه.. أو الشيء.. أيهما أقرب.. ثم إن اللعبة كلها سوف تنتهي بعد يوم واحد لا أكثر، فليلة الغد ستكون الليلة الثالثة والعشرين.

ـ لكن.. كيف ستخرج من هنا قبل أن تحل ليلة الغد؟

هذا سؤال لن يرهق نفسه بالتفكير فيه، فما دام الشيء هو من يريده ليواصل اللعبة فهو المسؤول عن إخراجه من هنا.. كل ما عليه هو أن يحتفظ بمفتاحه وأن يأمل أن تكون سوسن لا تزال تحتفظ بمفتاحها معها، فهما سيحتاجان إليهما في النهاية.

الآن يمكنه أن يترك جسده يسترخي، وأن يترك عقله يستسلم لآلام جسده، فالنوم الذي يعده برحلة جديدة إلى زمن جديد.

حيث سيخوض آخر فصول لعبة الشيء.

١٣

حين استيقظ يوسف هذه المرَّة وجد أن الأرض تترنح من أسفله، وأن عقله ينبض داخل جمجمته. وحين حاول أن يرفع رأسه وجده ثقيلًا يرفض الاستجابة له، ووجد أن معدته تتلوى تحاول إفراغ ما فيها، لكنه قاومها وفتح عينيه ببطء ليبدأ تأمل ما حوله، وليجد كل شيء يتراقص أمامه، فأغمض عينيه من جديد وأخذ يجاهد ليسيطر على جسده الجديد.. بالطبع هو جسد جديد فقد انتقل إلى زمن جديد، لكنه عاجز تمامًا عن السيطرة على جسده هذا، وكل ما يرغب فيه الآن هو أن يظل راقدًا على الأرض التي تترنح من أسفله من دون سبب مفهوم.

لكن لا يمكنك أن تظل مكانك.. لقد بدأ الفصل الأخير من اللعبة.

نعم لقد بدأ.. لكنه لا يستطيع الحركة حقًّا وذلك الخدر العجيب يسري في جسده بينما عقله ينبض بصوت مسموع ومعدته تصر على محاولة إفراغ ما فيها و.. أهي الأرض التي تترنح من أسفله أم إنه هو من يشعر بالدوار؟

افتح عينيك.. ببطء لكن افتحهما.

ففتح يوسف عينيه ببطء ليتأمل الموجودات من حوله، فوجدها لا تزال تواصل رقصها، وإن بدأ عقله النابض تمييزها واحدة تلو الأخرى.. هناك فراش.. إنه يرقد على الأرض بجواره وهو ليس فراشه، فهذا ليس منزله.. هناك نافذة تطل على سماء صافية تتوسطها شمس مشرقة.. هناك طاولة عليها أكواب صغيرة تتراقص هي الأخرى.. وهناك معدته التي تتلوى لكنه يتجاهلها ليواصل تمييز الموجودات من حوله.. هناك باب الغرفة.. إنه معدني ذو رتاج غريب الهيئة.. هناك معطف ثقيل معلق على الباب المعدني.. هناك تلك الزجاجة الفارغة بجواره.. وهناك تلك الرائحة المنفرة وهي تخرج من فمه هو.

أين أنا؟ ولماذا الباب معدني؟ و.. إن عقلي ينبض بقوة وبلا توقف!

ثم أغمض يوسف عينيه مجددًا ليكتشف أن الضوء الذي يملأ الغرفة كان يؤلمه، وليبدأ عقله النابض المنهك التوصل إلى استنتاج يستحق بعض التفكير.

زجاجة فارغة.. رائحة منفرة من فمه.. عقله ينبض ومعدته تتلوى.

إنه مخمور!

لهذا تترنح الأرض من أسفله.. لكن.. إنها تترنح فعلًا.. وهناك صوت أمواج.. لتخرس معدته قليلًا ولتتحمَّل فالاستنتاج الثاني في الطريق.. وهو..

باب معدني.. الأرض تترنح.. صوت أمواج.

إنه في سفينة!

هنا فتح يوسف عينيه مجددًا لتتبدَّى فيهما الدهشة والحيرة، ثم تحامل على نفسه ليبدأ الاعتدال جالسًا ببطء، فتحول نبض عقله في رأسه إلى ضربات عنيفة لا ترحم، وقفزت محتويات معدته إلى حلقه، فشعر يوسف بمذاقها مريرة تغريه بالتقيؤ.

لا تتقيأ الآن.. تماسك وحاول الوقوف مستندًا إلى الفراش.

فاستجاب يوسف ليبدأ الوقوف مستندًا إلى الفراش وليجد أن جسده يترنح كالأرض من أسفله.. إنه طويل القامة هذه المرَّة، ولا يحوي جسده ذلك الوهن الذي شعر به في جسد العجوز في زمن «راسبوتين»، لكنه يشعر بالدوار وبالخدر ومعدته.. إنها.. إنها...

ومن دون أن يجد يوسف فرصة للمقاومة وجد نفسه يتقيأ بقوة أسقطته أرضًا من جديد، قبل أن يبدأ السعال فاللهاث، وقد شعر بأنه تقيأ روحه ذاتها من جسده.. الشيء عليه اللعنة اختار له أسوأ جسد ممكن هذه المرَّة.

تحامل على نفسه ثانية ليقف مستندًا إلى الفراش، ثم بدأ محاولة مواكبة ترنحه مع ترنح الأرض من أسفله ليحصل على بعض الاتزان، وأمام عينيه أخذت الموجودات في التوقف عن التراقص، وإن احتفظ عقله بعدم قدرته على الاستيعاب كاملة.

إنه في سفينة.. إنه في زمن جديد.. إنه الفصل الأخير من اللعبة.

عظيم.. أنت الآن تعرف ما يحدث من حولك والخطوة التالية هي الخروج من الغرفة.

وهذا ما فعله يوسف بكثير من المشقة.. في البداية أرغم ساقيه على التحرك ليترنح حتى باب الغرفة، ثم استجمع قوته ليبدأ فتح الباب المعدني

الثقيل ليجد الممرات الضيقة في انتظاره.. إنها ليست سفينة ضخمة.. أقرب إلى مركب صيد.. إنها تهتز وبلا توقف، لتضاعف من الدوار الذي يشعر به، وها هي معدته تتلوى الآن حتى بعد أن أفرغت ما كان فيها.

لكنه في زمن حديث هذه المرَّة.

في كل مرَّة كان الشيء ينقله إلى القرون الماضية، وهذه هي أول مرَّة ينقله فيها إلى زمن وجدت فيه مراكب الصيد وتلك الملابس الحديثة التي يرتديها على جسده والتي تفوح منها رائحة الخمر.. إنه زمن حديث، لكنه لا يزال ينتمي إلى ماضيه، فالشيء لن ينقله إلى المستقبل أبدًا، وهو يعرف أن مستقبله على أرض الواقع لن يطول.

من بعيد كانت بعض الأصوات تتعالى، لكن يوسف عجز عن تمييز اللغة التي يتحدثون بها، وإن بدت له مألوفة.. إنه يعرف هذه اللغة، لكن المشكلة في عقله الذي امتلأت خلاياه بالكحول... ليقترب من مصدر الصوت، وحينها...

هكذا تقدَّم يوسف في الممر الضيق مستندًا إلى جدرانه.. ترنح وسقط.. ثم وقف ليواصل طريقه من جديد وقد عادت نبضات عقله تتحول إلى ضربات تنهال على جدران جمجمته.. إنه يريد التوقف.. يريد أن يتوقف وأن يجلس وأن يخلد إلى نوم عميق يرحمه مما يشعر به الآن.. لكن.. الصوت.. يقترب.

تحامل على نفسك يا يوسف.. لقد اقتربت من نهاية اللعبة.. تحامل على نفسك.

فتحامل يوسف على نفسه وواصل طريقه في الممر حتى بلغ نهايته، ليجد السلم المعدني في انتظاره يطلب منه الصعود.. لن يكون الأمر

سهلًا، لكن ليزحف على الدرج لو استلزم الأمر، ففي الأعلى، تنتظره قطعة جديدة من الحقيقة سيدفع ثمنها بقطعة من جسده.

تذكر حين كنت طفلًا كيف علمك والداك صعود الدرج.. خطوة.. خطوة.

فوضع يوسف قدمه على أولى درجات السلم المعدني.. تردد.. ثم بدأ صعوده.

ومع كل درجة صعدها يوسف على السلم المعدني كان الصوت يقترب أكثر فأكثر، ليجد يوسف أنه ليس قادرًا على تمييز اللغة فحسب، بل إنه يعرف كذلك صاحب هذا الصوت.. يعرفه ولو استجاب له عقل هذا الجسد فسيتمكن من نطق اسمه.. لو استجاب له عقـ.. لكن.. إنه سيتقيأ ثانية.. معدته تنتفض فجأة.. ثم تهدأ فجأة وينجو يوسف من مأساة كان سيتركها على الدرج.. لنعدْ إلى صاحب الصوت.

بالطبع أنت تعرفه.. وحين ستراه أمامك ستتمكن من نطق اسمه ومن تذكر كل شيء عنه.

فاستبد بعض الحماس بجسد يوسف واستخدمه ليواصل صعود السلم حتى بلغ سطح السفينة ورأى صاحب الصوت أخيرًا.

رآه فتوقفت الضربات في رأسه، وتوقفت معدته عن التلوي، وتوقف يوسف ذاته ليحدق في صاحب الصوت ذاهلًا.

فمن وجد يوسف نفسه أمامه كان هو..

الدكتور مجدي!

* * *

أمامه وقف الدكتور مجدي كصورته التي رآها يوسف أول مرَّة في خبر إلقاء القبض عليه.

هادئًا واثقًا لم ينحل جسده بعد، ولم تكتسب نظراته الذهول والاستسلام اللذين رآهما يوسف فيها حين التقاه في سجنه... كان مجدي.. حين كان أستاذ التاريخ الشهير.. لا الرجل الذي قتل ابنه بمِطرقة وهو نائم في فراشه.. كان الدكتور مجدي الذي لم يدخل الشيء في حياته بعد.

وكان يبتسم.

أمام يوسف وقف بعينين تشعان ذكاءً ونشاطًا، مرتديًا معطفًا ثقيلًا أنيقًا منحه بعض الوقار، وكانت ابتسامته هي أكثر ما استغربه يوسف على وجهه، وهو الذي كان يظن أن الرجل فقد القدرة على الابتسام بعد كل ما رآه، وكل ما حدث له.

لكنه لم يَرَ شيئًا بعد.. إنك تراه قبل أن يحدث كل ما حدث.

هذه الحقيقة أدركها يوسف وإن عجز عن استيعابها كاملة، وقد أخذت الأفكار تتوالد وتذوب في رأسه كفقاعات الصابون.. إنه مخمور تمامًا يشعر بالدوار و.. مَنْ هذه المرأة؟ واتجهت المرأة إليه مبتسمة، تقول:

ـ لقد استيقظ «إيفان» أخيرًا.. رائع.

إذن هو «إيفان».. إذن هو في روسيا من جديد.. إذن هو.. لكن.. مَن هو؟

ـ استيقظ لكنه لم يستفقْ بعد.

قالها مجدي وهو ينظر إليه لائمًا لتتحول ابتسامته الهادئة إلى ابتسامة تأنيب.. لا بد أنه اشتم رائحة الخمر المتصاعدة من فمه الفاغر بذهول..

أما المرأة فألصقت جسدها بمجدي وأسندت رأسها على كتفه، فبدأ عقل يوسف المضطرب منحه معلومة جديدة.

لا بد أنها زوجته.. زوجة الدكتور مجدي التي لم يرها قطُّ، والتي ماتت بسلسلة أمراض متتالية أصابتها في أسبوع واحد لا أكثر.. زوجة الدكتور مجدي التي رأتها سوسن في حلمها جثة متحللة تهدهد الطفل الذي هو ليس طفلًا.. إنها.. مهلًا.. إنه لا يستطيع الوقوف أكثر من هذا.

وعلى سطح السفينة جلس يوسف بجسده القابل للاشتعال والتطاير، ودفن رأسه بين كفيه، فهز مجدي رأسه بأسف وأزاح زوجته عنه برفق طالبًا منها:

ـ أعدِّي له بعض القهوة.. فنحن لن نتحرك ما دام هو في هذه الحالة.

فهزت زوجة الدكتور مجدي رأسها متفهمة، ثم أسرعت لتلبي له ما طلب، بينما اتجه هو إلى يوسف ليجلس إلى جواره على سطح السفينة، قائلًا:

ـ كل هذه «الفودكا» التي تحتسيها.. بغض النظر عن أي وازعٍ ديني أو أخلاقي يجب أن تعرف أن كبدك لن يتحمَّل طويلًا يا «إيفان».

فأراد يوسف أن يخبره بأنه ليس «إيفان»، وأنه لم يذق الخمر في حياته قطُّ، لكن عقله كان قد فقد قدرته على تحويل إرادته إلى فعل مسموع.. في كل مرَّة يختار له الشيء جسدًا لا يصلح لمواصلة اللعبة، وهذه المرَّة اختار له جسدًا لا يصلح لأي شيء.

لكن القهوة آتية ومعها ستستعيد بعض قدرتك على التفكير.. انتظر.

فانتظر يوسف صامتًا ليستغل الدكتور مجدي صمته قائلًا:

ـ على أي حال لن تطول رحلتنا كثيرًا.. لقد اقتربنا.. اقتربنا جدًّا.. أشعر بهذا.

فرفع له يوسف عينين محمَرَّتين متسائلتين، ليجيب الدكتور مجدي عن سؤالهما:

ـ سنوات طويلة وأنا أبحث عنه.. سنوات طويلة قضيتها بين الكتب والمراجع والمخطوطات أبحث عن أي طرف خيط يقودني إليه.. لكن اليوم.. اليوم سأعثر عليه وأنا واثق من هذا.

عمَّ يتحدث؟ نعم.. لقد تذكر.. إنه يتحدث عن الشيء.

الدكتور مجدي كان يبحث عنه، ولقد عثر عليه حقًّا في النهاية وأعاده.. لكن.. كيف؟

فأجاب مجدي عن هذا السؤال قائلًا:

ـ «راسبوتين» هو من قادني إليه.. تاريخكم مثير يا «إيفان»، لكن «راسبوتين» سيظل إلى الأبد أهم رجل في تاريخ روسيا على الإطلاق.. أنتم تعرفون عنه الكثير بالطبع.. لكنني أعرف أكثر.

ثم أخرج من معطفه أوراقًا مطوية بدا عليها أنها تنتمي إلى زمن زاره يوسف وفشل فيه في التخلص من الشيء، ليقول:

ـ أتعرف مثلًا أن «راسبوتين» كان يقود جماعة سرية تدين له بالولاء التام؟

نعم إنني أعرف.. فلقد كنت عضوًا في هذه الجماعة.. لكن.. أين القهوة؟

ـ جماعته هذه لم يَرِدْ ذكرها في أيٍّ من الكتب أو المراجع التي تحدثت عن «راسبوتين».. لكن المخطوطات التي تركتها جماعته ظلت موجودة، ومنها عرفت الكثير.. لا تسألني كيف حصلت على هذه المخطوطات، فيكفيك أن تعرف أن كل شيء موجود وقابل للشراء لو دفعت الثمن المناسب.. المهم أنني حصلت عليها في النهاية، ومنها عرفت الكثير.

رائع.. وهل عرفت منها طريقة القضاء على الشيء؟

ـ مثلي كان «راسبوتين» يعرف أن الشيء موجود.. تمامًا كما حدث معي، شعر هو بوجوده وبحث عنه طويلًا حتى عثر عليه وعلى طقوس استدعائه.

فجاهد يوسف ليقاطعه قائلًا:

ـ الشيء.. إنه.. الشيء.

ثم مات لسانه في فمه مرَّة أخرى، ليشرح مجدي:

ـ لقد شرحت لك ما هو الشيء سابقًا، لكنك لن تتذكر ما شرحته وأنت عاجز عن الوقوف حتى.. إنه أسطورة التاريخ يا عزيزي.. إنه السبب في كل الفترات السوداء التي مرت بالبشرية، وإنه حقيقة يا «إيفان».. «راسبوتين» افترض أنه أتى إلى عالمنا من عالم آخر في ليلة ذابت فيها الحواجز بين عالمنا والعوالم الأخرى، وهو افتراض لا أجده قابلًا للتصديق، لكنني لا أملك نفيه أو إثبات صحته ما لم أصل إلى الشيء أولًا.. نظرية «راسبوتين» تقول إنه كيانٌ أتى من عالم آخر بطقوس قادرة على استدعائه، وإنه يتغذى على كل ما نفقده من

أيامنا، لهذا تجده دومًا في كل الفترات التي ارتكبت فيها المذابح أو نشبت فيها الحروب.. أينما وجدت فترة سوداء في تاريخنا فستجد الشيء موجودًا يحاول البقاء، وهذا هو ما كان «راسبوتين» يحاول منعه، لو لا أنهم اغتالوه أولًا.

وأنت رأيت اغتياله بنفسك فأنت تملك رفاهية التنقل عبر الزمن بعد أن منحها لك الشيء.. الواقع أنك رأيت اغتياله في الليلة الماضية!

ـ لكن «راسبوتين» كان يعرف كيف ومتى ستكون نهايته.. لهذا أمر جماعته بأن يواصلوا ما بدأه هو.. ولقد كادوا ينجحون حقًّا في إعادة الشيء إلى عالمه لو لا أنه تمكن من السيطرة على أحدهم ليستخدمه في إنقاذه.. المخطوطات كتبتها امرأة اسمها «أولجا» وفيها تصف ما حدث في الليلة التي حاولوا فيها إعادة الشيء إلى عالمه.. فيها تقول إن...

فلم يُصغ يوسف لما قاله بعدها فهو كان يعرف.

لقد كان هو ـ الأحمق ـ الذي أنقذ الشيء وألقى به في النهر ليبقى فيه حتى.. مجدي.. مركب الصيد.. إنه في روسيا.

إنه في نهر «نيفا»!

ـ «أولجا» ذكرت في الأوراق التي تركتها أن هناك طقوسًا للقضاء على الشيء.. لو لم نتمكن من إعادته إلى عالمه فهناك طريقة للقضاء عليه، لكنني لم أعرفها بعد مع الأسف.. المهم أن أعثر عليه أولًا.

فانتزع يوسف كلمة واحدة من فمه بمشقة:

- لـ.. لماذا؟!

ليشع الحماس في وجه الدكتور مجدي وصوته وهو يجيب:

- لأنه كنز يا «إيفان».. هذا الشيء رأى التاريخ كله وعاش فيه، ويعرف عنه كل شيء.. تخيَّل أن تقضي عمرك كله في البحث في كتب تاريخ تشك في صحتها، ثم يأتي لك من رأى الحقيقة بعينيه وقادر على أن يمنحها لك كاملة.. تخيَّل أن تجيب عن كل الأسرار وكل التساؤلات، وأن تخط بقلمك التاريخ الحقيقي كما حدث فعلًا لأول مرَّة.. تخيَّل ما الذي سيحدث لي بعدها يا «إيفان».. تخيَّل.

قالها فتذكر يوسف اللحظة التي التقى فيها الدكتور مجدي أول مرَّة في سجنه وقد استطالت لحيته ونحل جسده وشردت عيناه.. إنه لا يتخيَّل.. إنه يتذكر!

- سأعيد الشيء.. سأعرف منه الحقيقة.. ثم سأبحث عن طقوس القضاء عليه لأخلص العالم منه وإلى الأبد.. هذا ما سأفعله وهذه الأوراق ستساعدني على تحقيق هذا الحلم.

ثم لوَّح بالأوراق التي كتبتها من كانت ابنة يوسف - والتي لم تكن ابنته حقًّا - مردفًا:

- إنها تقول إن الشيء انتهى به الأمر في جسد طفل ألقي به في هذا النهر.. لقد بحثوا عنه طويلًا لكنهم لم يعثروا عليه قطُّ، فتخلصوا من كل شيء يدل على وجوده، وقرروا أنه من الأفضل أن يتركوه على هذه الحال إلى أن تقترب الليلة الثالثة والعشرون.. كان آخر ما كتبته «أولجا» هو أن كل شيء سينتهي في هذه الليلة، فالشيء زارها في

أحلامها طويلًا قبل أن يصيبها الجنون لتتوقف عن الكتابة.. لكنها قالت: إن ليلة مصرع «راسبوتين» كانت الليلة الثانية والعشرين وهذا يعني أن الليلة الثالثة والعشرين ستكون.. ستكون ليلة الغد في عالمه وزمنه الأصلي.. وفيها سينتهي كل شيء حقًّا كما وعده الشيء.. إلا لو...

ها هي فكرة جديدة تجاهد لتعلن عن نفسها في رأسه المكدود وهو لم يعد يتحمَّل.. كل هذا الكحول الذي يعيق أفكاره وكل هذا الدوار الذي يترنح له جالسًا.. أين القهوة؟! وماذا عن خياره في هذا الفصل من فصول اللعبة؟ في كل مرَّة ينتقل فيها يكون له... ويدفع الثمن قطعة من... إن النوم يداهمه وبقوة.. لكنه لا يستطيع أن يستسلم له الآن.. ليس بعد.

ستعود زوجة الدكتور مجدي بالقهوة.. ستشربها وستصفو أفكارك لتعرف ما عليك فعله.. انتظر.

لكن الدكتور مجدي لم يتركه بل أخذ يعبث في الأوراق في يده، قائلًا:

- هناك شيء أخير تركته «أولجا» في أوراقها، لكنني لم أفهمه جيدًا.. نعم.. ها هو.

ثم دس أحد الأوراق في مجال رؤية يوسف، مردفًا:

- هذا الرسم.. إنه لمفتاحين.. أليس كذلك؟

فتطاير كل الكحول في عقل وجسد يوسف ليفسح لذهوله مكانًا وقد وجد نفسه يحدق في رسم تفصيلي لمفتاحين عتيقين غطتهما نقوش أخبره قدري بأنها لغة ما لكنه عاجز عن ترجمتها.. أخبره بأن الوحيدة القادرة على ترجمتها هي...

ـ لقد ساعدتني زوجتي في ترجمة النقوش المرسومة على المفتاحين فلم أكن لأستطيع فعلها من دونها.. ترجمتها لتجد أنها جملة واحدة مقسومة على المفتاحين.

ثم ارتسم تعبير حائر على وجهه وهو ينقل ليوسف ما ترجمته زوجته:

ـ الجملة تقول: «اثنان سيحملان المفتاحين.. أحدهما سيهلك.. والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية».

فتطاير الذهول هذه المرَّة من جسد يوسف ليحل الرعب محله.. وعلى وجهه ماتت كل التعبيرات، لكن في عقله أخذت الأفكار تتواثب وتتسابق محاولة تشكيل الصورة النهائية في رأسه.

المفتاحان.. واحد معه والآخر مع سوسن.. أحدهما سيهلك.. والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية.. وهذا سيحدث في الليلة الثالثة والعشرين.. الليلة الأخيرة في هذه المأساة وهي ليلة الغد في زمنه.. والآن سيجد الدكتور مجدي الشيء وسينقله بعدها إلى مصر لتبدأ القصة كلها.. الدكتور مجدي هو من بدأ القصة.. وهو الوحيد القادر على إنهائها!

ـ لا تبحث عن الشيء.

قالها يوسف معتدلًا وبصوت لا أثر للسُّكر فيه، وبنبرة نصفها آمر ونصفها الآخر متوسل.

ـ ماذا؟!

ـ لا تبحث عن الشيء.. يجب ألا تعثر عليه.

ـ «إيفان».. ما الذي تقوله؟

فقرر يوسف أن يخاطر بكل شيء فهو لم يعد يملك وقتًا ليضيِّعه:

ـ إنني لست «إيفان».. اسمي يوسف، وأنا مصري مثلك.. لكني أنتمي إلى المستقبل.. أقصد أنني موجود الآن لكني أتيت من المستقبل.. أقصد أنني أعرف ما سيحدث ويجب أن تصدقني.

ثم مال بوجهه على الدكتور مجدي، ليردف بنبرة رجل حسم قراره:

ـ يجب ألا تعثر على الشيء.

فحدق فيه الدكتور مجدي ذاهلًا للحظات، قبل أن يستعيد رشده ليقف غاضبًا:

ـ أنت تمزح.

فهبَّ يوسف واقفًا هو الآخر وقد فقد دواره وصبره، ليكرر:

ـ يجب ألا تبحث عن الشيء.. يجب ألا تجده.. إنه أملنا الأخير.

ـ يجب ألا أبحث عنه؟! ألم تُصغ لما قلته لك؟ إنه كنز.

ـ إنه كارثة تنتظر أن تحدث.. كارثة سندفع جميعنا ثمنها.. أنت وزوجتك وأنا والدكتورة ليلى وسوسن و...

ـ مهلًا.. سوسن؟! أتعرف مَن هي سوسن؟!

ـ أعرفها وأعرف أنها ستدفع الثمن مثلي بسبب رغبتك المجنونة في معرفة كل شيء.. صدقني.. عد إلى مصر من دون أن تحاول العثور عليه.. لو عدت الآن فربما ينتهي كل شيء.. لكن أرجوك.. أرجوووووك.. لا تبحث عن الشيء!

فعاد الدكتور مجدي يحدق فيه ذاهلًا عاجزًا عن الرد، لتخرج زوجته إليهما حاملة كوب قهوة تتصاعد منه الأبخرة، تقول:

ـ لو كان زوجي محقًّا فهذه هي آخر مرَّة سنطلب فيها منك أن تغوص في النهر لتبحث عن الجسد الذي يحوي الشيء.. المياه باردة لكنها ستشتد برودة في الليل و...

فانفجر فيها يوسف ليقاطعها:

ـ لن نبحث عن الشيء.

ـ لن نبحث عنه؟!

فانتزع مجدي نفسه من ذهوله ليتدخل:

ـ إنه لا يعي ما يقوله.. اشرب القهوة يا «إيفان» و...

ـ اسمي يوسف.

صرخ بها يوسف لينتقل الذهول من وجه الدكتور مجدي إلى زوجته التي تراجعت خائفة، تردد:

ـ ما الذي يحدث؟

ـ لا أعرف.. لقد أفقدته الخمر صوابه.

فلم يشعر يوسف بنفسه إلا وهو ينقض على الدكتور مجدي، ليقبض على ملابسه صارخًا:

ـ لقد فقدت كل شيء بسببك.. كل شيء.

فلم ينطق الدكتور مجدي وإن صرخت زوجته وكوب القهوة يسقط من

يدها ليتحول إلى رذاذ وشظايا زجاجية تناثرت في كل اتجاه، لكن يوسف لم يفلت الدكتور مجدي ولم يلتفت إليها، بل واصل صارخًا:

ـ سندفع جميعًا ثمن حماقتك هذه.. لو عثرت على الشيء ستبدأ النهاية وحينها لن يوقفه أحد.

ـ «إيفان».. أرجوك اهدأ و...

ـ *أنا لست «إيفان»*.

وفي رأس يوسف ولدت الفكرة الأخيرة وأعلنت عن نفسها بوضوح لا يرقى إليه الشك: يجب أن يمنع الدكتور مجدي من العثور على الشيء.. يجب أن يمنعه وأن يعيده إلى مصر قبل أن يعثر على الطفل وقبل أن يأخذه معه ليدمر حياته وحياة كل من سيقفون في طريقه لاحقًا.. يجب أن يمنعه فهذا هو أمله الأخير.

لقد فشل في زمن «راسبوتين» لكنه لن يفشل هذه المرَّة.

ـ «إيفان».. أقصد يوسف.. اتركني وحاول أن تستمع إليَّ.. لقد أوشك الأمر كله على الانتهاء و...

لقد حاول التخلص من الشيء لكنه فشل.

ـ لو عثرنا عليه فسينتهي دورك وبعدها لن يكون لك أي علاقة بما سيحدث و...

لقد حاول القضاء عليه لكنه فشل.

ـ أنت الآن لست في وعيك ولا تدرك ما الذي تفعله و...

لقد خاض كل فصول لعبته وفشل.

ـ لكنك لو هدأت قليلًا وحاولت أن تسيطر على نفسك فسـ...

لقد دفع الثمن غاليًا وسينتهي به الأمر إما هالكًا وإما في عذاب بلا نهاية.

ـ سوف تجد أنك تتصرف بحماقة لا داعي لها و...

لكنه لن يفشل هذه المرَّة.

ـ وسوف تندم على ما تفعله الآن و...

لن يفشل، ولو لزم الأمر فسيقتل الدكتور مجدي.. وبنفسه!

ـ وأنا سأعثر على الشيء سواء ساعدتني أو لم تساعدني.

قالها الدكتور مجدي أخيرًا بإصرار، ثم أزاح يدي يوسف عنه وقد بدا على الاثنين أنهما حسما قراريهما.. الأول تبدت الصرامة في عينيه، والثاني لاح على وجهه هدوء عجيب ينذر بألف عاصفة.. الأول قرر المواصلة.. والثاني قرر أن يقتله!

في كل مرَّة سيكون لك الخيار.

ويوسف الآن يبتسم وقد أدرك ما عليه فعله.. وهذه المرَّة لن يفشل!

* * *

وفي اللحظة التي غاص فيها جسد يوسف في مياه نهر «نيفا» الباردة كان عقله يسترجع لحظاته الأخيرة في هذا الزمن.

عقله الذي لم يخلُ تمامًا من أثر «الفودكا» صفا، فأخذ يسترجع له كل ما حدث لحظة بلحظة.

لقد انقض على مجدي أولًا.. نعم.. إنه يذكر هذا وبوضوح، ويذكر كيف أطل الذهول من عين الدكتور مجدي اليمنى بعد أن دفن هو قبضته في عينه اليسرى.. لماذا اليسرى؟ لأنه فقد عينه اليسرى على أرض الواقع!

زوجة الدكتور مجدي صرخت حينها.. إنه يذكر أنها صرخت ويذكر أن صرختها لم توقفه، بل إنه ضم قبضته ليدفنها في صدر الدكتور مجدي الذي أفرغ ما في صدره من هواء ليسقط على ركبتيه وقد أدرك أنه لن يخرج من هذه المعركة حيًّا.. إنه مجرد أستاذ جامعة لم يخض شجارًا بالأيدي في حياته قطُّ.. ستكون نهايته هنا والآن.. ويذكر يوسف أنه رأى الرعب والتوسل في عينيه لكنه لم يتوقف.

لو توقف فسيعثر الدكتور مجدي على الشيء وسيعيده إلى مصر لتبدأ المأساة.. لكن لو قتله... هكذا ضم قبضتيه وهوى بهما على رأس الدكتور مجدي، ثم ألقى بجسده عليه ليبدأ تسديد اللكمات إليه لتتصاعد صرخات زوجته مع كل لكمة.. لماذا لا تخرس قليلًا؟ إنه لم يستفق تمامًا بعد وصوت صراخها يؤلم أذنيه حقًّا!

يذكر يوسف أن الدكتور مجدي استحضر رغبة البقاء في أعماقه ليدافع عن جسده، وليسدد لكمة متخاذلة إلى أنفه، فلم يشعر يوسف بالألم وإن رأى الدماء تتفجر من وجهه لتسقط على وجه الدكتور مجدي.. لقد تكفل الكحول في جسده بحجب الألم عن عقله، ومنحه ما يكفيه من الطاقة ليواصل المعركة.. لهذا انقض على الدكتور مجدي ليطرحه أرضًا مجددًا، ثم أحاط عنقه بأصابعه ليبدأ اعتصاره.

يذكر يوسف أنه رأى وجه الدكتور مجدي يحتقن بالدماء، ويذكر

أنه حاول أن يزيح أصابعه عنه باستماتة من دون أن يتمكن من هذا وقد ارتسم الألم والهلع على وجهه.. يذكر يوسف أنه شعر بالإشفاق عليه حينها، لكنه لم يتوقف.. لو توقف ولو تركه ينجو فسيفشل في هذا الزمن أيضًا.

لهذا واصل اعتصار عنقه وقد أخذت صرخات زوجته تتعالى أكثر فأكثر، فصرخ بها يوسف يأمرها بالتوقف، فاستجابت زوجة الدكتور مجدي على الفور، لتمنحه بعض الصمت والتركيز اللازمين لخنق زوجها.. قد يضطر إلى قتلها لاحقًا هي الأخرى وقد يتركها على قيد الحياة ـ فهي لن تتمكن من العثور على الشيء بمفردها ـ لكنه قرار سيتخذه لاحقًا وبعد أن يتخلص من الدكتور مجدي أولًا.

يذكر يوسف أن وجه الدكتور مجدي احتقن فانتفخ، وبدأت الزرقة تسري فيه، وبدأت مقاومته تخفت تدريجيًا، ليشعر يوسف بأن مهمته أوشكت على النجاح، وليتراقص الأمل في أعماقه.. سيموت الدكتور مجدي الآن.. هنا وفي هذا الزمن وقبل أن يعثر على الشيء، وبهذا سينتهي كل شيء قبل أن يبدأ، وسيبقى الشيء في جسد الطفل في أعماق النهر و.. و..

ويذكر يوسف الضربة التي هوت على رأسه.

ضربة لم يفلح الكحول في جسده في حجب ألمها، ليصرخ مفلتًا الدكتور مجدي وقد شعر بالعالم من حوله يسطع فجأة، قبل أن يحاول الوقوف مترنحًا والدماء تتفجر من رأسه ساخنة تفوح رائحة «الفودكا» منها.. أمامه استعاد مجدي قدرته على التنفس أخيرًا ليبدأ اللهاث والسعال، لكنه تركه والتفت ببطء إلى زوجته التي وقفت حاملة ذلك القائم المعدني

الذي تلوث بدمائه وحاول قول شيء ما، لكن الكلمات اختلطت في رأسه ثم سالت مع دمائه من دون أن تجد طريقها إلى لسانه.

أما زوجة الدكتور مجدي - على الرغم من هلعها وذهولها مما فعلته - فإنها رفعت القائم المعدني مرَّة أخرى، ثم هوت به على رأسه ثانية، ليسطع العالم من حوله والألم في رأسه، ثم ترنح جسده مرَّة أخيرة قبل أن يصطدم بحاجز مركب الصيد، ليسقط منه إلى مياه نهر «نيفا» الباردة، فشعر يوسف بجسده الجديد يتجمد في لحظة.

لقد فشل!

يذكر يوسف أن زوجة الدكتور مجدي صرخت في اللحظة التي غاص فيها جسده في الماء، ويذكر أنه سمع الدكتور مجدي يصيح:

- ما الذي فعلتِهِ؟ إننا نحتاج إليه.

- لقد كان سيقتلك!

- يجب أن أنقذه.. ساعديني.. بسرعة.

لكنه لن ينقذه.. لو لم يتجمد جسده أولًا فسيفقد من الدماء ما سيؤدي إلى موته وقبل أن يصل إليه الدكتور مجدي، ولهذا لن يحاول هو حتى أن ينقذ نفسه أو أن يدفع بجسده إلى السطح.

لقد فشل!

لقد كان الفصل الأخير من اللعبة، ولم تعد هناك فرص أخرى.. مَن الذي قال إنك لا تستطيع تغيير الماضي مهما حاولت؟ أيًّا من كان فلقد كان مُحقًّا، ولقد تعلم يوسف هذا الدرس متأخرًا.. متأخرًا جدًّا.. لكن الأمر

انتهى الآن، وكل ما عليه فعله هو أن يسترخي وأن يترك جسده يغوص وبنعومة إلى أعماق النهر.

البرودة تشتد ثم تخفت ببطء فيدرك يوسف أن جسده بدأ يفقد إحساسه تمهيدًا لأن يفقد ما فيه من حياة.. وحتى رأسه لم يعد يؤلمه، ولا الظلام الذي أخذ يحيط به أصبح يشغل باله.

ستعود إلى زمنك الآن وستجد سجنك في انتظارك لكنك لن تبقى فيه طويلًا.

بالطبع لن يبقى فيه طويلًا فالشيء لن يتركه.. سينقذه ليأخذه إلى حيث ستكون المواجهة الأخيرة، والنهاية ستكون واحدة من اثنتين.. لكن لا بأس.. لقد حاول وخاض كل فصول اللعبة وقاوم قدر استطاعته و...

وفي هذه اللحظة وقبل أن يفارق يوسف جسده الغارق هذا.. وقبل أن تتجمد عيناه في رأسه تمامًا.. ومن أعماق النهر تبدَّى له جسد يرقد فيه وقد استقر حجر على صدره يمنعه من الطفو أو الحركة.

جسد طفل صغير لم يبلغ العاشرة من عمره بعد، ذي شعر أسود فاحم ووجه لا أثر للمشاعر فيه.

طفل رآه يوسف فحاول أن يشهق فامتلأ صدره بالمياه الباردة ليتجمد الذهول على ملامحه ليبقى.

الدكتور مجدي سيغوص وراءه الآن ليحاول أن ينقذه.. سيجده قد فارق الحياة ثم سيجد الطفل في انتظاره يحوي الشيء الذي بحث عنه طويلًا.. سيعثر عليه بسببه هو!

بسببه هو!

بسببه هو!

بسببه هو!

كل شيء حدث كان بسببه هو وليس الدكتور مجدي.

هو مَن سمح للشيء بالوصول لعالمنا في زمن المرأة.

هو مَن سمح له بالهرب في زمن «فلاد».

هو مَن ساعده على الهرب في زمن «إليزابيث».

وهو مَن أنقذه في زمن «راسبوتين».

والآن هو مَن يقود الدكتور مجدي إليه.

كل ما حدث في زمنه.. وكل ما حدث في كل الأزمنة.. وكل ما.. كل ما.. كـ.. ـل.. مـ...

وكان آخر ما رآه يوسف في هذا الزمن هو الطفل يفتح عينيه لينظر إليه مباشرة.. ويبتسم.. ثم أظلمت الدنيا معلنة نهاية الفصل الأخير.

١٤

حين عاد يوسف إلى سجنه وجد أنه يذكر كل شيء.

يذكر كل شيء حدث له، و.. مهلًا.. دعنا نتوقف لحظة لأشرح لك هذه النقطة لتفهم ما أعنيه.. حاول أن تتذكر أنت كل ما فعلته اليوم وبالترتيب.. كل شيء فعلته ورأيته وسمعته وتعرضت له.. ثم حاول أن تتذكر كل شيء حدث أمس.. ثم حاول أن تتذكر كل شيء حدث لك في الأيام الماضية.. كل شيء.

مستحيل.. أليس كذلك؟

وحدها الأشياء التي تهم هي التي تبقى في الذاكرة، وحتى هذه الأشياء ننساها بمرور الزمن، وأغلب ما ننساه يغيب عن ذاكرتنا لأننا نحاول نسيانه حقًّا، لكن يوسف حين عاد إلى زمنه وجد أنه يذكر كل شيء حدث له أو مرَّ به وكأنه حدث للتوِّ.

كل ذكرياته سطعت في رأسه فجأة وكأنما استرد ذاكرته بعد طول غياب، ليجد يوسف نفسه يجلس يتذكر أول لحظة التقى فيها الدكتور مجدي في سجنه وبأدق التفاصيل.. وجد أنه يذكر ما كان يرتديه وما كان

في الغرفة، وكم قطرة عرق سالت على وجهه، وكل سؤال سأله ولم يحصل على إجابته، وكل كلمة نطقها الدكتور مجدي قبل أن يحاول قتل نفسه.

ثم وجد يوسف أنه يذكر ما حدث يومها ومنذ بدايته: استيقاظه مبكرًا على صوت صراخ ابن حارس البناية.. سيارته التي رفضت الاستجابة له.. الفيروس الذي أصاب كمبيوتره.. الساعات التي قضاها ينتظر لقاء مدير التحرير يترقب الأسوأ ويسترجع الاحتمالات كلها في رأسه.

ثم وجد يوسف أنه يذكر كل شيء حدث له في طفولته.. كل يوم مرَّ به.. وكل شيء أكله في كل يوم.. كل ذكرى مرَّ بها مع والديه.. واللحظة التي ماتت فيها أمه.. واليوم الذي أخبروه فيه بأن أباه لحق بها في السماء.. تلك الذكريات عادت إليه فجأة بكل ما تحمله من ألم وحزن.

ثم وجد يوسف أنه يذكر كل ما خاضه في المدرسة.. وكل مرَّة حاول فيها الهرب من صلاح لينتهي به الأمر في كل مرَّة متكوِّمًا على الأرض يتلقى الركلات، ليستعيد يوسف كل ذرة ألم شعر بها، وفي كل مرَّة.. ثم وجد يوسف نفسه يذكر اللحظة التي طار فيها جسد صلاح بعد أن صدمته السيارة ليسقط أمامه جثة هامدة، وفكه السفلي يلامس أذنه اليسرى، قبل أن يتذكر يوسف مطاردته الأخيرة له في الغابة في زمن المرأة.. كان عنقه يؤلمه حينها، وكان قد نزف الكثير من دماء أول جسد انتقل إليه و...

ثم وجد يوسف أنه يذكر اللحظة التي انقلبت فيها سيارة عمته بهما.. ويذكر كل قطعة زجاج ارتطمت بوجهه وكل كدمة حصل عليها جسده حينها، قبل أن يتذكر ذلك القائم المعدني الذي اخترق فخذه حين انقلبت به السيارة في زمن «راسبوتين».

وفي عقله تصاعد نداء خافت من وسط كل ذكرياته يردد: كفى! أرجوك كفى!

لكنه وجد نفسه يتذكر اللحظة التي خطا فيها إلى داخل منزل الدكتورة ليلى ويذكر رائحة الرطوبة والجثث في قبوها.. ثم يذكر اللحظة التي كان يختبئ فيها منها وراء جثة ابنتها.. ويذكر ملمس المفتاح البارد في فمها.. ويذكر اللحظة التي غرس فيها السكين في جسد الدكتورة ليلى.. ويذكر آخر صوت خرج منها قبل أن تهوي أسفل قدميه جثة هامدة.

فتعالى النداء في رأسه ثانية: كفى! إنه يتذكر أكثر من اللازم و...

ثم وجد أنه يذكر أول مرَّة أصابه فيها الصداع النصفي.. ويذكر كل نبضة ألم.. وكيف كاد رأسه ينفجر حينها.. كانت ليلة من ليالي الثلاثاء، وكان في السابعة من عمره، وكان الخريف، وكانت أمه قد تُوفيت، وكان أبوه ينتحب بمفرده في غرفتهما كعادته، فلم يجرؤ يوسف على مقاطعته، فقط دفن رأسه في وسادته وأخذ يبكي ألمًا وحيدًا في غرفته.

وحيدًا.. إنه يذكر وحدته التي صاحبته طوال حياته.. يذكرها يوم تخرجه، ويوم أقامت مدرسته حفلًا للطلبة مع أولياء أمورهم، ويوم خرج من المستشفى بعد حادث سيارة عمته.. يذكر وحدته ويذكر نادية.

كفى! أرجوك كفى!

نادية التي أحبَّها، والتي قضى سنوات الجامعة يرسل إليها نظراته الصامتة فتجيبه هي بابتسامتها الرقيقة.. أول مرَّة رآها فيها كانت ترتدي فستانًا وردي اللون، وكان هو يرتدي أسمالًا بالية، فهو لم يكن يملك المال.. كان يومًا من أيام السبت، وكان يومها قد تشاجر مع أحد زملاء

دراسته لأنه سكب ـ من دون قصد ـ كوب شاي على أوراقه، فتركه زميله هذا بكدمة في جانب فمه، أخذها منه يوسف مستسلمًا فهو لم يكن يجرؤ على ردها.. يذكر حبه لنادية.. ويذكر الليالي الطويلة التي سهر يحلم بها جواره يحدثها من دون أن تجيبه.. ويذكر اللحظة التي أخبره فيها الدكتور مجدي في المستشفى بأنها كانت تحبه.. وبأنها ماتت.

كفى! كفى! كفى!

لكن الذكريات أخذت تتوالى في رأسه وبلا هوادة، ومعها أخذ يوسف يتلوَّى وقد فقد قدرته على التحمُّل، وقد بدأت الحقيقة تتشكل في رأسه من وسط كل الذكريات.. الذكريات التي أخذت تتزاحم وتنبش قبورها لتخرج معلنة عن نفسها.

في كل مرَّة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسأحصل أنا على قطعة.

وهذه المرَّة أخذ منه الشيء قدرته على النسيان!

إنه الآن يذكر كل لحظة ألم ووحدة وحزن مر بها، ويوسف بمفرده يملك من هذه الذكريات مخزونًا يكفي شعبًا بأكمله.. يملكه ونَسِيَه لأنه حاول نسيانه ونجح.. نحن يا عزيزي لا نحيا بما نذكره ولكن برحمة ما ننساه، ويوسف الآن يذكر كل شيء.

كل شيء!

هكذا، وحين عاد يوسف إلى سجنه هذه المرَّة تجمد مكانه ذاهلًا مع فيض الذكريات الذي انفجر في رأسه.. تلوَّى.. ثم بدأ الصراخ بعذاب لا حدَّ له.

صرخ.. وصرخ.. وصرخ.. ومن دون أن يصدر منه أدنى صوت!

١٥

تصاعد الطرق على باب مكتب عصام، فأدرك أن لحظة الحقيقة حانت.. اعتدل على مقعده وتأهب ليسمح للطارق بالدخول، فدخل من اقتاد له سوسن ليبتسم عصام مخفيًا لهفته ونعاسه بابتسامة لم تجد طريقها إلى عيني سوسن الشاردتين.. رائع! إنها لا تصلح للاستجواب، لكنه لن يمنحها الوقت الذي تحتاج إليه لتتمالك نفسها ولتستعد له.. لذا بدأ:

ـ وأخيرًا التقينا.

فرفعت له سوسن رأسها وإن لم تمنحه ردًّا.. لا بأس.. الآن سيبدأ الاستجواب وسيعرف عصام كل ما يريد معرفته.. بل إنه سيعرف أكثر مما ينبغي له أن يعرف بكثير.

* * *

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ببضع دقائق حين قرر عصام أن يكتفي بهذا القدر.

على عكس ما توقع تمامًا لم تقاومه سوسن ولم تَلُذْ بالصمت كما فعل

يوسف، بل أجابت عن كل أسئلته وباستسلام تام وبشرح تفصيلي لكل إجابة، ليكون الناتج النهائي الذي خرج به عصام من ساعات استجوابها هو: لقد فقدت هذه الفتاة عقلها!

ثلاث ساعات جلس فيها يقاوم نعاسه ويستمع غير مصدق لقصة الدكتور مجدي، وذلك الذي يسمونه «الشيء»، والصحراء والخيل، وسامح الذي منحها ما تحتاج إليه لتبدأ «اللعبة» كما سمَّتها، وما حدث لوالديها، ثم محاولتها إنقاذهما بأن تقتل يوسف الذي ينتقل عبر الأزمنة ليخوض فصول لعبته، والحلم الذي رأت فيه زوجة الدكتور مجدي، ثم زيارتها الأخيرة لمنزله لتعرف هناك أن كل شيء سينتهي في ليلة غدٍ.. ثلاث ساعات استقبل فيها عصام هذا كله بوجه جامد، ليكرر في النهاية سؤاله الوحيد لها:

ـ كيف قتلتِ سامح بهذه الطريقة؟

ـ أنا لم أقتله.. إنه الشيء!

ـ الشيء.. عظيم.. هذا يكفي.

ثم أرسل مَن حملها صارخة تقاوم إلى سجنها، وقد أخذت تردد: إن كل شيء سينتهي في ليلة غدٍ التي ستكون الليلة الثالثة والعشرين.. وهي في هذه النقطة كانت مُحقة.. كل شيء سينتهي في ليلة غدٍ، فهو سيعود الآن إلى منزله لينام أخيرًا، وسيعود غدًا ليكتب اعترافاتهما نيابة عنهما وفيها سيضع التفسير القابل للتصديق لكل ما حدث.

سوسن قتلت سامح بدافع الغيرة لأنه تركها وارتبط بفتاة أخرى، ثم أصيبت بانهيار عصبي وفقدت عقلها. ويوسف قتل الدكتورة ليلى بدافع السرقة. والدكتور مجدي قتل ابنه لأنه أصيب بالجنون!

هذه هي التفسيرات التي سيرغمهما غدًا على التوقيع عليها قبل أن يرسلهما إلى من سيتحمل مشكلتهما بدلًا منه لينتهي دوره في هذه القصة، وكل الأوراق التي وجدها مع سوسن وقرأها ـ من دون أن يفهم منها حرفًا ـ سيتخلص منها ليتخلص من آخر ما يربطه بهاتين القضيتين.. فقط أعاد قراءة ما سمَّته سوسن «طقوس استدعاء الشيء» ـ من باب إراحة الضمير لا أكثر ـ فوجده هراءً لا يستحق الاحتفاظ به، ليلقي به في سلة المهملات بجوار مكتبه، قبل أن يقف.. يتمطى ويتثاءب بقوة.. ثم يحمل أغراضه ليغادر مكتبه.

صحيح أنه لن يعرف أبدًا كيف ارتكبت سوسن جريمتها، لكنه فقد اهتمامه بالموضوع كله.. لقد قتلته، وهو قبض عليها، وهذا يكفي.. ليدع كل تلك الأسئلة المبهجة للمحاكمة التي لن يحضرها، تمامًا كما فعل مع محاكمة الدكتور مجدي، فهو يستطيع أن يستنتج الحكم الذي سيحصلان عليه في النهاية: يوسف سيحظى بالإعدام، وسوسن ستقضي ما تبقى لها من عُمر في مستشفى الأمراض العقلية، أما هو.. فمن الأغلب أنه سيحظى بمكافأة استثنائية جزاء له على «اجتهاده»!

غدًا سينتهي كل شيء.. لكن الليلة.. سينام كالأطفال.

* * *

وحين بلغ عصام منزله أخيرًا كان المشهد التقليدي المعتاد في انتظاره.

سيارات شرطة تضيء المكان باللون الأزرق البارد الكئيب.. سيارة إسعاف يقف قائدها مستندًا إليها يدخن وينتظر أن ينتهي فريق المعمل الجنائي من عملهم لينقل الجثة إلى المشرحة.. وعند مدخل البناية بعض الجنود والسكان يقفون ينتظرون وصوله، وقد بدا عليهم الوجوم.

وكان أول ما لاحظه عصام مع وصوله هو حالة الصمت المسيطرة على المكان.

لماذا يبدو له هذا المشهد مكررًا؟! كأنه رآه من قبل.. كأنه كان هنا!

لكنَّ عصام لم يكن يتمتع بالذكاء اللازم لاستنتاج ما يحدث فورًا، بل إنه لم يكن يتمتع حتى بقوة الملاحظة الكافية لينتبه إلى أن البناية التي توقف أمامها ليست بنايته التي يعيش فيها.. كل ما انتبه إليه حينها هو حقيقة أن جريمة ما ارتُكبت في بنايته. وللمرَّة الأولى، وكل ما فكَّر فيه لحظتها هو أن ليلته الطويلة هذه لم تنتهِ بعد، وأن هناك كارثة في انتظاره، فترجل من سيارته وأخذ يتأمل الموقف أمامه من وراء نظارته الشمسية.

متى ارتداها؟ إنه لا يذكر أنه كان يرتدي نظارته حين كان يقود السيارة؟

لكنه وجد نفسه يتجه إلى مدخل البناية مأخوذًا لتستقبله النظرات الصامتة في أعين الجميع. في المعتاد، وحين تحدث جريمة قتل، تجد الجميع يقفون يتناقشون ويحللون ويفترضون أسباب هذه الجريمة ودوافعها، ويتبادلون قصص علاقتهم بالمجني عليه وكيف أنه كان «في حاله» ولا يستحق هذه النهاية المؤسفة، حتى لو كان الفقيد تاجر مخدرات متهمًا في قضايا قتل واغتصاب، لكن هذه المرَّة كان الجميع يقفون صامتين يتبادلون النظرات التي اشتَمَّ فيها عصام رائحة الخوف، فلم يَدَعْ هذه التفصيلة تشغل باله طويلًا وهو يتجاوزهم ليصعد إلى حيث الشقة التي تحوَّلت إلى مسرح جريمة.

هذا المكان يبدو مألوفًا.. لقد كان هنا.. إنها ليست بنايته لكنه كان هنا!

أمام الشقة وقف الرائد علاء ينتظره وقد بدا عليه التوتر الشديد، فبادره عصام بلهجة آمرة:

ـ ما الذي حدث؟

ليفاجأ عصام بتصرفه.. إنه لم يكن يريد أن يلقي بسؤاله هذا، لكنه فعلها، وكأنه لا يملك أي سيطرة على جسده.. كأنه يحلم!

لكن علاء أجاب عن سؤاله قائلًا:

ـ جريمة قتل.. شاب في أواخر العشرينيات، يعيش بمفرده في الشقة.. الجيران اكتشفوا الجثة حين وجدوا باب شقته مفتوحًا واتصلوا بنا ليبلغونا و...

فقد قدرته على المواصلة لفرط توتره، فانفجر فيه عصام:

ـ وماذا؟

ـ سيادة المُقدِّم.. صدقني.. أنا لم أرَ شيئًا مماثلًا على مدى سنوات خِدمتي.. وأشك في أنك رأيت أو سترى شيئًا كالذي ينتظرك في الداخل.

قالها فتذكَّر عصام رأس ابن الدكتور مجدي المغروس في الجدار، ليبتسم في ثقة قائلًا:

ـ لن يكون أسوأ مما رأيته بالفعل.

فلم يجبه علاء هذه المرَّة ولم ينتظر هو إجابته، بل دخل الشقة التي انتشر فيها رجال المعمل الجنائي وقد سيطرت عليهم حالة الصمت المريبة ذاتها، ليقف عصام وسطهم يتأمل الشقة متظاهرًا بالأهمية.

مهلًا.. لقد كان هنا بالفعل!

إنه يذكر الآن هذا المكان ويعرف ما حدث فيه فلقد كان هنا.. هنا.

إنها شقة المهندس سامح!

شقة عادية هي.. تبدو حديثة لكن المشروع السكني ذاته حديث.. مؤثثة بعناية وأغلب الأثاث يحمل طابعًا أنثويًّا مميزًا من السهل معه أن تعرف أن المجني عليه كان خاطبًا، وربما على وشك الزواج كذلك.. لا دماء ولا آثار عنف أو اقتحام.. ولا جثة!

لكن.. من إحدى الغرف خرج له قائد فريق المعمل الجنائي بوجه شاحب وأطراف ترتعش لفرط توتره، ليقول:

ـ سيادة المُقدِّم.. الجثة في الداخل!

بالطبع الجثة في الداخل، وحين سيدخل سيجدها وقد احترقت من الداخل إلى الخارج.. إنه يعرف هذا كله.. لكن.. ما الذي يحدث؟!

لكنه وجد نفسه يواصل ما قرر أنه «حلم» ليسأل:

ـ وماذا عن الأدلة؟

ـ لا توجد أدلة.. لا يوجد أي شيء.. ولا حتى تفسير.

ـ ما الذي تقصده؟

ـ سترى بنفسك.

ثم مدَّ يده بكمامة طبية لعصام شارحًا:

ـ لن تتحمَّل الرائحة!

فأمسك بها عصام من دون أن يرتديها واتجه إلى الغرفة التي تحوي الجثة بنفاد صبر واضح و.. و..

وبمجرد أن سقطت عيناه على الجثة في الداخل شهق ذاهلًا بقوة!

شهق.. وانتفض.. وفهم.. وارتجف.

على الرغم من أنه كان يعرف ما في انتظاره فإنه وجد نفسه ينتفض وكأنها المرَّة الأولى، وفي أعماقه بدأ عصام إقناع نفسه بتفسير ما يحدث من حوله.

إنه يحلم.. لقد نام وهو يقود سيارته لفرط إرهاقه، وهو الآن يحلم بكل ما مَّر به في منزل المهندس سامح، ولن يستيقظ من حلمه هذا إلا لو انتهى أو لو انقلبت به سيارته أولًا!

وللحظات ظل واقفًا مكانه فاغر الفم عاجزًا عن السيطرة على نفسه، تاركًا كابوسه يتواصل، وحتى اللحظة التي التفت فيها إلى قائد المعمل الجنائي ليلقي عليه بسؤال، لكنه لم يكن هناك!

بمعجزة ما اختفى قائد المعمل الجنائي ورجاله وكل من كانوا في المكان، ليتركوه بمفرده يقف في غرفة المهندس سامح بجوار جثته المحترقة وقد تعاظم ذهوله ليفقده قدرته على التفكير تمامًا.

ما الذي يحدث هنا؟!

وأين ذهب الجميع؟!

وهنا استعاد عصام سيطرته أخيرًا على جسده، لكنه ظلَّ واقفًا مكانه وقد أعجزه ذهوله عن الحركة، ليستمع إلى الصمت الثقيل الذي ران على المكان، قبل أن يتعالى صوت عابث فجأة يقول:

ـ تريد أن تعرف كيف احترقتُ من الداخل إلى الخارج.

فانتفض عصام بقوة والتفت إلى جثة المهندس سامح المحترقة التي خرج منها الصوت، ليحدق فيها بذهول برائحة الرعب.. وأمامه تحركت جثة سامح لتعتدل على المقعد، ولترتسم ابتسامة مخيفة على الوجه المحترق، رآها عصام فتمنى أن تنقلب به سيارته الآن ليستيقظ من كابوسه هذا قبل أن يستمر أكثر من ذلك.

ـ الآن ستعرف.

فلم يجد عصام الوقت الكافي ليهرب أو ليصرخ أو ليستيقظ من كابوسه هذا.

لم يجد الوقت لفعل أي شيء!

١٦

وعلى جدران محبسها أخذت سوسن تكتب كل شيء.

بالقلم الذي سرقته من مكتبِ عصام ـ الذي لم يصدق حرفًا مما أخبرته به ـ كتبت على جدران محبسها وبخط جاهدت لتجعله مقروءًا لم تشوهه لهفتها ولا السرعة التي أخذت تكتب بها، أخذت سوسن تحكي القصة كاملة مكتوبة، ومنذ البداية.. لماذا؟ لأنها خسرت كل شيء.

في اللحظة التي ألقوا فيها القبض عليها أدركت سوسن أنها النهاية، وأن رحلتها التي طالت ستتوقف عند هذا الحد.. لن تواصل اللعبة، ولن تعرف إجابات أسئلتها، ولن تنقذ والديها، ولن تجد الوقت حتى لتواجه الشيء للمرَّة الأخيرة، لكنها ستدفع الثمن.. تمامًا كما انتهى الأمر بأستاذها مجدي، انتهى دورها في هذه اللحظة التي قبضوا فيها عليها، وما ينتظرها الآن هو السجن أو الإعدام أو ما هو أسوأ.. آخر ما يمكنها فعله إذن هو أن تكتب كل شيء على جدران سجنها ولتبدأ قصتها بالمرَّة التي جلست فيها مع أستاذها ليخبرها بكل ما يعرفه عن الشيء.

هكذا قضت سوسن ليلتها تكتب بقلم سرقته وبدموع لم تتوقف عن الانهمار من عينيها لحظة.

ثم كتبت في النهاية رسالة مختصرة وواضحة لمن سيقرأ هذه السطور في يوم من الأيام:

«لو واجهت الشيء أو عثرت عليه.. فلا تحاول أن تقتله!».

لا توجد طريقة معروفة للقضاء على الشيء، ومواجهته لن تعني إلا أنك ستخسر كل شيء كما خسرت هي حياتها وكلًّ من تحب في هذه الحياة.. وحين أنهت رسالتها توقفت أخيرًا لاهثة لتجد أن شمس يومها الأخير أشرقت عبر نافذة محبسها.

إنها النهاية إذن.

الليلة ستكون الثالثة والعشرين، لكنها لن تخرج من هنا أبدًا.. ولو خرجت حتى فهي لا تعرف ما عليها فعله.

لا تعرف ما سيحدث الليلة، لكنها لم تعد تملك ذرة أمل لتستعين بها على نفسها ولتواصل.. والآن.. لم يعدِ لبقائها جدوى.

هنا وفي اللحظة التي نضبت فيها دموعها، وخلت فيها الجدران من أي مساحة تكفي للمزيد من السطور، وقفت سوسن تقبض على القلم في يدها بيد وتتحسس عنقها بالأخرى، وقد قررت ما عليها فعله.. أستاذها حاول فعلها قبلها لولا أن يوسف أنقذه ليهلك لاحقًا.. لكن يوسف ليس معها الآن، ولن ينقذها، وهي ستهلك على كل حال، فلماذا لا تفعلها إذن؟

ببطء سددت القلم إلى عنقها، وأغمضت عينيها وارتجفت، محاولة السيطرة على رغبتها في البقاء.. لا مبرر للبقاء.. لا مبرر لأي شيء بعد الآن.. ولنفسها همست:

ـ سينتهي كل شيء سريعًا.

وهذا كان آخر ما تمنته سوسن يومها.. أن ينتهي كل شيء بسرعة ومن دون ألم.. وما سيحدث بعدها لن يشكل فارقًا، فلقد خسرت كل شيء.

هكذا سددت القلم إلى عنقها.. استعدت لغرسه.. ملأت صدرها بالهواء للمرَّة الأخيرة، وكتمت أنفاسها، ثم.. ثم انفتح باب محبسها عليها ليدخل من قال بلهجة آمرة:

ـ هيا بنا.. المُقدِّم عصام في انتظارك.

* * *

حاملًا فيض ذكرياته معه خرج يوسف من محبسه ليتبع من اقتاده عبر الممرات إلى خارج المكان.

كم مرَّة تم اقتياده عبر ممرات حتى الآن؟ إنه يذكر اللحظة التي اقتاده فيها الضخم في ممرات قصر بران ليقتل «فلاد».. ويذكر اللحظة التي اقتادته فيها ابنته ـ التي هي ليست ابنته ـ في ممرات قصر «مويكا» ليكمل ما بدأه «راسبوتين».. ويذكر اللحظة التي اقتادته فيها مدرسته صفاء عبر ممرات المدرسة إلى مكتب المدير ليبلغوه بوفاة والده.. كان مدير المدرسة يصرخ في الهاتف يومها فسمعه يوسف قبل أن يبلغه، يصيح:

ـ ولماذا أبلغه أنا بأن والده مات؟ إنها ليست مسؤوليتي!

حتى هذه الممرات القذرة يذكر أول مرَّة جال فيها منذ عدة سنوات مع عصام يوم أتى إليه ليحصل على تفاصيل جريمة سرقة، ليكتب عنها خبرًا لن يقرأه أحد في مجلة اسمها «المجلة»، ويذكر أن عصام يومها كان يجاهد لإخفاء سعادته، فهي المرَّة الأولى التي يسعى فيها صحفي لإجراء حوار معه، ويذكر أنه يومها كان يجاهد هو الآخر لكيلا يلكمه مع كم السخافات التي أخذ يرددها عليه وبلا توقف.. إنه يذكر أن...

كفى! كفى أرجوك!

لكن الذكريات لا تتوقف، ويجد يوسف سوسن وقد انضمت إليه صامتة بعينين جفَّ مخزونهما من الدموع، لتسير بجواره تشاركه صمته وتتحاشى النظر إلى الكدمات التي غطت وجهه.. إنه يذكر أول مرَّة التقى فيها سوسن.. كانت ترتدي نظارة طبية أنيقة زادتها ذكاءً.. وكانت تتلفت حولها طيلة الوقت كالمخابيل.. وكانت تردد أن ابن الدكتور مجدي لا يزال حيًّا، وأن عليهما أن يعثرا عليه ليقتلاه قبل فوات الأوان.

انتهت بهم الممرات إلى خارج المبنى ليجد يوسف عصام يقف يستند إلى سيارته منتظرًا، وقد أخفى عينيه بنظارته الشمسية التي لا تزيده إلا حماقة، يرمق السماء، وقد بدا هادئًا صامتًا بصورة تبادل معها يوسف وسوسن نظرة حيرة صامتة، من دون أن يحاولا النطق بحرف.. توقف من اقتادهما أمام عصام ليتبادل معه هزة رأس سريعة، قبل أن يعود إلى داخل المبنى ليعود عصام إلى تأمل السماء صامتًا هو الآخر تاركًا حيرة يوسف وسوسن تتعاظم في أعماقهما.

ما الذي سيحدث الآن؟

في النهاية التفت إليهما عصام آمرًا:

ـ هيا بنا.

ثم فتح باب سيارته واختفى داخلها، ليتبادل يوسف وسوسن نظرة صامتة أخيرة، قبل أن يلحقا به إلى داخل السيارة، ليدير عصام محركها وينطلق بها على الفور.. ثلاثةٌ رابعهم سؤال لم يجد من يجيب عنه:

ما الذي سيحدث الآن؟

* * *

ولمدة طويلة قاد عصام سيارته من دون أن ينبس ببنت شفة تاركًا يوسف وسوسن يتبادلان الأسئلة بنظراتهما من دون أن ينطقا بها، ومن دون أن يحصلا على جواب.

عصام الذي كان لا يتوقف عن الثرثرة لحظة، ولا عن إطلاق حكمه للأجيال القادمة، لاذ بالصمت تمامًا طوال الطريق، فلم يجد يوسف أمامه إلا أن يحتفظ بأسئلته لنفسه ليبدأ متابعة الطريق الذي امتد بهم ليجد أنهم قد خرجوا من المدينة وبلغوا ذلك الطريق الصحراوي لينقسم المشهد أمامه إلى نصفين: سماء زرقاء في الأعلى.. ورمال صفراء في الأسفل على مرمى البصر.. وتدريجيًّا بدأ السؤال في أعماق يوسف يتحول من: «ما الذي سيحدث الآن؟» إلى: «إلى أين نحن ذاهبون؟»، لكن سؤاله لم يخرج منه وإن أطلَّ من عيني سوسن التي أخذت ترمق المشهد عبر نافذتها بدهشة واضحة، قبل أن تولي اهتمامها لعصام الذي جمدت ملامحه واختفت نظراته وراء نظارته الشمسية.

وعلى الرغم منها شعرت سوسن بالأمل.. وبالخوف.

المنطق يقول إن عصام ينقلهما الآن إلى حيث سيواصل استجوابهما ليحصل منهما على الحقيقة التي سيصدقها، أو حيث سيجبرهما على الاعتراف بما يريده هو لينهي دوره في هذه القصة، لكن.. لكن منذ متى والشيء يلتزم بالمنطق معها؟!

يوسف أيضًا افترض أنه سيأخذهما إلى حيث يمكنه مواصلة طرق «إقناعه» معهما من دون أن يستوقفه أحد، لكن هذه الفرضية لم تجد البيئة الصالحة في أعماقه لتحيا، وماتت بسرعة أمام أسئلة أكثر منطقية:

لو كان يريد استجوابهما فلماذا ينقلهما إلى مكان بعيد وكأنه يخشى أن يمنعه أحد؟

مَن الذي سيمنعه؟

لماذا يستجوبهما أصلًا وهو قادر على كتابة اعترافاتهما نيابة عنهما.. ولن تكون هذه هي المرَّة الأولى؟

إنه يذكر أنه أخبره بأنه فعلها من قبل يوم أن زاره حين.. لا.. لا وقت للذكريات الآن! إن الشمس الآن تتوسط السماء معلنة أن ما يفصلهم عن الليلة الثالثة والعشرين بضع ساعات لا أكثر.. إن النهاية تقترب، وهو يشعر بها آتية لا محالة.. كل ما عليه الآن هو أن يجلس صامتًا وأن ينتظر حتى...

لكنَّ عصام توقف فجأة بسيارته وفي منتصف الطريق تمامًا.

هكذا ومن دون مقدمات أو أسباب توقف بفرملة حادة دفعت بأجساد كلِّ من في السيارة إلى الاصطدام بما أمامهم بقوة، قبل أن يعتدل يوسف وسوسن متألمين ليحدقا في عصام الذي جلس أمامهما ساكنًا هادئًا يرمق

السماء أمامه محافظًا على صمته الذي استجد عليه.. وللحظات حدقت فيه سوسن قبل أن يخرج السؤال منها مبررًا:

ـ لماذا توقفنا؟

ولكنَّ عصام خرج من السيارة بهدوء تام، ليبدأ السير في الاتجاه المضاد وفي منتصف الطريق.

هكذا ومن دون أن ينطق بحرف أو أن يتردد للحظة، غادر السيارة وتركهما يحدقان فيه ذاهلين، قبل أن ينتزع يوسف نفسه من ذهوله لينادي عليه بلا صوت، ليقف عصام وكأنه سمعه وليستدير إليهما ببطء.

كتمثال وقف عصام أمامهما وقد انعكست الشمس على نظارته لتتوهج أمامهما ليفهم يوسف ـ متأخرًا ـ ما سيحدث، قبل أن يُخرج عصام مسدسه من جرابه ليلصقه بجانب رأسه و.. و..

وامتزج صوت الطلق الناري بصرخة سوسن المدوية داخل السيارة ليختلط الصوتان بذاكرة يوسف، ويبقيا فيها إلى الأبد.

لقد انتهى دور عصام عند هذا الحد!

بقوة أخذ جسده يرتجف، وبجواره أخذت سوسن تصرخ بصورة هستيرية، قبل أن يهزها يوسف بقوة ليجبرها على التوقف، فحدقت فيه للحظة قبل أن تنفجر في البكاء.

في منتصف الطريق أمامهما وعلى بعد بضعة أمتار تحوَّل عصام بكل حماقته وثرثرته وغبائه إلى جثة هامدة ترقد وسط بركة تتسع من الدماء، لم تقوَ سوسن على النظر إليها، لكن يوسف حدق فيها للحظات قبل أن يستوعب الرسالة كاملة.

لقد انتهى دور عصام عند هذا الحد.

والآن يأتي دورهما!

* * *

وصامتًا أخذ يوسف يقود سيارة عصام، وقد احتفظت سوسن بمكانها في المقعد الخلفي وإن توقفت عن البكاء.

كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح أمامه هذه المرَّة، فأخذه راضيًا ولم تقاومه سوسن، ولم تعترض وكأنما فقدت اتصالها بالعالم الخارجي، فلم يعد هناك ما يستحق أن تعترض بشأنه.. لم يحاول يوسف أن ينقذ عصام فلم يعد فيه ما يصلح للإنقاذ بعد أن تناثر مخه على قارعة الطريق، ولم يحاول العودة، فالرسالة التي لم ينطق بها عصام كانت أوضح من أن تُقال.

عليهما أن يواصلا طريقهما من دونه، فالشيء ينتظرهما، والليلة الثالثة والعشرون ستبدأ بعد ساعات قليلة.. يواصلان طريقهما إلى أين؟ إلى الأمام كالمعتاد!

فقط وحين أصابه الإرهاق ـ وهذا حقه بعد كل ما مرَّ به ـ توقف يوسف بالسيارة ليطلب من سوسن بنظراته أن تواصل هي، فاستجابت له بأن احتلت مكانه وراء عجلة القيادة لتواصل القيادة في الطريق الذي امتد أمامهما بلا نهاية.. وبجوارها جلس يوسف صامتًا يحاول مقاومة ذكرياته ليسمح لأفكاره بالحركة قليلًا في رأسه المكدود.

إنه ليس الطريق الصحراوي الذي يعرفه.. بل إنه ليس أي طريق طبيعي، فحتى الآن لم تمر سيارة أخرى بجوارهما ولم يتغير المشهد من حولهما،

اللهم إلا من الشمس التي أخذت تواصل رحلتها في السماء تسابقهما في بلوغ الليلة الأخيرة.. هذه الملاحظة وجدت طريقها إلى عقل سوسن أيضًا، لكنها لم تخرجها من صمتها ولم تدفعها للتردد، بل إلى المواصلة.

إلى أين؟ إلى الأمام، فلا يوجد خيار آخر أمامهما.

والعجيب أن يوسف ـ على الرغم من كل ما حدث ويحدث ـ استسلم للنوم بجوارها وكأنه يقتنص فرصته الأخيرة في نوم هادئ لا سفر فيه إلى زمن بعيد أو إلى فصل جديد من فصول اللعبة.. لقد كان يعرف أنه حصل على الحقيقة كاملة، وأن كل ما تبقى أمامه هو أن يدفع الثمن، وهذا لن يحدث حتى يبلغا وجهتهما أيًّا كانت.. إذن.. فلماذا لا ينام الآن ليحصل على بعض الراحة، ولأول مرَّة منذ أن بدأت مأساته؟

لهذا أخذ يرمق الشمس الغاربة في صمت إلى أن غاب عن عالمنا، ليغوص في بحر أحلام امتزجت فيه الذكريات بالواقع بكوابيس كان الشيء بطلها، حتى استيقظ أخيرًا ليجد أن الظلام قد بدأ يصبغ السماء بلونه، وأن سوسن تواصل القيادة إلى جواره، وقد تصلَّب جسدها وارتسم الخوف على ملامحها بصورة دفعته لأن يعتدل على مقعده ليرمق المشهد من حوله عبر النافذة.

أمامه تبدل المشهد تمامًا، فلم تعد السماء والصحراء هما بطلي المشهد أمامه. بل، وعبر النافذة، وجد يوسف أنه يحدق في ضباب عجيب ساد العالم من حوله، وإن كشف عن أشجار ضخمة الجذوع تمتد إلى السماء، حتى تغيب قممها فيها كأنها تحمل السماء على عاتقها.. والسماء ذاتها كانت مختلفة.

كانت زرقاء، لكنها ليست كأي زرقة رآها في حياته.. حاوِل أن تتخيل السماء التي خلقها الله قبل أن تلوثها أدخنتنا وروائحنا وخطايانا.. وحاوِل أن تتخيل ذهول يوسف إذ أخذ يحدق فيها، وقد منحته ذكرياته الطازجة حقيقة لا جدال فيها:

لقد كان هنا!

إنه يذكر هذه الغابة.. ويذكر أنه زارها من قبل.. يذكرها ويذكر الألم الذي شعر به في عنقه حين كان في ذلك الجسد المصاب.. ويذكر صوت المرأة الساحر إذ أخذت تنشد أغنيتها لتستدرجه.. ويذكر كيف سقط في فخ المرأة ليراها تستحضر الشيء إلى عالمنا أول مرَّة.. ثم يذكر مطاردة صلاح له بين جذوع هذه الأشجار.

لقد كان هنا!

وذاهلًا التفت يوسف إلى سوسن ليصيح بلا صوت:

ـ لقد كنت هنا!

فلم تسمعه سوسن، وإن أجابت مفسرة بكلمات مرتجفة:

ـ لقد.. لقد انتقلنا.. إنه ليس عالمنا يا يوسف.

ليتصاعد صوت سوء حظه في رأسه من وسط كل الذكريات:

ـ ***بالطبع هو عالمنا.. لكننا في أرض مختلفة وربما في زمن مختلف.***

إنه ليس الماضي.. لقد أخذهما الشيء إلى نقطة البداية، لكنه لم يُعدْهما إلى لحظة البداية، فعلى الرغم من الضباب الذي غلف العالم من حوله شعر يوسف بأن هناك شيئًا ما مختلفًا.. بداية لم يكن هناك ذلك الطريق الذي تقود

فيه سوسن سيارة عصام الآن بجسد متصلب وبخوف أطلَّ من عينيها.. والأشجار ذاتها بدت عتيقة غاب أي أثر للحياة فيها، وإن بقيت منتصبة كجثث في مقبرة كانت تستحق لقب غابة في يوم من الأيام.. نعم.. إنه ليس الماضي، لكنه المكان الذي بدأ فيه كل شيء.. والذي سينتهي فيه كل شيء.

ـ *ولكن.. هل ستصمد سيارة عصام طويلًا وكأن وقودها لا ينضب؟*

تساءل سوء حظ يوسف فأجابه محرك السيارة بحشرجة معدنية تعالت منه فجأة قبل أن تنتفض السيارة ذاتها وكأنها تذكرت أنها خلت من الوقود، قبل أن تتوقف بهما وسط الضباب وجذوع الأشجار معلنة رفضها المواصلة.

لقد انتهى دورها في هذه القصة عند هذا الحد.

ومع توقفها بدأ جسد سوسن يرتجف، فاحتضن يوسف يدها بين أصابعه وضغط عليها محاولًا بثَّ بعض الطمأنينة إليها.. لا بأس.. إنني معك.. ولن أسمح لصلاح بالإمساك بك!

منحته سوسن نظرة توسل ترجو منه فيها البقاء، لكنه هزَّ رأسه بهدوء قبل أن يخرج من السيارة ليقف ينتظرها حتى لحقت به بعد لحظات من التردد، لتقبض على يده طفلة خائفة تخشى أن تضل طريقها من دونه، فتركها لها وملأ صدره بالهواء البارد ليستعد به لما هو آتٍ.

سيواصلان طريقهما سيرًا على الأقدام هذه المرَّة.. إلى أين؟

إلى الأمام!

* * *

ومن وسط جذوع الأشجار ظهر لهما ذلك المنزل في نهاية الطريق فأدركا أنه هدفهما.

منزل بدا لهما ككائن حي أسطوري أطل عليهما من وسط الضباب الذي أخذ يتراقص من حوله، وبالضوء الخافت الذي توهج عبر نافذتيه الأماميتين ليحوِّلهما إلى عينين تحدقان فيهما بلهفة وانتظار.. أمام المنزل امتدت مساحة ضخمة خلت من الأشجار، وعلى جانبيه تعاظم الضباب والظلام، ليبدو العالم كله كأنه ينتهي بهذا المنزل، تاركًا العدم من ورائه.. وكان المنزل يبدو كأنه يتنفس!

على الرغم من أنه كان يرقد أمامهما ساكنًا مهجورًا وقد امتزج بالموجودات من حوله ليشكل لوحة خرافية هو بطلها، إلا أن يوسف وسوسن توقفا أمامه وقد شعرا بانقباضة عجيبة تكتنفهما وقد بدا لهما أن جدران المنزل تتحرك في انتظام لا يتأتى إلا لكائن حي يتنفس في هدوء من ينتظر فريسته.. كائن حي نافذتاه هما عيناه وبوابته الضخمة التي ترتفع لعشرة أمتار على الأقل، فمه المغلق ينتظر أن يقتربا منه أكثر لينفتح لهما ليبتلعهما داخله.

إن الشيء في هذا المنزل.

هذا ما أيقناه على الفور، وعلى نحو لا يرقى إليه الشك.

الشيء في هذا المنزل، وينتظرهما الآن داخله، وفي البقعة ذاتها التي عبر فيها إلى عالمنا أول مرَّة.. لقد اتخذ من هذا المكان منزلًا، وفيه ستكون المواجهة الأخيرة، وفيه سيدفعان الثمن بعد أن انتهت كل فصول اللعبة.. وهذه المرَّة وجد يوسف نفسه يرتجف هو الآخر وقد أخذت يد

سوسن ترتعش في كفه، ومن صدريهما تصاعد صوت ضربات قلبيهما لتمنحهما الموسيقى التصويرية المتوترة اللازمة لهذا المشهد.. وببطء تلاقت نظراتهما وقد حملت السؤال ذاته: هل سندخل؟

وكأنهما يملكان عدة إجابات لهذا السؤال ليختارا منها!

والعجيب أن سوسن كانت هي من حسمت ترددها أولًا هذه المرَّة، لتتنهد ولتتوقف يدها عن الارتعاش بين أصابع يوسف قبل أن تفلتها، قائلة:

ـ هيا بنا.

اشتم يوسف في نبرتها رائحة يأس مميزة.. شعر به وإن لم يكن يملك صوتًا ليفصح به عنه.. إنها لم تعد تبالي.. لقد خسرت كل شيء، وأيًّا ما كان ينتظرها داخل المنزل فهي لم تعد تبالي.

ـ *وأنت أيضًا لم تعد تملك ما تخسره.*

قالها سوء حظه في رأسه ليقر بها حقيقة يعرفها يوسف، فاستسلم لها ليخطو تجاه المنزل وسوسن إلى جواره ليذوبا في اللوحة الخرافية أمامهما تدريجيًّا.. هنا وفي نهاية العالم وداخل هذا المنزل ستكون المواجهة الأخيرة.

وحين بلغا البوابة الضخمة وجدا أول إجابة في انتظارهما متمثلة في ثقبين لرتاجين في الباب، حدقت فيهما سوسن للحظة.

أخذ يوسف يحدق في تلك النقوش المنحوتة في جسد البوابة أمامه لتؤكد له ذاكرته أنها النقوش ذاتها التي يحملها المفتاحان، والتي تكفلت زوجة الدكتور مجدي بترجمتها له.. النقوش ذاتها التي رفعت إليها سوسن

عينين جامدتين لتقرأها وكأنما اكتسبت القدرة على قراءة هذه اللغة فجأة: «اثنان سيحملان المفتاحين.. أحدهما سيهلك.. والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية».

أخرجت مفتاحها من جيبها، قبل أن تنظر بجمود إلى يوسف الذي قاوم سيل الذكريات في رأسه، ليخرج مفتاحه هو الآخر وليتبادل الاثنان نظرات صامتة طويلة حملت السؤال السابق ذاته: هل سندخل؟

أجابت هي عن السؤال بالاستسلام في عينيها، وأجاب هو عنه بهزة رأس لا تعني شيئًا، قبل أن يدس مفتاحه في الرتاج الأول، لتدفن سوسن مفتاحها في الآخر وليدير الاثنان مفتاحيهما في اللحظة ذاتها.. هنا توهجت نافذتا المنزل الأماميتان بقوة، ثم انتفض الباب العملاق أمامهما قبل أن ينفتح لهما وببطء وبصرير استنكره صمت الغابة الضبابية من حولهما، فبدا لهما أشبه بتنهيدة راضية.. لقد سمح لهما المنزل بالدخول.

ومن دون أن يتبادلا المزيد من الصمت أو النظرات.. دخلا إلى المنزل ليبتلعهما ظلامه.

١٧

بمجرد أن خطا يوسف وسوسن إلى داخل المنزل، وبمجرد أن احتواهما الظلام في الداخل، تحركت البوابة من دون أن تمسسها يد لتنغلق ولتعزلهما تمامًا عن العالم الخارجي، فلم تتمالك سوسن نفسها وانتفضت وقد أدركت على الفور أنهما أصبحا سجيني هذا المنزل، وأن الحقيقة التي عليهما تقبلها الآن هي أنهما قد لا يخرجان من هنا أبدًا.

هنا وعند نهاية العالم ستكون نهايتهما ولن يعثر أحد عليهما ـ أو على ما سيتبقى منهما ـ وهي نهاية تليق بكل ما حدث لهما حتى الآن حقًّا.. أما يوسف فأصابته الوحدة من جديد وقد فقد رؤيته مع الظلام، ليجد أنه يقف معزولًا في صمت خيَّم على المكان، لم يعد له أي ذكرى من ذكريات حياته.

هذا الصمت يختلف.

في أي مرَّة سابقة خيَّم الصمت عليه كانت هناك أصوات موجودة، حتى وإن لم يدركها عقله.. أصوات خافتة أو أصوات بعيدة، لكن هذه المرَّة كان الصمت مطلقًا كالظلام الذي أحاط من كل اتجاه، وكان دويه في أذنيه مؤلمًا بحق.

لكنه وعلى الرغم من الصمت والظلام شعر بوجود ثالث معهما، ليؤكد له سوء حظه في رأسه:

- إنه هنا.. الشيء هنا.

ثم سطعت أول لوحة في جدران المنزل أمامهما.. وكأنما وِلدت من العدم.. تبدَّت لهما لوحة على الجدار ليجذب ضوؤها الخافت أعينهما على الفور، وليجدا فيها مشهدًا متحركًا للَّحظة التي التقى فيها يوسف سوسن أول مرَّة أمام كليتها.. تلك اللحظة التي كان قد اتخذ فيها قراره بنسيان قصة الدكتور مجدي كلها، قبل أن تجبره سوسن على المواصلة حين أخبرته بأن ابنه ـ الذي هو ليس ابنه ـ لا يزال حيًّا، وأن عليهما العثور عليه قبل فوات الأوان.

في اللوحة حدق يوسف ذاهلًا ليجد يوسف آخر لم يعد يمتُّ له بصلة.. يوسف الذي لم ينحل جسده إلى هذا الحد، ولم يفقد نصف جسده، والذي كان حليقًا يعاني من وحدته وسوء حظه ومن عمله في مجلة اسمها «المجلة» لا أكثر.. يوسف الذي كان بإمكانه أن ينجو لو لم يتبع سوسن يومها إلى ذلك الكافيه القريب من كليتها، ليدخل إلى عالم الشيء رغمًا عنه وليبدأ معه لعبته.

وسوسن أيضًا أخذت تحدق في اللوحة ذاهلة، وقد أعادت لها اللوحة بعضًا من ذكريات ما قبل موت سامح وجنون والديها، لكنها ـ والأهم ـ منحتها حقيقة هذا المنزل الذي ابتلعهما بين جدرانه وظلامه.

إنه المنزل ذاته الذي أخذها إليه الشيء سابقًا ليخبرها بقواعد اللعبة، والذي رأت فيه اللوحات التي تحكي قصتها.. المنزل الذي منحها فيه خيارها الوحيد الذي عجزت عن تنفيذه حتى الآن.

ثم سطعت اللوحة الثانية على الجدار، وفيها رأى يوسف وسوسن نفسيهما في اللحظة التي جلسا فيها في الكافيه القريب من كليتها حين أخبرها يوسف بأن أستاذها قد مات، وأنه الآن يصدق لكنه لا يعرف ما عليه فعله، وقد أخذت سوسن في اللوحة تتلفت حولها، وكأنها تبحث عن شيء أصبح يوسف يعرف أنه موجود.. يوسف يذكر هذه اللحظة جيدًا، ويذكر قائمة الكتب التي منحتها سوسن له يومها، ويذكر اسم كل كتاب كان في هذه القائمة.. ويذكر ابتسامتها يومها إذ قالت:

ـ لكنه الواقع يا عزيزي.. وعلى أرض الواقع قد يموت البطل.

ولكم كانت مُحقة!

لكنه الآن يذكر أيضًا أنه كان هنا.. لقد أخذه الشيء إلى هنا وأخبره بأن اللعبة مستمرة، وأن عليه أن يستعد، قبل أن ينقله إلى زمن «فلاد».. إنه يذكر أنه رأى نهايته في هذا الزمن في إحدى لوحات المنزل.. ويذكر أنه رأى لوحة المرأة.. ويذكر كيف بحث عنها طويلًا قبل أن يواجهها ليعرف ـ وبعد فوات الأوان ـ أنها «إليزابث باثوري».. إنه يذكر أن...

ثم سطعت اللوحة الثالثة، وفيها وجدت سوسن نفسها تجثم على صدر يوسف في سيارته، تقبض على السكين الذي قتل به الدكتورة ليلى، وتغرسه في عنقه محاولة أن تنقذ والديها من مصيرهما، ودموعها تسيل على وجهها.. تلك اللحظة التي كان من الممكن فيها أن ينتهي دورها في هذه القصة، لولا أنها تراجعت ليتدخل عصام وليصيبها برصاصته في رأسها.

كان عليها أن تقتل يوسف يومها.. كان عليها ألا تتراجع، وها هو

الآن يقف إلى جوارها يتمنى لو كانت فعلتها لتنقذه من كل ما حدث له بعدها.

ثم سطعت اللوحة الزابعة.. والخامسة.. والسادسة.. والسابعة...

ثم سطعت مئات اللوحات من حولهما دفعة واحدة ليجد يوسف وسوسن نفسيهما يحدقان في مئات الأشخاص من مختلف الأزمنة في أسوأ لحظات حياتهم.. أشخاص لا يعني وجودهم في هذه اللوحات إلا أنهم كانوا مثلهما.. ضحايا لعبة الشيء على مر العصور، وأين هم الآن؟

لا بد أنهم خسروا اللعبة ودفعوا الثمن!

ومع سطوع اللوحات أغرقهما الضوء الساطع للحظات فقدا فيها القدرة على الاستيعاب، قبل أن تُظلم اللوحات كلها فجأة، ليسود الظلام من جديد وليتعالى الصوت العابث يقول:

ـ *مرحبًا بكما في منزلي.*

فانتفض الاثنان والتفتا إلى مصدر الصوت على الفور ليستقبلهما الظلام، وقد توهجت فيه عينان صغيرتان تصاعد الصوت العابث من أسفلهما:

ـ *ها نحن نلتقي وللمرَّة الأخيرة.. فالليلة...*

ثم من الظلام تبدَّى لهما طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره، ذو شعر أسود فاحم وعينين لا تشي نظراتهما بسنِّه وقد لاح فيهما العبث ذاته الذي خرج في صوته، إذ قال:

ـ *سينتهي كل شيء.*

ثم وقف الطفل ـ الذي هو ليس طفلًا ـ أمامهما، ليسود الصمت المطلق من جديد وقد اختلط بالرهبة والبرودة.

هنا.. وعند نهاية العالم.. وفي منزله.. وقف الثلاثة وقد رددت نظراتهم الصامتة الحقيقة ذاتها.

إنها المواجهة الأخيرة.

أحدهم سيبقى.

والثاني سيهلك.

والثالث سيعيش في عذاب بلا نهاية.

وعلى شفتي الطفل تراقصت ابتسامة لم تتحمَّلها سوسن طويلًا، لتنفجر مهشمة جِدران الصمت التي أحاطت بهم:

ـ ما الذي تريده منا؟

ـ *بل ما الذي تريدانه مني؟ إنها فرصتكما الأخيرة لتعرفا كل شيء.*

قالها الشيء ثم التفت إلى يوسف مبتسمًا، ليردف:

ـ *يمكنك أن تتحدث هنا يا عزيزي.. لقد أعدت لك صوتك.. مؤقتًا.*

فتردد يوسف قبل أن يحاول النطق كأنها أول مرَّة له، ليخرج صوته منه خشنًا غريبًا على أذنيه بعد طول غياب:

ـ لـ.. لماذا؟

هنا تلاشت ابتسامة الطفل من على وجهه ليحل المقت محلها، قبل أن يجيب بصوت فقد نبرته العابثة:

ـ لأنني مثلك يا يوسف.. لأنني سيِّئ الحظ.. أنت تعرف أنني جئت إليكم من عالم آخر.. لكنك لم تعرف الحقيقة كاملة بعد.. القصة لم تبدأ بوصولي إلى هنا، بل بدأت قبلها بكثير.. بكثير جدًّا.

ومع كلماته أخذ جسد الطفل أمامهما يذوب في الظلام الذي اشتدت كثافته من حول يوسف وسوسن، حتى شعرا به ينقض عليهما فجأة، قبل أن يفقدا شعورهما بالأرض من أسفلهما ليبدآ رحلة السقوط.

وهذه المرَّة لم يصرخا ولم يحاولا الصراخ حتى.. لقد كانا يعرفان ما يحدث لهما، فهي لم تكن مرَّتهما الأولى.. لكنها كانت الأخيرة.

* * *

ضرب العجوز عصاه في الأرض فرددت الجبال الصدى صاغرة.

كان هذا أول ما رآه يوسف حين فتح عينه ليجد سوسن بجواره والجبال تحيط بهما من الجانبين، وقد امتد أمامهما ممر ضيق سار فيه عجوز، وقد أولاهما ظهره، وهو يضرب الأرض بعصاه، من دون أن يلتفت إليهما وكأنه لا يشعر بوجودهما على الإطلاق.. أو كأنه لا يبالي بوجودهما.

على الفور اعتدل يوسف جالسًا ليجد أنه احتفظ بجسده ولأول مرَّة ينتقل فيها إلى زمن بعيد، وأن سوسن أيضًا احتفظت بجسدها وبذهولها، وقد أخذت ترمق الجبال من حولها محاولة تعرُّف المكان الذي انتقلا إليه.

إنها تعرف أنه الماضي.. الماضي السحيق لو شئنا الدقة، فلو كان يوسف قد زار زمن المرأة التي استحضرت الشيء إلى عالمنا أول مرَّة، فهذا الزمن الذي بلغاه الآن يسبق زمن المرأة.. يسبقه بكثير جدًّا كما أخبرهما الشيء.. لكن..

أين هما؟

المشهد من حولهما كان ساكنًا لا يتحرك فيه إلا العجوز وعصاه.. والعجوز كان ضخمًا، تمتد قامته لتتجاوز الأمتار الثلاثة، ويمتد شعره وشعر لحيته ليبلغا منتصف ظهره وصدره.. عصاه بمفردها كانت أطول منهما، وكانت تدق الأرض الصخرية من أسفلها لتردد الجبال الصدى وكأنه الغرض الوحيد لوجودها هنا: أن تحجب العالم عنهما وأن تردد الصدى صاغرة.

وكانت اللهفة بادية في خطوات العجوز المسرعة المتسعة، فهبَّ يوسف واقفًا على الفور، ليقول بصوته الذي أعاده له الشيء مؤقتًا:

ـ يجب أن نتبعه.

ثم ساعد سوسن التي لم تعترض على قوله على الوقوف، قبل أن يحثا الخطى ليتبعا العجوز وعصاه بأقصى ما استطاعاه من سرعة، وقد أعلن الموقف أمامهما أنه خيارهما الوحيد.. لا يوجد سوى العجوز والممر وسط الجبال، فإلى أين سيذهبان إذن؟

هكذا أسرعا وراء العجوز الذي واصل طريقه وقد أخذت الرياح في الممر تقاومه، من دون أن تحدَّ من سرعته، وقد أخذ يواصل ضرب الأرض بعصاه، وفي كل مرَّة يتعالى الصوت فالصدى، قبل أن ينضم إليهما لهاثا يوسف وسوسن اللذين تحولت خطواتهما إلى عَدْوٍ حقيقي حاولا به مواكبة خطوات العجوز العملاقة.

إنه الماضي.. إنهم وسط جبال في مكان ما على أرضنا.. سيكتفيان بهاتين الحقيقتين وسيبقى السؤال الثالث يداعب مخيلتيهما وهو: من هذا العجوز؟

جسده الضخم لا يعلن إلا عن أنه ينتمي إلى هذا الزمن، فالتاريخ يؤكد أننا كنا ضخامًا أشداء، قبل أن تنحدر الحال بنا بفضل الحضارة الإنسانية لاحقًا.. ملابسه التي فقدت لونها لا تكشف إلا عن طول رحلته ومشقتها بكل الغبار والأتربة البادية على كل خيط في ردائه.. وعصاه التي يدق بها الأرض أكدت لهما حقيقة أن الممر يرتفع بهما وسط الجبال، ولهذا هو يحتاجها، ولهذا هما يلهثان مع المجهود ونقص الأكسجين.. لكن.. من هو؟

سؤال سيضطران إلى تجاوزه قبل أن يلفظ لهما سؤال «إلى أين هم ذاهبون؟»، فالمهم الآن أن يلحقا به على أمل أن تمنحهما رحلتهما الأخيرة هذه الإجابات التي انتظراها طويلًا.. إنه حقهما لو كانا سيهلكان!

فقط كان السؤال الأخير الذي وجد طريقه إلى عقل يوسف ليتجاهله بإرادته هو: أين الشيء؟

لقد كان موجودًا في كل زمن أخذه إليه، وكان يشعر به في كل مرَّة.. لكنه.. لكنه ليس هنا وهو واثق بهذا.

لأول مرَّة ومنذ زمن بعيد يشعر يوسف بغيابه، والعجيب أن هذا الشعور لم يُثِرْ في جسده إلا قشعريرة غامضة.. وكأنه يستغرب العالم في عدم وجود الشيء أو.. كأنه يفتقده!

لكنه احتفظ بخواطره هذه لنفسه، ليواصل طريقه مع سوسن التي استبد بها حماس دراسة التاريخ القديم، ليمنحها الطاقة اللازمة لتقاوم إجهادها ولتحثَّ الخطى وراء العجوز، الذي لم يبدُ عليه أنه شعر بوجودهما حتى الآن.. فقط واصل طريقه وضرب الأرض بعصاه، وفي كل مرَّة أخذت الجبال تردد الصدى، وكأنها كالعجوز لا تبالي بوجودهما.

وفي السماء أخذت الشمس الغاربة تسابقهم إلى نهاية الممر، حتى بلغوه أخيرًا ـ وقبل أن يفقد يوسف وسوسن قدرتيهما على المواصلة بلحظات ـ ليجدا أن العجوز توقف أمام قصرٍ لم ترَ له سوسن مثيلًا، ولم تقرأ عن واحدٍ يماثله في أيٍّ من كتب التاريخ التي أفنت فيها عمرها.

قصر هائل الضخامة، ذو قبة لامعة عكست ضوء الشمس الغاربة لتضيء المكان من حولها بلون أحمر متوهج، امتزج بنعومة من زرقة السماء من حوله، وقد احتلت بوابة عملاقة مدخله، ليقف العجوز أمامها تمامًا، وليرفع رأسه إلى السماء كأنه يملأ بها عينيه للمرَّة الأخيرة، قبل أن يدق الأرض بعصاه بقوة، لتنفتح البوابة العملاقة أمامه سامحة له بالدخول، ليغيب داخل القصر تاركًا البوابة مفتوحة من ورائه تنتظر يوسف وسوسن اللذين تبادلا نظرة صامتة.. وبمزيج من الرهبة والتردد تساءلت سوسن:

ـ ما الذي ينتظرنا في الداخل؟

فأجابها يوسف بثقة:

ـ الحقيقة.

ثم تبع العجوز إلى داخل القصر لتلحق به سوسن بعد أن رفعت رأسها إلى السماء لتملأ عينيها بها.

كأنها مرَّتها الأخيرة.

* * *

وفي داخل القصر وقف العجوز مستندًا إلى عصاه يرمق الظلام الذي أحاط به منتظرًا.

ومن ورائه تقدم يوسف وسوسن بحذر وإن تعالت أصوات خطواتهما مع اتساع المكان على نحو أكد لهما أن العجوز لا يشعر بهما حقًّا.. من المستحيل ألا يكون قد شعر بهما حتى الآن وقد أصبحا على بُعد خطوات منه، وهذه الحقيقة استوعبها يوسف أولًا، ليضيف إليها حقيقة أنهما يحتفظان بجسديهما في هذا الزمن وحقيقة عدم وجود الشيء فيه، ليكون الناتج النهائي أمامه هو أنهما هنا ليشاهدا لا أكثر.

لا توجد لعبة.. لا يوجد خيار.. ولن يدفع الثمن قطعة من جسده كما كان يحدث في كل مرَّة.

هذه المرَّة هما هنا ليحصلا على الحقيقة فحسب.

لهذا لم يشعر بهما العجوز، ولهذا لم يبدُ عليه أنه رآهما حين التفت إليهما أخيرًا بوجه قُدَّ من التجاعيد والتوتر، ليرفع صوته مناديًا بلغة لم يسمعا لها مثيلًا وإن فهماها على الفور:

ـ لقد اتخذنا قرارنا.

فرددت جدران القصر الخاوي صوته حتى ملأه، قبل أن يُفاجأ يوسف وسوسن بالظلام الذي كان يربض في أركان القصر يتحرك مستجيبًا للنداء.. ككيان مادي لا بداية له ولا نهاية تحركت كتل الظلام من كل اتجاه لتتجمع أمام العجوز مباشرة، ولتتشكل فيما يشبه وجهًا هائلًا لا ملامح له، وإن توهجت فيه عينان حدقتا في العجوز مباشرة.. كيان أدرك يوسف وسوسن على الفور أنه ليس الشيء، ولكنه ينتمي إليه بصورة أو بأخرى.. كيان يعلن وبصراحة عن أن الشيء الذي يعرفانه لم يكن الوحيد، بل إن هناك آخرين.

ومن الوجه تعالى صوت لا ينتمي إلى عالمنا أجاب وباللغة ذاتها:

ـ *وما هو القرار؟*

كان الوجه يماثل قامة العجوز طولًا وإن لم يستقر على جسد، وأمامه ارتجف العجوز بخوف مبرر ليقول:

ـ يجب أن ترحلوا.

قالها فتضاعف توهج العينين في الوجه المظلم أمامه، ليتعالى الصوت الرهيب غاضبًا هذه المرَّة:

ـ *هذا لن يكون.*

وارتجفت جدران القصر ذاته مترقبة رد العجوز الذي تردد قبل أن يقول:

ـ بل هو قرارنا الأخير.. هذه الأرض لن تتسع لنا ولكم.. إما نحن.. وإما أنتم.

فجاءه الرد في هيئة صرخة أطارت خصلات شعره وزادتها شيبًا:

ـ *إذن نحن.*

ثم فقد الوجه أمام العجوز هيئته وإن ظلت العينان المتوهجتان تُطلان من كتلة الظلام التي أخذت تنتشر في المكان، ليواصل الصوت وبالغضب ذاته الذي ارتجف له العجوز:

ـ *بعد كل ما تعلمتموه منا تطالبوننا بالرحيل.. بعد كل ما فعلناه من أجلكم، وبعد أن علمناكم طقوس السحر، ومنحناكم القوة تجرؤون على رفض وجودنا.. أتعتقدون أنكم قادرون على المواصلة بمفردكم؟*

فلم يُجب العجوز، بل أغمض عينيه محاولًا التماسك وتجاهل كتل الظلام التي بدأت تحيط بجسده، والتي تعالى منها الصوت يقول:

ـ *لن نرحل ولن تستطيعوا إجبارنا على الرحيل.. سنبقى.. ولو لزم الأمر فسنقضي عليكم جميعًا.*

ومن حول العجوز، ومن كتل الظلام التي بدأت اعتصار جسده، أخذت أعين أخرى في التوهج محدقة فيه وبالغضب ذاته.. آلاف الأعين وِلدت من الظلام فجأة وأخذت في التوهج صامتة، ليتعالى الصوت مرَّة أخرى حاملًا نبرة عبث انتفض لها يوسف وسوسن، قائلًا:

ـ *وهذا هو قرارنا الأخير.*

هنا فتح العجوز عينيه ليجيب بهدوء استنكرته الأعين المتوهجة من حوله وأصاب يوسف وسوسن بالحيرة:

ـ وماذا لو أغلقت الثغرة بين عالمينا؟

ثم ابتسم مردفًا:

ـ حينها سيكون عليكم الاختيار بين البقاء هنا إلى الأبد أو العودة إلى عالمكم بلا رجعة.. وحينها.. ستدفعون ثمن هذا الاختيار.

ولسبب ما بدا هذا المشهد مألوفًا ليوسف وسوسن اللذين لم ينطقا بحرف، سامحين للصوت الهادر بأن يتعالى صائحًا وقد فقد نبرة العبث فيه:

ـ *لن تجرؤ.*

ـ لا.. سأفعل لو لزم الأمر.. إنني أملك طقوس التحكم في الثغرة، وأعرف ما سيحدث لكم لو سُجنتم هنا.

فأطبق صمت ثقيل على المكان وإن أخذت آلاف الأعين المتوهجة في الدوران حول العجوز الذي تجاهلها ليواصل التحديق بثبات في العينين اللتين اقتربتا منه ببطء، وقد أخذ الوجه يتشكل أمامه من جديد، ليقول في النهاية:

ـ *لو رحلنا فسنأخذ معنا كل ما منحناه لكم.. ستبدأون رحلة الانحدار وسينتهي بكم الحال تواجهون الفناء لأنكم لا تستحقون سواه.*

ـ سنخاطر.

ـ *لن تستطيع إغلاق الثغرة إلى الأبد.. الحواجز بين عالمينا ستلتقي ثانية وستسمح لنا بالعبور من جديد.*

ـ لن يستدعيكم أحد منا ولن تتمكنوا من العودة أبدًا.

ـ *بل ستستدعوننا.. نحن أعلم بكم أيها الأحمق.. سنعود.. وحينها.. ستكون نهايتكم.*

ومن حول العجوز أخذ الظلام ينتشر ويتماوج وينتفض لتتوهج فيه المزيد من الأعين، لكن العجوز ضرب الأرض بعصاه معلنًا النهاية، قائلًا:

ـ لن نسمح لكم بالعودة أبدًا.

ثم بدأ العجوز في ترديد طقوس لم يسمع لها يوسف مثيلًا، وإن ميَّز على الفور أنها ليست طقوس الاستدعاء التي رددتها المرأة في الغابة أو التي رددها «فلاد» قبل أن يمنح جسده للشيء.. طقوس انتفضت لها الأعين في الظلام، وتصدعت لها جدران القصر منذرة بالسقوط على رأسه، لكنه واصل ترديدها بإصرار، لتتعالى صرخة الشيء أمامه هادرة تكاد تطيح به، وليتراقص لها الأمل في صدر يوسف وسوسن و.. و..

ولكنهما لم يجدا الوقت الكافي ليُصغيا إلى الطقوس كاملة.

من حولهما تعاظم الظلام فجأة كأنه يعلن لهما نهاية وجودهما في هذا الزمن، قبل أن تتلاشى الأرض من أسفل أقدامهما فجأة، ليبدآ رحلة السقوط، قبل أن يحصلا على وسيلة خلاصهما كاملة.

وهذه المرَّة صرخ يوسف بكل ذرة في جسده.. لكنها كانت صرخة غضب!

* * *

فتح يوسف عينيه ليجد أنه يرقد في ذلك الوادي البارد وصرخته لا تزال تتردد في أذنيه.

هبَّ واقفًا على الفور ليجد أن سوسن ما زالت بجواره، لكن العجوز والقصر وكل الأعين المتوهجة تلاشت، ليحل محلهم ذلك الوادي المظلم الذي تتلألأ من فوقه ملايين النجوم في سماء رائقة لا تبالي بكل ما يحدث من أسفلها.. تلفت يوسف حوله باحثًا عن الأمل فلم يجده، ليصرخ من جديد غاضبًا وقد أدرك أنهما فقدا فرصتهما الأخيرة للقضاء على الشيء، قبل أن تسرع له سوسن لتقاطعه صائحة:

ـ يوسف.. إنهم هنا.

فتوقف يوسف عن الصراخ لاهثًا ليستمع إلى صوت تعالى من وراء الأشجار القريبة منهما، اختلطت فيه الكلمات بصوت أغصان تحترق، ليتبادل نظرة سريعة مع سوسن قبل أن يسرع الاثنان إلى مصدر الصوت وقد امتزج الأمل في صدريهما باليأس.

مَن يدري؟ ربما لم ينتهِ الأمر بعد.

لكن رحلتهما القصيرة انتهت بهما إلى حيث تجمع عدد من الرجال يماثلون العجوز ضخامة، وقد تجمعوا حول جثته التي رقدت ساكنة على أرض الوادي بجوار حفنة من الأغصان التي أخذت تحترق لتضيء المكان من حولها، وقد أطلت من ملامح العجوز سكينة لم تجد طريقها إلى نفس يوسف أبدًا.. وأمام الجثة أعلن أول الرجال:

ـ لقد رحلوا أخيرًا.

فأشار الثاني إلى العجوز، ليقول:

ـ لكنه دفع الثمن.

ـ لقد كان يعرف أن هذا ما سيحدث.. المهم أنه فعلها وقبل فوات الأوان.

ليتساءل الثالث:

ـ لكن.. هل انتهى الأمر حقًّا عند هذا الحد؟

ـ لقد أُغلقت الثغرة بين عالمنا وعالمهم.

ـ لكنها ستُفتح من جديد.. نحن نعرف هذا ونعرف ما قد يحدث لو جرَّب أحدهم طقوس استدعائهم.

فتعالى صوت الأول مقررًا:

ـ لهذا يجب أن نقضي على هذه الطقوس.. من دونها لن يتمكن أحدهم من العودة أبدًا.

يتبادل الرجال النظرات الصامتة، ويتهاوى يوسف على ركبتيه قربهم وقد تصاعدت غصة مريرة في حلقه، وتقول سوسن وبذات المرارة:

ـ لكن أحدهم سيعود.

فلم يسمعها الرجال وإن أعلن أحدهم:

ـ سنقضي على الطقوس إذن.. وستكون نهاية وجودهم في عالمنا الليلة.. والآن.

ثم مدَّ الرجل يده ليلتقط غصنًا مشتعلًا من كومة الأغصان وليلقي بنظرة وداعٍ على العجوز، قبل أن يقول:

ـ وهذا هو قرارنا الأخير.

وببساطة ألقى بالغصن المشتعل على جثة العجوز لتشبَّ النار في ملابسه وليتحول جسده الراقد أمامهم إلى كتلة من النيران أخذت تتعالى وتتراقص باستمتاع ساخر.. كأنها تعرف!

ثم أحاط الظلام بيوسف وسوسن فجأة لتتلاشى الأرض من أسفل أقدامهما.

* * *

وهذه المرَّة وجدا نفسيهما فجأة في منزل صغير، بدا فيه كل شيء يشابه ما يعرفانه في زمانهما.

كان هناك ما يشبه المدفأة، وفيها تراقصت النيران لتنشر بعض الدفء على ما بدا أنه يشبه منزلًا صُنع من الخشب والحجارة، وقد استقر قربهما ما يشبه المقعد وقد جلس عليه رجل أَوْلاهما ظهره، يكتب على ما يشبه

الورق بتركيز شديد من دون أن يشعر بهما ومن دون أن يتوقف عن الكتابة ولو للحظة.

جلس يوسف من دون رغبة حقيقية في الوقوف محتفظًا بيأسه لنفسه، لتقف سوسن ببطء ولتتجه إلى الرجل المنهمك في أوراقه وقد توقعت ما سيكون في انتظارها لسبب ما، فلم يخيِّب الرجل توقعها.. لقد كان أحد من كانوا في الوادي وكان ما يكتبه باللغة التي لم تتعرَّفها سوسن ـ وإن فهمتها ـ هو ملخص كامل لكل ما حدث في تلك الليلة.

لماذا كان يكتبه؟ للتاريخ!

كان يكتب بتلك اللذة الغامضة التي تعرفها سوسن والتي عانت منها طويلًا.. لذة أن ما ستروية سيبقى.. لذة أنك تخط التاريخ بيديك لتقرأه الأجيال القادمة لعلها تتعظ أو تتفكر.. لذة أن تحكي التاريخ.. لا كما حدث.. بل كما ستذكره أنت.

ومن دون أن يتحرك يوسف من مكانه، ومن دون أن يلقي ولو نظرة واحدة على الأوراق، قال:

ـ إنه يكتب الطقوس.. أليس كذلك؟

فأجابته الصدمة في عيني سوسن بالإيجاب.

لكنه لم يبالِ، ولم تزده إجابتها إلا يأسًا، على الرغم من أنه كان يثق بأن هذا ما يحدث فعلًا.. أحدهم سيكتب الطقوس لتبقى وليأتي من يستخدمها لاحقًا ليعيد الشيء إلى عالمهم.. هذا ما حدث وهذا ما «يحدث» الآن أمام عينه من دون أن يملك إيقافه أو الاعتراض عليه حتى.

ـ يوسف.. يجب أن نمنعه!

قالتها سوسن وكأنهما يملكان طريقة لمنع الرجل من كتابة نهايتهما، فأجابها يوسف بابتسامة تشبه البكاء، ثم أشاح بوجهه عنها ينتظر الرحيل، فلم يطل انتظاره.

من حوله تعاظم الظلام بهدوء فأغلق يوسف عينيه وترك الأرض تتلاشى من أسفله.

* * *

وعلى الشاطئ أخذت تلك الفتاة الصغيرة تلهو غير عابئة بكل ما يحمله لها الزمن من مِحن وأحزان.

كانت ترتدي ما خفَّ من الثياب وقد تغطى جسدها برمال الشاطئ، وعلى مسافة منها كان أبوها يجلس يتفحص بقايا ورقة متآكلة منحتها له مياه البحر، وعلى مسافة منهما اعتدلت سوسن أولًا جالسة تاركة يوسف يرقد بجوارها مسترخيًا برضا لم يشعر به من قبل وهو الذي لم يَزُر الشاطئ في حياته قطُّ.

وعلى الرغم من أن سوسن لم تتعرَّف الزمن الذي انتقلا إليه هذه المرَّة، فإن يوسف أدرك أنهم قفزوا إلى المستقبل الذي يظل بالنسبة إليهما جزءًا من ماضٍ سحيق يحمل لهما ما تبقى من القصة والحقيقة.. كيف عرف هذا؟ إنها الخبرة التي لا يملكها إلا من تنقل عبر الزمن أكثر من اللازم، وهو قد أصبح خبيرًا في هذا المجال!

كانت الشمس تتوسط منتصف السماء هذه المرَّة، تبعث الدفء والأمان إلى الوجود، فلم تستقبل سوسن أيًّا منهما، بل تحاملت على نفسها لتقف

تتأمل المشهد من حولها، قبل أن تتجه إلى الرجل وورقته المتآكلة بين يديه، وقد منحها المنطق الذي خاصمها طويلًا حقيقة تلك الورقة من قبل أن تراها.. إنها تحوي الطقوس التي كتبها الرجل للتاريخ وللأجيال القادمة، وها هي تبلغ يدي من سيستخدمها لاستدعاء الشيء إلى عالمنا لاحقًا.. كيف انتقلت الورقة من منزل مَنْ كتبها إلى البحر ثم إلى يدي والد تلك الطفلة؟ إنه حس الدعابة الذي يملكه التاريخ والذي قرأت عنه كثيرًا، وها هي الآن تشاهده بعينيها حقيقة دفعت ثمنها في زمنها.

لكن أبا الطفلة كان عاجزًا عن قراءة الطقوس التي كتبت بلغة لم يعد لها وجود في زمنه ـ استكمالًا لحس الدعابة لا أكثر ـ وحين انضم يوسف إليها بجوار الرجل الذي لم يشعر بهما، قالت:

ـ هكذا سيبدأ الأمر إذن.. لكنه لا يستطيع قراءة الطقوس.

فأجابها يوسف بيقين من يعرف ما سيحدث تمامًا:

ـ لكنه سينقل الورقة لمن يستطيع قراءتها.. وحينها...

ولم يكمل، وكأنه يخشى أن يفسد الدعابة التي هما بطلاها.. فقط قرر تجاهل الرجل والطقوس بين يديه وأرسل نظراته إلى الطفلة التي أخذت تلهو بالقرب منهما، ليبتسم وليتذكر طفولته.. وعدته أمه يومًا ما بأن تأخذه إلى الشاطئ، لكنها لم تفِ بوعدها قطُّ.. الموت داهمها أولًا ليأخذها هي إلى شاطئ الرحيل وليتركه هو على بر الحياة القاسية.

علاقته بالبحر تحولت إلى علاقة بصور له يطالعها كلما اشتاق إليه، وأمنية ها هو الشيء يحققها له وبعد كل هذه السنوات.

لكن الطفلة بدأت في الغناء فجأة وبأجمل صوت سمعه يوسف

في حياته فانتفض، وقد أكدت له ذاكرته الخارقة أنه سمع تلك الأغنية وبالصوت الساحر ذاته من قبل.. ثم منحته ذكرياته ألمًا حادًّا في عنقه ليساعده على التذكر أسرع.

نعم.. لقد سمع هذه الأغنية وبهذا الصوت.. سمعها حين كان في الغابة ينزف من عنق أول جسد احتله في أول فصل من فصول لعبة الشيء.. لقد كانت المرأة في الغابة هي من تغني ليلتها لتستدرجه إلى حيث استحضرت الشيء في جسد زوجها.. إن هذه الفتاة التي تلهو أمامه الآن هي ذاتها المرأة في الغابة، ولكنها الآن لا تزال طفلة لا تدرك أي كارثة ستتسبب فيها لاحقًا!

ومع الصوت الساحر انتفض جسد يوسف ثانية، فتساءلت سوسن وقد فهمت ما تعنيه انتفاضته:

ـ يوسف.. ما الذي عرفته؟

فلم يجبها يوسف، ولم تعد ساقاه قادرتين على حمله فتهاوى على ركبتيه على رمال الشاطئ، لتداهمه رغبة عارمة في الضحك فجأة، فاستسلم لها لتدوي ضحكاته في المكان تحمل جنونًا قاومه طويلًا حتى فقد قدرته على المقاومة.

إنها المرأة في الغابة.

إنها المرأة في الغابة.

إنها المرأة في الغابة.

هكذا تجتمع القطع كلها لتشكل الصورة النهائية، لكن سوسن عاجزة

عن رؤيتها مثله، فهي لم تخض ما خاضه هو، ولم تدفع الثمن غاليًا من جسدها.. إنها لم تفهم بعد لكنها ستفهم.. متأخرةً جدًّا ستفهم.

بجواره يجلس الرجل يحاول قراءة الطقوس، وأمامهم تلهو الطفلة غير عابئة بكل ما سيحدث لاحقًا فهي لا تعرف.. ثم تعاظم الظلام من حولهما فجأة و...

* * *

قال الدكتور مجدي بنبرة رجل لم يعد يملك سوى الحزن والذهول:

ـ لماذا قتلتها؟

كان يجلس في غرفة مكتبه المظلمة مكتفيًا بضوء القمر الذي تسلل عبر النافذة ليزيده شحوبًا، وكانت عيناه شاردتين وكأنما وجَّه سؤاله للفراغ المظلم أمامه.. لكن الصوت العابث تصاعد ليجيب:

ـ *أنت تعرف لماذا؟*

ثم مال الطفل عليه ليدخل وجهه دائرة الضوء، وليردف:

ـ *لأنني لم أعد في حاجة إليها.*

كان يوسف يرقد في ظلام الغرفة أمامهما وجواره سوسن التي أدركت على الفور عمَّن يتحدث الدكتور مجدي.. اعتدلا جالسين من دون أن يحاولا التدخل، تاركين الدكتور مجدي يواصل:

ـ لكنها.. لكنها لم تفعل شيئًا.

فيبتسم الطفل أمامه ولا يجيب.. وتجد الحقيقة الثانية طريقها إلى عقل

سوسن لتأخذ في استيعابها ببطء.. إنها الآن تنظر إلى الدكتور مجدي، وبعد أن التقته للمرَّة الأخيرة.. المِطرقة على الطاولة أمامه أخبرتها بأنها الليلة التي سيحاول فيها قتل الشيء، لكن الحوار الذي دار بينه وبين الشيء كان أهم من هذه المحاولة التي انتهت بفشله فسجنه فموته بعد أن استنفد الشيء حاجته منه.. الحوار الذي استكمله الشيء في جسد الطفل قائلًا:

ـ ألم تكن هي من بدأت كل شيء؟

فيجيب الدكتور مجدي مدافعًا عنها:

ـ لم تكن تعرف الذي ســ...

ـ كاذب.

قاطعه الشيء بصرامة ابتلع معها الدكتور مجدي ما تبقى من كلماته بمرارة وصمت، ليواصل الشيء:

ـ لقد كانت تعرف الحقيقة.. لقد رأت كل شيء في أحلامها.. رأت كيف طردَنا قومك من عالمكم ورأت كيف عدت أنا بعدها مرغمًا... رأت كيف أصبح عليَّ أن أخوض القرون وحيدًا لا أستطيع الاكتمال ولا أستطيع العودة.. لقد كانت تعرف كل شيء، ومن أجلها بحثت أنت عني... أليس كذلك؟

فتصاعد صوت الدكتور مجدي متخاذلًا هذه المرَّة، ليقول:

ـ لقد.. لقد كنت أحاول إعادتك.

ـ بل كنت تحاول القضاء عليَّ.. لكن.. كيف كنت ستفعلها؟

فاستعاد الدكتور مجدي صمته المرير، وفي المكان تصاعدت رائحة

ما سيحدث بعد قليل.. ذات الرائحة التي اشتمها عصام ويوسف والتي لا تعني إلا أن الموت قريب.. ثم عاد الوجه الطفولي إلى الظلام ليخفيه عن الأعين، وليتعالى الصوت العابث:

ـ هل قررت استبدال طقوس القضاء عليَّ بتلك المِطرقة؟

فانتقلت عينا الدكتور مجدي إلى المِطرقة ثم إلى الظلام الرابض أمامه، ليجيب:

ـ وهل توجد طقوس للقضاء عليك؟

هنا خفق قلب سوسن ويوسف لهفة منتظرين إجابة الشيء، لتأتيهما أخيرًا:

ـ أنت تعرف أنه لا وجود لها.

لتهوِي إجابة الشيء عليهما كالصفعة.. وفي أعماق يوسف وسوسن تهشم أمل كانا يظنان أنهما فقداه منذ زمن طويل.

ـ لقد كنت أنا من نشر هذه الكذبة ليبحث الجميع عنها وليجدوا طقوس استدعائي بدلًا منها.. هكذا ضمنت البقاء بفضل كل أحمق رددها على مرِّ التاريخ.. قديمًا كنت أقنعكم بأنها طقوس تمنح الخلود.. لكن لكل زمن كذبته المفضلة.

فهزَّ الدكتور مجدي رأسه بتفهم قبل أن يخرج صوته متوسلًا، ليقول:

ـ سوسن.. أرجوك لا تؤذها!

فران صمت ثقيل على المكان واحتشدت دموع الامتنان في عيني سوسن، قبل أن يجيب الشيء:

ـ سيأتي دورها لاحقًا.. وسنستمتع معًا.. أعدك بهذا.. لكن ليس الليلة.

ثم في اللحظة التالية تعالى صوت الشيء بجوار باب الغرفة، وقد تضاعفت نبرة العبث فيه:

ـ سأكون في انتظارك.

وأمام عيني يوسف وسوسن خرج ابن الدكتور مجدي ـ الذي هو ليس ابنه ـ من الغرفة، ليُطرق الأول رأسه في يأس دام لدقائق طويلة، قبل أن يقبض على المِطرقة الثقيلة، ليغادر مكانه ببطء وليتبع الشيء إلى حيث سيحاول وسيفشل.

ومن حول يوسف وسوسن تعاظم الظلام معلنًا نهاية رحلتهما.

* * *

احتواهما ظلام المنزل من جديد ليدركا أن لحظة الحقيقة قد حانت.

ومن أمامهما تعالت الخطوات الهادئة، قبل أن يتبدّى لهما الشيء في هيئة الطفل حاملًا لهما أسوأ كوابيسهما على الإطلاق، ليتعالى صوته العابث معلنًا:

ـ ها أنتما قد حصلتما على الحقيقة كاملة.. تمامًا كما وعدتكما.

ثم ابتسم بقسوة لا تنتمي إلى هذا العالم، ليردف:

ـ والآن يأتي دور خياركما الأخير.

١٨

ذات مرَّة تساءل يوسف: تُرى.. هل الموت مؤلم؟

عمله في صفحة الحوادث منحه هذا السؤال ليقضي معه ليلة من ليالي وحدته، يفكر في الأمر ويتساءل: هل الموت مؤلم؟

هناك من يقولون إنه ليس كذلك.. يقولون إن الطعنات لا تؤلم حقًّا، بل ما تنزفه من دماء بعدها هو ما يقتلك.. إن الرصاصة لو أصابتك فلن تشعر بها.. إما سترحل وإما ستستيقظ لاحقًا في أحد المستشفيات لتجد من يخبرك بأنهم أخرجوا الرصاصة من جسدك وانتهى الأمر.

هناك من يقولون إن الموت غرقًا لا يؤلم.. حين تمتلئ رئتاك بالمياه وتفقد القدرة على التنفس فلن تشعر إلا بوعيك ينسحب منك ببطء كأنك تخلد إلى نوم لن تستيقظ منه أبدًا.. هكذا وبكل بساطة.. الأمر ذاته يحدث لمن يموتون في الحرائق والذين يخنقهم الدخان قبل أن تشوي النيران أجسادهم.. كل ما يحدث لهم هو أنهم يخلدون إلى النوم لا أكثر.

من تنقلب بهم السيارة لا يشعرون بشيء، ومن يهوون من أعلى يفارقون

أجسادهم قبل أن يصطدموا بالأرض، ومن يصعقون لا يجدون الوقت الكافي للتألم.. بل إن هناك من يقولون إن الموت بالسرطان ذاته لا يؤلم مع كل المسكنات التي يسكبونها في دمائك قبل أن تحتضر.

هناك من يقولون إنه لا يوجد موت مؤلم، لكنه - وأيًّا كانت طريقته - مؤسف حقًّا، والشيء الوحيد الذي قد يؤلم فيه هو مقدار الحزن الذي يتركه في نفوس من سيفتقدونك حين تموت!

وهذه النقطة تحديدًا يصدقها يوسف تمامًا ويدرك أنها حقيقة لا جدال فيها، فهو عانى حزنه على موت والديه اللذين تمنى ألا يكونا قد شعرا بالألم في لحظاتهما الأخيرة.. نعم.. يأمل ألا يكون الموت مؤلمًا وأن كل من لم يذوقوه ويتحدثون عنه بثقة مطلقة محقون.. لكن..

لكن السؤال - الذي قرر نسيانه في النهاية في تلك الليلة ليتفرغ لوحدته - عاد إليه من جديد حين وقف أمام الطفل - الذي هو ليس طفلًا - يرمق ابتسامته القاسية، ليتعالى في رأسه: تُرى.. هل الموت على يدي الشيء مؤلم؟

لكن الصوت العابث تجاهل سؤاله:

- خياركما الأخير لن يكون سهلًا، لكنكما لا تملكان سواه.. وهذه المرَّة لن تدفعا ثمنه فحسب.

ثم تقدم الشيء منه ومن سوسن التي بدت كأنها مجرد جسد يرتجف بلا روح تسكنه، ليردف الصوت العابث:

- بل ستحصلون على المقابل.

فتعالى صوت سوء حظ يوسف في رأسه ليقول:

ـ يوسف.. لقد استنتجت ما سيحدث؟ لكن.. أهو الاستنتاج الصحيح؟

فأجابه يوسف في عقله:

ـ نعم هو.. إنه في حاجة إلينا.

ليتدخل الشيء مقاطعًا حوار يوسف الدائر في عقله:

ـ أنا في حاجة إليكما.. لهذا تركتكما على قيد الحياة حتى الآن، ولهذا كانت لعبتنا منذ البداية.. إنها فرصتكما الأخيرة للنجاة.

واكتسى صوته بلهفة بدت غريبة عليه، حين واصل:

ـ وفرصتي لأكتمل من جديد.

فتساءل يوسف في حيرة:

ـ أتريد العودة إلى عالمك؟

ـ بل نريد العودة إلى عالمكم.. منه خرجنا قسرًا والليلة وبعد كل هذه القرون.. سنعود.

ثم رفع رأسه إلى ظلام منزله كأنه يرى ما لا يراه سواه، ليواصل:

ـ الليلة ستنفتح الثغرة بين عالمينا.. لكنها لن تسمح لنا بالعودة إلا لو نفذ أحدكما التضحية اللازمة.

وابتسم معيدًا تسديد نظراته المتوهجة إليهما، قبل أن يردف:

ـ يجب على أحدكما أن يقتل نفسه.

* * *

ومن وسط ذكرياته وكوابيسه وفي أعماق عقله بدأت قطعة صغيرة في التحرك ببطء آتية من كل ذكرى وكابوس تحاول التجمع لتشكيل حقيقة أدرك يوسف أنه يحتاج إليها وبشدة.

أمامه يقف الشيء في هيئة آخر جسد احتله يشرح، فيستمع إليه يوسف بنصف انتباه:

- هذه هي التضحية اللازمة لفتح الثغرة وعلى أحدكما أن ينفذها.. وحينها سيحصل على المقابل.

وهذه أول قطعة من الحقيقة تحركت في عقل يوسف:

العجوز في القصر.. لقد قتل نفسه ليفتح الثغرة وليطرد هذه الأشياء من عالمنا.. الرجال قالوا إنه كان يعرف ما الذي سيصيبه وإنه كان خيارهم الوحيد.

-سوسن.. لو قتلتِ نفسك فسأترك والديك وسأعيد سامح إلى الحياة.. أعدك بأنني سأعيدهم وسأتركهم وشأنهم فلن أكون في حاجة إليهم بعد الآن.

وهذه القطعة الثانية من الحقيقة:

الشيء يفي بوعوده.. لقد وعدهم بمواصلة اللعبة حتى النهاية ولم يخلف وعده.. ووعدهم بإجابة أسئلتهم ومنحها لهم كاملة.. ووعدهم بهلاك أحدهم وبقاء الثاني في عذاب بلا نهاية وهذا ما يبدو أنه سيحدث!

ثم التفت الشيء إلى يوسف الشارد أمامه، ليواصل:

- وأنت يا يوسف.. لو قتلت نفسك فسأعيدها إلى الحياة.. سأعيد

نادية.. لقد كانت الوحيدة التي أحبتك في هذه الدنيا.. الوحيدة التي اختارتك فهل ستختار لها الحياة؟

لكن القطعة الثالثة من الحقيقة لم يكن لها علاقة بقصة حبه التي لم تكتمل قطُّ:

الشيء لا ينتقل إلا إلى أجساد الموتى.. في كل مرَّة ينفذ أحدهم الطقوس لينتقل إلى جسد فارقته الحياة وليبقى فيه إلى أن يهلك من جديد.. حينها يتحرر ليبحث عن جسد جديد.

- يبدو أن هذا لن يكفيك.. إذن.. ماذا لو أعدت الدكتورة ليلى وعائلتها أيضًا.. لقد كنت أنت من قتلها على الرغم من كل شيء.

يوووووووووسف... أين أاااااانت؟!

إنه يذكر الدكتورة ليلى، ويذكر ما حدث ليلتها.. لقد قتلها دفاعًا عن نفسه.. لم يكن هناك خيار آخر أمامه.. لكنها كانت مَن قتلت عائلتها وكانت تعتقد أن الشيء سيعيدهم إليها في الوقت المناسب.. لقد وعدها بهذا، ومرة أخرى يثبت له الشيء أنه لا يخلف وعوده.

لكن مهلًا.. إن القطعة الرابعة من الحقيقة تحث الخطى في عقله تحاول الالتقاء بباقي القطع:

الحواجز بين عالمنا ستذوب الليلة.. «راسبوتين» كان يحاول إعادته في الليلة الثانية والعشرين.. كان يحاول مساعدته على الاكتمال لكن ليس هنا.. بل هناك!

- لقد خسرتما كل شيء في لعبتكما معي.. لكنها فرصتكما الآن

لتعويض كل ما خسرتماه وللانتهاء من هذا كله.. إنها مخرجكما الوحيد.

وهو محق، فلقد حاول النجاة بنفسه أكثر من مرَّة.. وفشل.

خاض كل فصول اللعبة.. وفشل.

استسلم للموت حين حاولت سوسن قتله، وحتى في هذا.. فشل.

والقطعة الخامسة من الحقيقة تقول:

لهذا أخذ الشيء منهما كل ما أخذ.. ليجبرهما على الاستجابة له، لا من باب العبث والاستمتاع كما كان يظن.. لا بد أنهما ليسا أول اثنين يواجهان هذا الخيار، فلقد رأى من سبقوه في اللوحات.. لقد حاول الشيء كثيرًا من قبل ومثله.. فشل!

ـ لا ترهقا نفسيكما بالتفكير في مخرج آخر، فلا يوجد سوى ما منحتكما إياه.. لو فعلها أحدكما فستنفتح الثغرة وينتهي هذا كله.. ولو لم تفعلاها فسأبقى هنا.. وحينها...

واستحالت نبرة العبث في صوته إلى نبرة تهديد اقشعرت لها جدران المنزل، إذ أردف:

ـ سيدفع الجميع الثمن.

بالطبع سيبقى، بدليل أنه ظل موجودًا حتى الآن.. لا توجد طريقة للقضاء عليه ولا طقوس للتخلص منه.

صحيح أنه بلا جسد يُؤويه، وأنه يتخذ هيئة ابن الدكتور مجدي ـ الذي هو ليس ابنه ـ الآن، لكنه سيجد جسدًا جديدًا وأحمق يردد الطقوس لينقله إليه، وحينها ســ... لكن.. مهلًا.

القطعة الأخيرة من الحقيقة تجد طريقها إلى باقي القطع لتبدأ الحقيقة كاملة في التشكل في عقل يوسف:

إنه يحتاج إلى جسد لينتقل إليه وإلى من يردد الطقوس.. جسد ميت.. أو...

ـ الخيار أمامكما الآن فمن سيفعلها؟ وتذكرا.. أنتما لا تملكان خيارًا آخر.

يلقي الشيء بسؤاله ليبدو التردد على سوسن، قبل أن تكتنفها سكينة من استعد للموت وأدرك أنه لا مهرب منه، لكن يوسف بدأ وقد انتهت الحقيقة من التشكل في رأسه، لتخرج على لسانه:

ـ بل هناك خيار آخر.. وأنت منحتني إياه من دون أن تشعر.

ثم ابتسم ولأول مرَّة منذ أن استعاد صوته، ليقول:

ـ منحتني طريقة القضاء عليك.

* * *

ولكن سوسن لم تكن متواجدة معهما حقًّا.

كانت تشعر كأنما فارقت روحها جسدها لتحلق في ظلام المنزل، ولتجد أنها تنظر إلى جسدها الجامد الذاهل إذ وقف بجوار يوسف وأمام الشيء في هيئة الطفل الذي دمر حياتها وحياة أستاذها مجدي.. لكن زيارتها الأخيرة له في منزله وفي الليلة التي حاول فيها قتل الشيء، أعادت لها القاعدة التي لقنها إياها أستاذها منذ زمن بعيد: الكل يقرأ التاريخ ولا يخرج منه بشيء مفيد.. فقط من يقرأون بين السطور يتمكنون من رؤية الصورة كاملة.

وهذا ما كانت سوسن تحاول فعله.. إنها لم تقرأ التاريخ هذه المرَّة، لكنها زارته في رحلتها الأخيرة للحصول على الحقيقة.. ومن وسط كل ما رأته وخاضته كانت سوسن تحاول قراءة ما بين السطور لتحصل على الصورة كاملة، علَّها تجد مخرجًا لما هي فيه.

لقد سمعت الشيء وهو يلقي عليهما بخيارهما الوحيد، لكنها لم تستجب له لأنها لم تكن هنا أمامه، ولو كانت لوجدت أن خيار قتل نفسها لتنقذ من تحب هو الحماقة بعينها.. فما قيمة أن تضحي بنفسها لتعيد والديها وسامح إلى عالم يعيش فيه الشيء وأمثاله؟!

لا.. إن هذا الخيار لا يستحق التفكير فيه حتى، وكل ما عليها الآن هو أن تقرأ السطور الخفية بين الأحداث التي مرَّت بها، وأن تحاول رؤية الصورة كاملة، لتجد المخرج الوحيد من هذه المواجهة وقبل أن تنتهي الليلة الثالثة والعشرون، وإلا فسيكون قرارها الأخير هو أن تواجه الشيء لتهلك مع يوسف، فهذا ـ وعلى الأقل ـ سيعني أن الثغرة لن تنفتح وأن الشيء لن يكتمل أبدًا.

لكنها.. وعلى الرغم من تفرغها الذهني الكامل لقراءة الموقف.. لم تستطع أن تجد الحل.

السطور الخفية في التاريخ تبدت لها بمشقة، لتقرأ سوسن فيها أنه لا يوجد أمل ولا مخرج، وأنها وفي كل الأحوال ستخرج من هذه الليلة خاسرة.. إن خرجت على قيد الحياة أصلًا!

في كل الأحوال سيبقى الشيء، سواء اكتمل أو لا، وفي الحالتين لن تقل قدراته عما هو يملكه بالفعل، ولن ينقص خطره ولو بمقدار ذرة..

إذن الخيار أمامها الآن واضح.. إما أن تهلك ومعها والداها ليلحقا بسامح الذي احترق حيًّا أمامها ـ من الداخل إلى الخارج ـ وإما أن تهلك هي لتعيدهم ليهلكوا لاحقًا على يدي الشيء أو على يدي واحد ممن سيعودون من عالمه.

فما قرارها الأخير إذن؟

سؤالها هذا ساعدها على التحليق خارج جسدها في ظلام المنزل وكأنها تبحث عن إجابة فيه، إلى أن أعادها يوسف إلى جسدها مضطرة ذاهلة مصدومة، حين أعلن وبثقة لم تتفهمها إطلاقًا:

ـ منحتني طريقة القضاء عليك.

حدقت سوسن ذاهلة في يوسف الذي كان يقف واثقًا وهادئًا أمام الشيء الذي تجمدت ملامحه الطفولية للحظة ليقول بنبرة عبث مفتعلة:

ـ *حقًّا.. وكيف ستفعلها إذن؟*

لتفاجأ سوسن بأن يوسف ـ الذي لم يعشق التاريخ قطُّ كعشقها له ولم يلقنه الدكتور مجدي القاعدة التي لقنها إياها ـ توصل إلى الصورة كاملة قبلها، ليجيب بآخر شيء توقعته أو كان لها أن تتخيله:

ـ بالطريقة الوحيدة التي أملكها.. سأمنحك جسدي.

وهنا قفزت قطع الحقيقة في عقلها لتشكل الصورة كاملة في رأسها وكأنما قفزت من عقل يوسف إلى عقلها في لحظة واحدة.

الشيء لا ينتقل إلا إلى جسد ميت.. ويوسف نصف جسده مات بعد أن أخذه الشيء منه.

الشيء لا ينتقل إلا بالطقوس.. ويوسف سمع الطقوس حين رددتها المرأة في الغابة أمامه ومن بعدها «فلاد»، وهو الآن يذكرها كاملة بعد أن أفقده الشيء قدرته على النسيان.

الثغرة لن تنفتح إلا لو ضحى أحدهما بنفسه.. ويوسف اختار أن يفعلها لينقذها هي.

أحدهما سيهلك والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية.. لكن...

هل ستنجو حقًّا؟

فأتتها الإجابة بأن تخلى الشيء عن هيئة الطفل الذي احتل كوابيسها منذ أن بدأ هذا كله، ليتحول إلى كتلة هائلة من الظلام انتشرت أمامهما لتملأ المنزل في نهاية العالم، ولتتوهج فيه عينان غاضبتان حدقتا في يوسف الهادئ، قبل أن يتصاعد الصوت الهادر الذي لم يعد عابثًا أبدًا، يصيح:

ـ *لن تجرؤ.. لن أسمح لك؟*

ليجيبه يوسف ساخرًا وبذات إجابته:

ـ حقًّا.. وكيف ستفعلها إذن؟

ثم ومن دون أن يمنحه فرصة للرد أو الاعتراض.

بدأ يوسف ترديد الطقوس.

* * *

كان يوسف يدرك أنها نهايته لا محالة.

كان يدرك أن الشيء قد يسحقه ليمنعه من ترديد الطقوس، أو أنه قد يقضي عليه بمجرد أن يحتل ما مات من جسده، لكنه ـ وكما أخبره الشيء ـ

لم يكن يملك الخيار.. فقط تعالى صوت سوء حظه للمرَّة الأخيرة على الإطلاق في رأسه ليقول:

ـ وداعًا يا يوسف.

فلم يجبه يوسف، بل واصل ترديد الطقوس التي تعالت بصوت المرأة في الغابة وبصوت «فلاد الثالث» في رأسه.. طقوس استدعاء الشيء والتي كانت هي طقوس القضاء عليه طوال الوقت من دون أن يدركا هذا إلا متأخرين.. متأخرين جدًّا.

الطقوس التي لا يملك الشيء إلا الاستجابة لها ورغمًا عنه.

أمامه تلاشت العينان المتوهجتان وإن تعالى الصوت الهادر يصرخ بغضب تصدعت له جدران المنزل.. صرخة من عالم آخر.. لكن يوسف واصل ترديد الطقوس.

سطعت اللوحات كلها من حوله فجأة، وفيها ظهر كل من خاضوا اللعبة قبله وهلكوا، لكن يوسف واصل ترديد الطقوس.

مرت مئات الصور والأصوات والذكريات في رأسه، لكنه واصل ترديد الطقوس.

انفجر صوت الشيء ثانية فارتجفت الأرض من أسفله بقوة تأرجح لها المنزل كله مهددًا بالانهيار، ولكنه واصل ترديد الطقوس.

صرخت سوسن برعب لا حد له وقد بدا لها الأمر أنه نهايتهما معًا، لكنه لم يسمع صرختها، بل واصل ترديد الطقوس حتى نهايتها و.. و..

وفي اللحظة التالية انتقل الشيء إلى جسده.

* * *

للحظة شعر يوسف بثقل هائل يجثم على جسده يهم بأن يسحقه، ثم اخترق الثقل جسده ليشعر به يكاد ينفجر.

وفي جسده تحول الثقل إلى طاقة لا حدود لها رفعته ليحلق في ظلام المنزل، وصرخات سوسن تتعالى فلا تصل إلى عقله الذي تفجرت فيه ذكريات أكثر من قرنين من الزمان لتغيب فيها ذكرياته التي عاناها طويلًا.

في لحظة امتزج كيان الشيء بكيانه، وامتزج عقل الشيء بعقله، لتكتنف يوسف رغبة عارمة في الصراخ، لكنه عجز عن الاستجابة لها وقد اختنقت أنفاسه في صدره، فأغمض عينيه بقوة مستسلمًا لصراخ الشيء الهادر الذي تعالى من داخل رأسه، قبل أن يفتح عينيه مرغمًا، ليجد أنه استعاد الرؤية بعينه اليسرى، وليفاجأ بأن الظلام من حوله تبدد تمامًا ليكشف عن كل تفاصيل المنزل التي لو رأتها سوسن لفقدت عقلها هلعًا.

اللوحات سطعت من حوله، لكنها لم تكن مجرد لوحات متحركة هذه المرَّة تحكي له قصته وقصة سوسن وقصص كل من سبقوهما.. بل كانت تبدو كأنها ثغرات في جدار الواقع تقود إلى أزمنة مختلفة خاضها الشيء وانتصر ليدفع جميع من في اللوحات الثمن.

جدران المنزل كانت حية فعلًا.. كانت تتنفس وتنتفض وتتلوَّى وترتجف وكانت شقوق هائلة قد أخذت في تمزيقها لتكشف عن ضباب الغابة خارجها.

وكان هناك ذلك السلم الذي يقود إلى الثغرة.

سلم طويل بدا كأنه يمتد وبلا نهاية بدرجاته المظلمة المتوهجة وفي قمته كانت الثغرة تنفتح ببطء، كاشفة عن العالم الذي ينتمي إليه الشيء.

عالم لو كان يوسف قد رآه قبل أن يردد الطقوس لما رددها أبدًا ولما خاطر، ليجد نفسه يحدق في ملايين العيون المتوهجة التي أطلت من الثغرة لتحدق فيه مباشرة بمزيج من اللهفة والغضب.

إنني أرى بعيني الشيء.

طافت هذه الفكرة في رأسه للحظة قبل أن تنسحق مع فيض الذكريات والأفكار وصراخ الشيء، ثم انتفض جسد يوسف بقوة كادت أن تهشم عظامه، قبل أن يَهوِي فجأة وقد تعاظم الظلام من حوله فجأة.

وكان آخر ما سمعه يوسف هو صرخة الشيء في رأسه إذ ردد:

- *أيها الأحمق.. الآن ستدفع الثمن.*

* * *

وتعالى صوت صلاح يعدُّ باستمتاع:

- واااااااحد.. اثنااااااان.. ثلاااااااثة..

فوجد يوسف أنه عاد إلى مدرسته القديمة وإلى طفولته ليقف بجسده النحيل الضئيل، ينتظر أن ينتهي صلاح من العد ليبدأ مطاردته.

إنه يذكر هذا اليوم.. يذكر ذلك القميص الذي يرتديه صلاح.. ويذكر تلك البقعة الداكنة في ظهره ويذكر أنه كان المتسبب فيها.. ويذكر أنه اليوم الذي مات فيه صلاح بعد أن صدمته السيارة، لينتهي به الأمر جثة تنزف ويلامس فكها السفلي أذنها.. إنه يذكر هذا اليوم وها هو يخوضه من جديد، ولكن.. ولكن الصوت الذي كان عابثًا تعالى في رأسه يقول:

ـ أتريد أن تعرف إن كان الموت مؤلمًا أم لا؟ الآن ستعرف.

ليجد يوسف الطفل نفسه ينطلق هاربًا، وصلاح يواصل العد بذات الاستمتاع:

ـ أربـــــــعة.. خاااااااامسة..

لم يكن يوسف يريد الهرب لحظتها، لكنه لم يكن يملك الخيار.. إنه يعيش الذكرى كاملة وينفذ فيها كل ما حدث فعلًا، وهو يعرف كيف ستنتهي لكنه ـ وعلى الرغم من هذا ـ شعر بالهلع ذاته الذي استبد به يومها.

ـ ستـــــــة.. ساااااااابعة.. ثماااااااانية..

لكن يوسف الطفل ابتعد.. خرج من الفصل.. إلى الممرات.. إلى خارج المدرسة.. إلى الشارع.. صلاح الآن وراءه بجسده الضخم وبأصابع مفرودة حتى نهايتها تشق الهواء شقًّا يطارده.. متى انتهى من العد؟ لا يهم.. يجب أن يهرب.. أن يهرب وأن ينجو وأن ينتظر السيارة التي ستقتل صلاح لتنقذه.. المسافة بينهما تتناقص تدريجيًّا و.. و..

وتعالى صوت الفرملة الحادثة ليشعر يوسف بالجسد المعدني القاسي يرتطم بجسده ليهشم كل عظمة من عظامه، قبل أن يحلق في الهواء للحظات حاول فيها الصراخ، لينثر دماءه من فمه إلى العالم من حوله، قبل أن يرتطم بالأرض بقسوة هشمت ما تبقى في جسده من عظام، ليستقر هناك وفكه السفلي يلامس كتفه.

حاول أن تتخيل الألم.. حاول أن تتخيل العذاب.. ثم حاول أن تتخيل

أنه وبعد هذا كله لم يمت ولم يتمكن حتى من أن يصرخ أو يئن أو أن يستسلم للموت.. حاول أن تتخيل.

ـ ستعرف المعنى الحقيقي للألم.. ستعرف وستندم على حماقتك هذه.

ثم تعاظم الظلام من حول يوسف.

* * *

وفي هذه اللحظة كانت سوسن تصرخ، وقد أخذت الأرض من أسفلها تنتفض محاولة إسقاط المنزل على رأسها.

ذاهلة رأت يوسف وهو يحلق في سماء المنزل قبل أن يَهوِي ليختفي وليتركها تواجه مصيرها بمفردها، فواصلت الصراخ حتى فقدت أنفاسها لتتوقف أخيرًا ولتنهار على ركبتيها تستند إلى الأرض المرتجفة تحاول أن تمنع نفسها من السقوط.

ثم توقف كل شيء فجأة.

توقفت الأرض عن الانتفاض، وتوقفت جدران المنزل عن الارتجاف، وعلى الأرض أمامها استقر يوسف بجسده الذي غادره وعيه، ليبدو أمامها كأنه يرقد في غيبوبة عميقة لن يستيقظ منها أبدًا.. أسرعت إليه لتتفحصه وهي تعرف أنها لن تستطيع إسعافه بأي حال من الأحوال، لكنها لم تجد الفرصة لتبلغه.. فمن الظلام تعالى صوت مختنق ـ لكنه مميز ـ يقول:

ـ اقتليه.. اقتلي يوسف.

فانتفضت سوسن والتفتت إلى مصدر الصوت لتجد صاحبه يخرج إليها من الظلام بخطوات زاحفة بطيئة.. رأته فاتسعت عيناها هلعًا وتدلى

فكها، وفي صدرها كاد قلبها أن يتوقف.. وأمامها كرر سامح وقد أخذت الأبخرة تتصاعد من جسده متوسلًا:

ـ اقتلي يوسف.. أنقذيني واقتليه.

* * *

و في غرفة الزيارة في السجن جلس يوسف أمام الدكتور مجدي وقال:

ـ أنا هنا لأتحدث معك قليلًا.. إذا سمحت لي.

فلم يجبه مجدي، تمامًا كما توقع وكما حدث بالفعل.. لكن يوسف قرر مواصلة دوره بصورة ميكانيكية بحتة، ليضغط زر التسجيل وليمسك بقلم يعرف أنه لن يخط به حرفًا واحدًا على الأوراق أمامه، قبل أن يقول:

ـ أريد أن أعرف منك ما الذي حدث في تلك الليلة بالضبط.

قالها من دون ذرة شك في مدى سخافة ما قاله، لكنها البداية الوحيدة التي تكرَّم بها عقله عليه، فلم يتراجع وواصل قائلًا:

ـ هل قتلت ابنك بالفعل؟

ويوسف كان يذكر تمامًا ما حدث يومها.. يذكر ويعرف أن الدكتور مجدي لن يجيب عن أي سؤال من أسئلته، وأنه سيلوذ بالصمت إلى أن تأتي اللحظة التي سيُلقي فيها بمفاجأته قبل أن يحاول الانتحار بقلمه، لكن يوسف لم يكن يملك إلا أن يواصل المشهد حتى نهايته.

ـ دكتور مجدي.. هل تسمعني؟

بالطبع هو يسمعه لكنه لن يجيب.. إنه مثله هنا أتى ليواصل الدور ذاته

الذي لعبه سابقًا، ويوسف يذكر ما حدث وسيحدث بالتفصيل.. سيحافظ الدكتور مجدي على صمته.. سييأس هو من محاولات إقناعه بالحديث.. وفي النهاية سيقرر أن يكتب إجاباته نيابة عنه ليخرس بها مدير التحرير الذي لن يقتنع بما سيكتبه أبدًا وهذا ما حدث وبأدق التفاصيل.. فقط كان صوت الشيء هو ما تعالى في رأسه هذه المرَّة، ليقول:

ـ *ستعرف الموت وبكل صوره.. وستندم.*

فلم يجبه يوسف، بل واصل توجيه أسئلته للدكتور مجدي أمامه، لترتد إليه خاوية لا تحمل إجابات.. ثم ـ وكما حدث تمامًا من قبل ـ بدأ يوسف في إجراء الحوار مع نفسه، حتى وصل إلى اللحظة التي قال فيها:

ـ لا أعرف إن كان قد استيقظ أم لا بعد الضربة الأولى، لكنني سأكتب أنه لم يفعل.. القراء لن يتحمَّلوا فكرة أن يكون ابنك قد استيقظ وظل على قيد الحياة بعد الضربة الأولى.. مجرد فكرة أنه فتح عينين مذعورتين ونظر إليك والدماء تتفجر من رأسه من دون أن يجبرك هذا على التوقف مثيرة للغثيان حقًّا.. لقد مات مع الضربة الأولى لكنك واصلت ضربه و..

وهنا قاطعه الدكتور مجدي وللمرَّة الأولى، ليقول:

ـ لكنه لم يمت.. هشمت رأسه بالمِطرقة.. لكنه لم يمت!

فترك يوسف نفسه يُصاب بالذهول منتظرًا اللحظة التي سينتزع فيها الدكتور مجدي قلمه منه ليغرسه في عنقه لينتهي هذا المشهد، لكن الدكتور مجدي توقف عن تكرار دوره، لينتزع قلم يوسف بالفعل، قبل أن ينقض عليه بغتة ليغرسه في عنقه هو!

ترى.. هل الموت مؤلم؟

وفي اللحظة التي اخترق فيها القلم عنق يوسف وصلته الإجابة، ليكتشف أنه مؤلم جدًّا.. مؤلم فوق قدرتك على التخيل.

لقد شعر بالقلم يخترق جلده ويمزق أوردته وشرايينه، وشعر بدمائه الساخنة تتفجر من جرحه قبل أن يسقط أرضًا ليجثم الدكتور مجدي على صدره وقد استبد به جنون مطبق، انتزع معه القلم من عنق يوسف قبل أن ينهال عليها ثانية ليمزق المزيد من الأوردة والشرايين.

ولم يجد يوسف الفرصة ليصرخ أو يقاوم.

دماؤه تفجرت غزيرة وتناثرت على وجه الدكتور مجدي الذي انتزع القلم.. وغرسه للمرَّة الثالثة..

والرابعة..

والخامسة..

لكن يوسف لم يمت!

الدكتور مجدي واصل تمزيق عنقه بالقلم، ليشعر يوسف بألم كل ضربة وكل نقطة دماء فارقت جسده، لكنه ظلَّ على قيد الحياة والصوت الهادر يتعالى في رأسه صارخًا:

ـ *ستندم أيها الأحمق.. ستندم.*

فلم يعد يوسف يملك حنجرة ليجيب بها.. فقط خرجت حشرجة غير مفهومة من فمه مع المزيد من الدماء، قبل أن يتعاظم الظلام من حوله فجأة.

* * *

واستعادت سوسن قدرتها على الصراخ فتعالت صرختها مدوية في ظلام المنزل، وأمام سامح الذي أخذ يقترب منها بخطواته الزاحفة.

من جسده أخذت الأبخرة تتصاعد بكثافة قبل أن تتحول إلى أدخنة حقيقية امتزجت برائحة الشواء اللعينة، وفي وجهه أخذت عيناه تنتفخان بصورة يستحيل ألا يكون قد فقد معها قدرته على الرؤية، ولكن صوته المختنق وجد طريقه إلى فمه، ليخرج منه قائلًا:

ـ اقتلي يوسف.. اقتليه.

فصرخت سوسن ثانية وقد فقدت القدرة حتى على إغلاق عينيها لتمنع نفسها من رؤية أسوأ كوابيسها ثانية.

صرخت.. وصرخت.. وصرخت.

وفي النهاية بلغها سامح أخيرًا ليَهوِي أمام قدميها مباشرة، ولتشب النيران في جسده فجأة لتضيء المنزل ولتتراقص ملايين الظلال على جدرانه، وقد أخذ الجسد المشتعل يتلوَّى أمامها للحظات ويئن قبل أن تخمد حركته وصوته تمامًا.

ثم تلاشى الجسد فجأة من أمامها ليسود الظلام من جديد.

وليتعالى صوت الدكتورة ليلى هذه المرَّة يقول:

ـ يووووووووسف.. أين أاااااانت؟

فلا يجيب يوسف الذي وجد نفسه في قبو منزلها من جديد يختبئ وراء جثة ابنتها.

ها هي أسوأ ذكرياته تتوالى عليه واحدة تلو الأخرى مع إضافات

مبهجة، وها هو يرتجف ويحاول ألا يصدر أدنى صوت قد يكشف عن مكانه للدكتورة ليلى التي واصلت هبوط الدرج الخشبي وسكينها في يدها، مرددة:

ـ يوووووووووسف.. أنا أعرف أنك هنا!!!!!!!!.

فلا يجيب يوسف، بل يواصل لعب دوره حتى النهاية.. فقط هذه المرَّة كان يعرف أن الليلة ستنتهي بالدكتورة ليلى وقد عثرت عليه لتغرس سكينها في جسده.. بالطبع هذا ما سيحدث هذه المرَّة، فالشيء سيذيقه كل ألوان الموت قبل أن يقضي عليه فعلًا.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

فقرر يوسف أن يقاوم، وأغمض عينيه في قوة تاركًا الدكتورة ليلى تقترب منه، وهي تردد:

ـ يوووووووووسف.. لا أريد أن أقضي الليلة هنا فأنا لم أنم جيدًا.

* * *

ومن الظلام خرجت الدكتورة ليلى إلى سوسن والسكين مغروس في صدرها، فلم تصرخ سوسن هذه المرَّة.

لقد فهمت الآن.. الشيء لا يعابثها ولا يحاول إفقادها عقلها.. بل هو في حاجة إليها.

إنه يريد منها أن تنقذه.

وبالفعل اقتربت منها الدكتورة ليلى، لتكرر ما قاله سامح ذاته:

ـ اقتليه.. اقتلي يوسف.

ثم انتزعت السكين من جسدها لتمد به يدها إلى سوسن.. فقط أضافت هذه المرَّة:

ـ اقتليه وسأتركك تخرجين من هنا.

* * *

وفي قبو الدكتورة ليلى قرر يوسف العودة.

إنه ليس موجودًا هنا الآن.. إنه يحلم.. الشيء يعيد له أسوأ كوابيسه، لكن ما يحدث حوله الآن لا «يحدث» حقًا.. إنه مجرد كابوس لا أكثر.. كابوس سينتهي بموته لو استمر حتى نهايته.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

فيقاوم يوسف ويحاول الخروج بعقله من هنا وقد أخذت الدكتورة ليلى تقترب منه وسكينها في يدها.

كان عليه ألا يدخل هنا.. كان عليه أن يستمع إلى سوء حظه وألا يخاطر بالدخول.. لو كان فعلها لما كان قد حصل على المفتاح الذي استخدمه في الدخول إلى منزل الشيء، ولربما كان دوره في هذه القصة قد انتهى عند هذا الحد و.. لا.. لا وقت لهذه الأفكار الآن.. يجب أن يعود.. يجب أن يصعد السلم إلى الثغرة.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

فيقاوم يوسف ويترك جسده يسترخي على الرغم من دقة الموقف.. وببطء أخذت الموجودات من حوله في التلاشي، ليتراقص أمل ضئيل

في أعماقه ـ وإن كان يعرف ما ينتظره في منزل الشيء ـ وليسترخي أكثر فأكثر و..

وهوت يد الدكتورة ليلى على كتفه، ليتعالى صوتها ظافرًا هذه المرَّة يقول:

ـ عثرت عليك.

* * *

وكالمأخوذة أخذت سوسن السكين من الدكتورة ليلى.

السكين ذاته الذي عثرت عليه في سيارة يوسف ليلة أن أنقذته لتحاول قتله به.. الموقف ذاته يتكرر أمامها وبأدق التفاصيل.. يوسف راقد أمامها في غيبوبته والسكين في يدها والخيار واضح.. فهل ستقتله هذه المرَّة؟

تقول الدكتورة ليلى بصوت الشيء مشجعة:

ـ سينتهي كل شيء لو قتلتِهِ.. سيعود والداك وسامح وستخرجين من هنا.. إنها فرصتك الأخيرة.

فتشعر سوسن بالتردد ويفاجئها هذا الشعور.

إنها لم ترَ الدكتورة ليلى سابقًا، لكنها عرفت ما حدث لها من يوسف.. وهي الآن تعرف أنها ليست هي.. الموتى لا يعودون إلى الحياة، ومن يقف أمامها الآن هو الشيء يطلب منها أن تنقذه.. يطلب منها أن تفعل ما عجزت عنه سابقًا.

تتلاشى الدكتورة ليلى من أمامها ببطء، لكن السكين يبقى في يدها ثقيلًا باردًا يؤكد لها أنه يصلح لما عليها فعله.. كل ما عليها الآن هو أن

تنحني على يوسف.. تغرس النصل في عنقه.. تغمض عينيها في قوة ثم تحرِّك يدها بالسكين إلى الأسفل.

هكذا وبكل بساطة!

حينها سيتحرر والداها وسيعود سامح وستنجو هي و.. ولكن الموتى لا يعودون إلى الحياة، فكيف سيعيد إليها الشيء سامح إذن؟!

حتى وإن حافظ الشيء على «عدم» التزامه بالمنطق، فمن يضمن لها أن من سيعود سيكون سامح حقًّا؟ لو عاد.

من قال إنه سيكون لها؟

ألم يتركها من أجل أخرى لا تعشق التاريخ مثلها؟

لماذا تشعر بالتردد إذن؟!

فتأتيها الإجابة من ظلام المنزل وبصوت الشيء:

ـ على الأقل سيتحرر والداك.. وستخرجين من هنا.

فتجد سوسن نفسها تنحني كالمأخوذة على جسد يوسف الراقد أمامها، والسكين في يدها.

نعم.

على الأقل سيتحرر والداها وستخرج من هنا.

* * *

وفي اللحظة التي فتح فيها يوسف عينيه وجد سوسن تجثم على صدره تهم بأن تغرس سكينها في عنقه.

وللحظة وجد أنه يذكر ذلك الموقف الذي خاضه من قبل في سيارته وفي الليلة التي كاد عصام أن يلقي القبض عليه فيها و.. لكن لا.. لا وقت لهذا الآن.

لهذا هبَّ يوسف واقفًا على الفور تاركًا سوسن تتراجع شاهقة في ذهول، وهي التي لم تتوقع أن يستعيد وعيه أبدًا، ليلتفت هو إلى ظلام المنزل الذي أصبح قادرًا على اختراقه بعينيه، لينظر إلى السلم المتوهج أمامه، والذي يقود إلى الثغرة التي تفصل بين عالمه وعالم الشيء.

يجب أن يصعد السلم وبسرعة.

يترنح يوسف محاولًا الاتجاه إلى ما لم تره سوسن، والتي نادت بلهفة تاركة السكين يسقط من يدها:

ـ يوسف.

من دون أن تكمل نداءها.. فهي لم تكن تعرف إن كان عليها أن تعتذر أو أن تسأله عمَّا يحدث.. فقط نادت اسمه فلم يستجب هو لها، بل قاوم تلك القوة الكاسحة في أعماقه والتي حاولت منعه من المواصلة، ليتجه إلى السلم وليضع قدمه على أول درجاته، لتدوي صرخة الشيء في رأسه كانفجار ألف قنبلة.

يجب أن يصعد السلم وبسرعة.. يجب.

تتردد قدمه الثانية وترتجف.. ثم تستجيب له في النهاية ليخطو على الدرجة الثانية من السلم و.. ويتعاظم الظلام من حوله فجأة.

* * *

يجد يوسف نفسه يعدو هاربًا هابطًا درجات سلم قصر «بوناري» وهو يعرف أن السهم قد يخترق ظهره في أي لحظة وهو يذكر ما حدث بعدها.

سيشعر بالألم الحاد في ظهره ثم سيندفع جسده ليسقط وليتهشم على الدرجات الصخرية وسيشعر بكل ذرة ألم و..

ويجب أن تعود يا يوسف.. يجب أن تصعد السلم.

فيتوقف يوسف عن الهرب ويغمض عينيه محاولًا العودة.

* * *

ثم يصعد يوسف درجة جديدة على السلم الذي سيقوده إلى نهايته.

ينتفض الشيء صارخًا في جسده ويتعالى صوته في رأسه:

ـ لن تجبرني على العودة.. لن أسمح لك.

ليهمس يوسف كمن يحتضر:

ـ بل ستعود.

ـ لن أسمح لك.

ويتعاظم الظلام من حول يوسف.

* * *

وعلى العربة يجد يوسف نفسه والأسهم المشتعلة تتطاير من حوله و«إليزابث باثوري» في قفصها المعدني تضحك بجنون مطبق.

النيران تنتشر في العربة ومطاردوهما يأخذون في الاقتراب منهما أكثر فأكثر.

* * *

ويصعد يوسف درجة أخرى على السلم.

وفي الأسفل أخذت سوسن تحدق فيه ذاهلة وكأنما تحول يوسف أمامها إلى بطل أسطوري يخوض آخر فصول ملحمته.

لم يكن في استطاعتها أن ترى السلم كيوسف، لكنها كانت تراه يقاوم وبإرادة لم تتخيل أن يملكها بشر ليرفع قدمه ببطء قبل أن يضعها على درجة جديدة من الفراغ، ليصعد جسده خطوة جديدة إلى الأعلى.

وإلى الأمام.

رأت الألم في وجهه، لكنه صعد درجة أخرى.

رأت جدران المنزل تنتفض من جديد، لكنه صعد درجة أخرى.

رأت الظلام يتحول إلى إعصار حاول أن يطيح بيوسف، لكنه صعد درجة أخرى.

وأخرى..

وأخرى..

وأخرى.. حتى بدأ يغيب في الظلام، فانهمرت الدموع من عينيها وقد شعرت بما سيحدث له، لتناديه مرَّة أخيرة:

- يووووووووسف.

لكنه لم يجب.. ولم يتوقف.

تحول الألم إلى جزء من تكوينه، لكنه لم يتوقف.

مات بألف طريقة في ألف زمن، لكنه لم يتوقف.

رأى الهول ذاته ينتظره عبر الثغرة، لكنه لم يتوقف.

صاعدًا واصل طريقه على السلم وصرخات الشيء تمزق جسده تمزيقًا، حتى أصبح على قيد خطوات من الثغرة ليقف هناك يحدق في ملايين الأعين المتوهجة التي أخذت ترمقه في غضب وكراهية، وليتعالى صوت الشيء في رأسه منذرًا:

ـ *لو عبرت الثغرة فلن تعود أبدًا.*

فأجابه يوسف في عقله:

ـ وأنت أيضًا لن تعود.

ـ *ستبقى حيًّا.. ستحيا في عذاب بلا نهاية.*

ـ إنه الثمن الذي عليَّ دفعه.

ـ *ستكون وحيدًا في عالمي.. ستعاني الألم والوحدة إلى الأبد.*

فتوقف يوسف وابتسم لآخر مرَّة في عالمه، قبل أن يجيب:

ـ لن أشعر بالفارق إذن.

ثم ومن دون لحظة واحدة من التردد وحاملًا الشيء في جسده.

عبر يوسف الثغرة لينتهي دوره في هذه القصة.

١٩

حين استيقظت سوسن في سيارة عصام أدركت أن الأمر قد انتهى.

لقد كان آخر ما رأته هو ذلك الضوء الذي تألق فجأة في سماء المنزل المظلم ليملأ العالم من حولها، قبل أن تدوي صرخة الشيء هادرة غاضبة عاجزة متوسلة، لتنفجر جدران المنزل معها كحفنة من الرماد أطاحت بها عاصفة عاتية.. ثم لم ترَ سوسن ما حدث بعدها.

الأرض من أسفلها تلاشت، لكنها لم تهوِ ككل مرَّة.. على العكس تمامًا وجدت نفسها تحلق في فراغ لا وجود فيه لضوء أو ظلام أو أي صوت.. وفي أعماقها شعرت بسكينة افتقدتها واشتاقت إليها طويلًا، قبل أن تتذكر يوسف ثانية ليستبد بها القلق واللهفة.

ترى ما الذي حدث له؟

سؤالها دفعها للتلفت حولها، لكنها وجدت العدم ينتظرها ويبادلها النظرات في كل جهة.. حاولت أن تناديه، لكنها لم تسمع نداءها.. لم تسمع أي صوت على الإطلاق ولم تشعر به قربها.. وببطء بدأت تستوعب حقيقة أنه لم يعد هنا.

يوسف الناحل سيِّئ الحظ الذي لم يحب التاريخ قطُّ ـ وإن خاض أسوأ ما فيه ـ لم يعد هنا.

ثم وفي اللحظة التالية وجدت نفسها ترقد داخل سيارة عصام في الطريق الصحراوي المظلم، والذي لم يعد مهجورًا خاليًا.

بجوارها مرقت سيارة مسرعة لتؤكد لها أنها عادت إلى أرض الواقع المرير الذي ينتظرها، وأن القصة كلها انتهت.

لم يعد هناك الشيء.

ولم يعد هناك يوسف.

كان آخر ما فعلته سوسن ليلتها هو أنها تكورت على نفسها في المقعد الخلفي لسيارة عصام، لتنهمر الدموع من عينيها وكأنها بلا نهاية.

٢٠

بعد أن اطمأنت على والديها قررت الرحيل.

من دون أن تلتقيهما راقبت منزل جدها، حتى رأت والديها يخرجان منه كمولودين يكتشفان العالم الخارجي لأول مرَّة، فابتسمت في رضا وإن سالت من عينيها دموع اللهفة والاشتياق.. لقد كانت تعرف أنها لن يمكنها العودة إليهما أبدًا.

نعم القصة انتهت، لكنها لا تزال هاربة، فعلى أرض الواقع لا يزال سامح ميتًا ولا تزال هي متهمة بقتله وبقتل عصام الذي عثروا على جثته لاحقًا.. لقد كانت هي ويوسف آخر من كانوا معه.. الهرب هو «الخيار الوحيد» الذي تملكه، ولكنها استسلمت له هذه المرَّة راضية.

ستختفي عن الأعين إلى أن ينساها الجميع، والزمن كفيل بأن يساعد والديها على نسيانها.. المهم أنهما بخير.. وأنهما تحررا من قبضة الشيء.

يومها، وبعد أن رأتهما يخرجان من منزل جدها مسحت دموعها، لتهمس لهما من دون أن يبلغهما صوتها:

ـ وداعًا.. سأشتاق إليكما حتى آخر يوم في عمري.

ثم ومن دون أن تضيف المزيد.

استدارت.

ورحلت.

٢١

سنوات طويلة مرَّت على سوسن لم تنسَ فيها ما حدث أبدًا.

إلى مدينة جديدة انتقلت لتعيش باسم جديد وهوية جديدة محاولة فتح صفحة جديدة في حياتها، حاملة معها ما تبقى من ذكريات الشيء وأستاذها مجدي ومنقذها يوسف.. ولسنوات طويلة ظلت تحلم بيوسف وتتساءل:

ترى.. هل ستراه مجددًا في يوم من الأيام؟

سؤال لم تحصل على إجابته قط، وإن كانت تستيقظ كل مرَّة من حلمها لتجد دموعها تنهمر من عينيها تحمل مذاق الامتنان، فكانت تتركها تسيل على وجهها إلى أن تخلد للنوم من جديد لتحلم به مجددًا.

إن الزمن كفيل بالنسيان.

فهل ستنسى يوسف؟

٢٢

وفي أحد الأيام تزوجت سوسن برجل لا يعشق التاريخ وكان هذا أكثر ما جذبها إليه.

لم تخبره باسمها الحقيقي، ولم تشعر بتأنيب الضمير لإخفاء سرها عنه، فقد قررت أن سوسن لم يعد لها وجود في هذه الدنيا.. تمامًا مثل يوسف.

إنها الآن امرأة جديدة تحاول أن تقضي ما تبقى لها على هذه الأرض في هدوء، والرجل الذي تزوجته كان يحبها بحق.

وبعد عام واحد من زواجها، وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة، كانت سوسن ـ التي لم يعد اسمها سوسن ـ تضع مولودها الأول في أحد المستشفيات، لتمر عليها ساعات طويلة من الألم والصراخ، انتهت بطفلها يطلق صرخته الأولى يعلن بها عن وصوله إلى عالمنا هذا مرغمًا.. ليلتها حمله أبوه بفخر وسعادة لا حد لهما، ليعلن:

ـ إنه صبي.. لقد رُزقنا بصبي.

فابتسمت من كانت سوسن بإنهاك وقد التصقت خصلات شعرها بوجهها، لتقرر:

ـ سيكون اسمه يوسف.

ليجرب أبو الطفل اسمه بفمه:

ـ يوسف.. لا بأس.. سيكون اسمه يوسف.

ثم بادلها ابتسامتها قبل أن يردف وهو يحيطها بذراعه:

ـ وسيكون سعيد الحظ.

«يعبر تامر إبراهيم بسلاسة ذلك الحاجز الفاصل بين التشويق والرعب، ليبرهن على أنه لا يوجد حاجز أصلًا، وأن هرولة الوقت ذاتها قد تكون مرعبة أكثر من قبو يعج بالتوابيت. في الوقت ذاته هو قادر تمامًا على ارتياد عوالم رعب لا أجرؤ على ارتيادها» - د. أحمد خالد توفيق

هذه هي المواجهة الأخيرة!

سيخوض يوسف وسوسن ما تبقَّى من فصول اللعبة التي أوشكت على نهايتها... فهل سيكتشفان أخيرًا الحقيقة في الليلة الثالثة والعشرين؟

بعد كل ما خاضه يوسف في «صانع الظلام»، وكل ما رآه وعرفه، وبعد أن حصل على أجزاء من الحقيقة - دافعًا ثمنها بأسوأ طريقة ممكنة - لا تزال الحقيقة الكاملة بعيدة المنال، ولا تزال اللعبة مستمرة بقواعدها الرهيبة، حاملة له المزيد من الخيارات المريرة، والمزيد من الأسرار...

يتألق تامر إبراهيم، أحد أبرز كُتَّاب الرُّعب في العالم
أخرى في هذا الجزء الثاني والأخير من ثنائية «صانع
معه رحلةً قمة في التشويق والإثارة، نهايتها لن تحس
فحسب، بل مصير العالم كما نعرفه





دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



تصميم الغلاف: أحمد مراد